

عبد الحميد الجوهري

# التصوف مشكاة الخيران

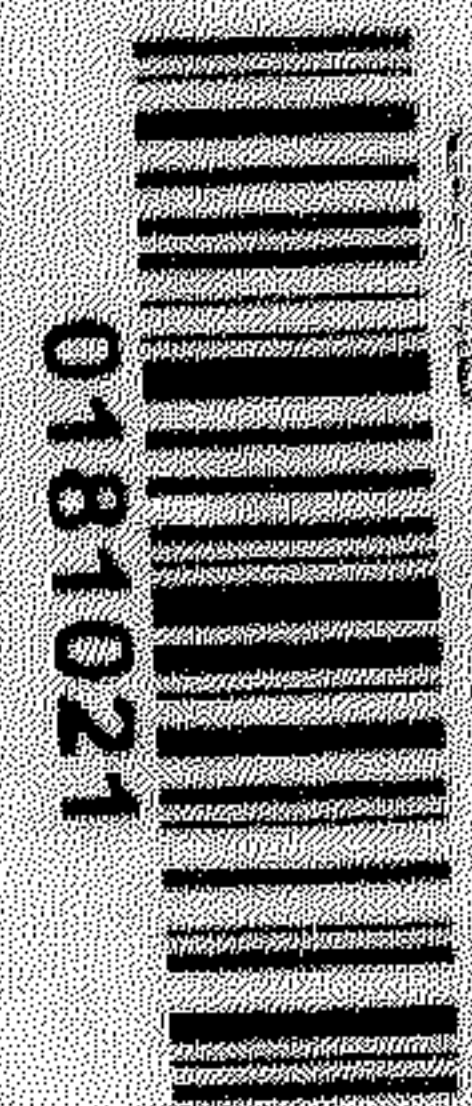
شفاء لجيل الظمأ

مشكاة العقل التائه

يوضح خط الخيران

يقوي شعلة الإيمان

نبراس يوم المعاد



Bibliotheca Alexandrina

أفريقيا/شرق



التصوف مشكاة الحيران

© أفريقيما الشرق

رقم الإيداع القانوني : 1996 / 1199

ردمك : 4 - 055 - 25 - 9981

# التصوف مشكاة الحيران

شفاء لجيل الظمأ  
مشكاة العقل التائه  
يوضح خط الحيران  
يقوي شعلة الإيمان  
نبراس يوم المعاذ

تأليف

عفوربه  
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA  
مكتبة الاسكندرية  
الأستاذ: عبد الحميد الجوهري

أفريقيا الشرق

# إهداء

إلى جيل الظمأ والتيه والحيرة والرفض .  
إلى جيل نهاية القرن العشرين وما والاه .  
إني من أبناء جيلك ، وسأكون يوماً شبحاً . تأمل هذا المعنى ، واجعل مفتاح الحياة سر  
الطمأنينة والاستقرار .  
وهذا السر لا يوجد إلا في الانقطاع إلى حب الله والتزود من معينه .  
إقرأ كتابي هذا ، واذكري عند ربي .

المؤلف

## بسم الله الرحمان الرحيم

### مقدمة

«الحمد لله رب العالمين، الرحمان الرحيم، مالك يوم الدين».

أحمدك اللهم حمد العافين، ومنك أستمد العون نحو السالكين. والصلاة والسلام على صاحب الكوثر، من جعلته قدوة الأصفياء، وخير الأتقياء، اللهم صل عليه صلاة العارفين بك، الشاكرين لنعمتك، المتفانين في حبك، من ختمت عليهم بالطاعة، ومنحتهم الرضا والرضوان. أما بعد.

فإن هذا الكتاب الذي أسميته «التصوف مشكاة الحيران» لم يأت وليد الصدفة، وإنما جاء عن قه. ر بعد تأمل فيما يعيشه عصري الذي تخاذل تحت وطأة المادة والآلة، حيث يلهث كالذي يتخبطه الشيطان من المس، فلا هو بالمطمئن المرتاح، ولا هو بالمستقر على حال، يعيش مبعثر الرأي، تحيط به الوسوس من كل جانب. ليس له قرار ولا سلطة الاختيار، شارد حائر، ولهان تتقاذفه الأهواء من كل جانب، أخذت منه نحل الإيديولوجيا ما جعلته يغير الرأي بين مشاربها، وينسى الحقيقة التي تتجلى في الدين الإسلامي.

والحقيقة أن عصري هذا، عصر السرعة والآلة والأقمار والإعلاميات، تقارب فيه كل شيء وتزاحم، وأصبحت معاني التعايش تختلف عن التطبيق، فما أرادته هذا خالفه ذلك، والإيديولوجيات تعلن حربها على الأدمغة، ككرة قدم تتلقفها أرجل العمالقة بين الشباكين. والأقزام على حلبة الصراع. في خضم هذه الأحداث، وما واكبها من زوابع يومية يعانيتها جيل الظمأ، خطرت ببالي فكرة وضع هذا الكتاب، عساه يكون شفاء القلب وطمأنينة النفس، وأن يجد فيه الظمآن بغيته، ويكون سبب هدايته نحو طريق الله، التي ما سلكها سالك إلا ووجد فيها الحقيقة والسعادة والطمأنينة، وأدرك من خلالها مفهوم الوجود.

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أجعل مشكاة التصوف هي الطريق إليه سبحانه، وذلك في أسلوب سهل مبسط بعيد عن الملل والإطناب، اختصرت فيه مواضيع هي بمثابة عظة للعقول الحائرة، والنفوس التي لازالت كدرة، عساه أن تجد الشفاء، فتأخذ الخط نحو المستقر، وتتشرب بالمعرفة نحو باريها، بعد ذلك تأخذ خط العارفين، حينذاك تعرف معنى الحقيقة والسعادة والطمأنينة.

أسأل الله العليّ القدير أن يوفّقني للصواب . ويلهمني من فيضه ، ويقلّني عثرة الفكر وزلة القلم . ويرحم والدي ومشايخي وكافة خلقه ، ويثبيني على نيتي وقصدي ، إنه هو التواب الرحيم . وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وقطب العارفين ، وشيخ الواصلين ، وعلى آل بيته الطاهرين ، وصحابته التابعين ، ومن تبعهم بالإحسان إلى يوم الدين .

### المؤلف

عبد الحميد الجوهري  
أسفي - المغرب الأقصى  
حرر في 1987/12/12



## كلمة تصوف

نسب بعض المؤرخين هذه الكلمة إلى «صوفة» اسم رجل عابد في الجاهلية، واسمه بالضبط «الغوث بن عامر» فانتسب الصوفية إليه للتشابه.

أما المستشرق «مركس» فيقول أن صوفة اسم قبيلة عربية عرفت بالاستغراق في حب الله، وليست اسم شخص.

ويقول الجوزي في روايته «إنهم قوم في الجاهلية يقال لهم «صوفة» انقطعوا إلى الله وقطنوا مكة، فمن تشبه بهم فهم الصوفة»

وقد أشار لهذا القول الزمخشري والفيروزابادي وفريق من المستشرقين.

والرواية الأولى لرأي «الصوفة» هو محمد بن ناصر، وهو أحد الرواة الولوعين بالإبتكار والخلق ونسج الأقايص، فاعتمده الجوزي والزمخشري والفيروزابادي، وبالطبع هؤلاء ليسوا بالمتصوفة، أما المستشرقون الذين واكبوا هذا الرأي لا يزيد في قوة الاعتقاد، ولو صحَّ هذا جدلاً في العصر الجاهلي فإن رجال التعبد الإسلامي انتقدوا كل ما هو جاهلي.

وقد نسبها فريق من المؤرخين إلى لبس الصوف، وهو الذي كان شعار المتصوفة، غير أن بعض الصوفية عابوا أن يكون الصوف مظهراً تتقنع به القلوب، ومن هنا يقول «الشبلي» «كان الزهد في بواطن القلوب فصار في ظواهر الثياب»، يقول «الجنيد»، إذا رأيت الصوفي يُعنى بظاهره فاعلم أن باطنه خراب» - والظاهر خشونة الثوب - وقيل لأبي الحسن «أيها الشيخ، أنت تدعو الناس إلى الله والإعراض عن الدنيا. وتلبس أحسن الثياب وتأكل أطيب الطعام فكيف هذا؟ قال: «كل ما يصلحك لله فافعله. إذا صلح حالك مع الله بلبس لين الثياب وأكل أطيب الطعام فلا يضرك» وقال آخرون في كلمة تصوف، إنها اشتقت من الصفاء، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى. ففي محاضرة الأوائل يقول، أن أول من تكلم ببغداد في مذهب الصوفية من صفاء الفكر والشوق والقرب والمحبة والمعرفة «أبو حمزة الصوفي». وعند السيوطي أن أول من سمي بالصوفي وتكلم في علم القلوب «أبو الهاشم الصوفي». ونسب بعض المؤرخين ذلك إلى أهل الصفة، وقالوا بأن التصوف اشتق من تلك الكنية. أما الثقة من المؤرخين الصوفيين، فلم يعللوا تلك التسمية ولم يتكلفوا لها بقدر ما تكلف غيرهم، بل ردها إلى الحقيقة الواضحة في بساطة. فالقشيري مؤرخ الصوفية الكبير، قال في رسالته «إن المسلمين

في حياة الرسول وبعده كانوا يتشرفون باسم صحابي، ثم سمي من بعدهم بالتابعين، ثم قيل أتباع التابعين، ثم ظهرت البدع وتعددت النحل، فانفرد خواص أهل السنة والمراعون أنفاسهم مع الله، الحافظون قلوبهم باسم المتصوف في عصر الإمام أحمد بن حنبل قبل المائتين من الهجرة... ثم أن الطوسي يشير في كتاب اللمع قائلًا: . فإن سألتني سائل. قد نسبت أصحاب الحديث إلى الحديث ونسبت الفقهاء إلى الفقه، وهكذا فلم قلت الصوفية ولم تنسبهم إلى حال ولا علم؟ قلت لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلوم دون نوع، ولأنهم معدن جميع العلوم ومحل جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الشريفة.

أما ابن خلدون فيقول في مقدمته «هذا العلم من العلوم الشرعية، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الحياة وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عامًا في الصحابة والسلف، ولما نشأ الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على الله باسم «الصوفية».

إن التصوف كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم صفة غالبية لا ينظر إليها نظرة الدهشة إلا في العصر المتأخر التي بدأت تعطيه فلسفة ومذاهب روحية.

وأول من فلسف ذلك وجعله طريقة خاصة هو «حذيفة بن اليمان» الصحابي الجليل، وقيل عنه: «تراك تتكلم كلاما لم نسمعه من أحد من أصحاب رسول الله من أين أخذته؟ قال: «خصني به رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأل عن الشر مخافة أن أقع فيه، وعلمت أن الخير لا يسبقني». وفي قول آخر «علمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير» وقال في حديث آخر «كان الناس يقولون يارسول الله، ما لمن عمل كذا وكذا. يسألونه عن فضائل الأعمال، وكنت أقول، يارسول الله ما يفسد كذا وكذا... فلما رأيت أسأل عن آفات الأعمال خصني بهذا العلم».

وفي حديث أبي طالب المكي: «كان حذيفة قد خص بعلم المنافقين وأفراد بعلم النفاق وبسائر العلم ودقائق الفهم، وخفايا اليقين بين الصحابة، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يصلي على أحد مات إلا إذا رأى حذيفة يصلي عليه، لأنه اختص بهذا العلم الباطني»، فحذيفة كان النواة الأولى على الأرجح للصوفية العلمية، وعنه تخرج إمامها الأول «الحسن البصري» وعن الحسن البصري تخرج أئمة التصوف أمثال مالك بن دينار، وثابت البناني، وأيوب السخيتاني، ومحمد بن واسع، وهم أعلام القرن الأول وبداية القرن الثاني.

وقد أسس الحسن البصري مدرسته الكبرى بالبصرة لنشر هذا النور ومحاربة أصحاب الألسن المندسين بين صفوف المسلمين. وبفضله استقرت زعامة التصوف بالبصرة إلى أن قامت مدرسة ثانية بالعراق بزعامة الصوفي العابد سعيد بن المسيب، وثالثة بخراسان بزعامة الصوفي العابد إبراهيم بن

أدهم ، وهكذا أصبحت فكرة التصوف واضحة ، فتصدت إليه خصومات عنيفة من رجال الفقه وعلماء الكلام ورجال العلم والمذاهب والملل والنحل .

نعود إلى كلمة تصوف حيث نستمع إلى أنس بن مالك وهو يقول : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب دعوة العبد ويركب الحمار ويلبس الصوف ، فمن هذا الوجه ذهب قوم إلى أنهم سموا صوفية نسبة إلى ظاهر اللبسة ، لأنهم اختاروا لبس الصوف لكونه كان لباسا الأنبياء عليهم السلام» .

وقال الحسن البصري «لقد أدركت سبعين بدريا لباسهم الصوف» ، وصفهم أبو هريرة قائلا : كانوا يجرون من الجوع حتى تحسبهم الأعراب مجانين» فكان اختيارهم لبس الصوف وقناعهم بسد الجوعة وستر العورة واستغراقهم في أمر الآخرة ، وهذا الاختيار يناسب من حيث الاشتقاق كلمة تصوف ، لأن لبس الصوف كان الغالب على المتقدمين من سلفهم ، وهي عنوان زهدهم فيما تدعو إليه النفس من الهوى والملبوس الناعم ، وما لبس الصوف الاحكم ظاهر من أمرهم ، أما نسبتهم إلى أمر آخر من حال أو مقام فأمر باطن ، والحكم بالظاهر أولى .

وقيل سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله ، لإقبالهم وارتفاع همهم وتعلق قلوبهم بحب الله . وقيل كان هذا الاسم «صفوي» فاستثقل وجعل «صوفيا» وقيل سموا صوفية نسبة إلى «الصفة» ، ولو أن هذا الاسم لا يقبل الاشتقاق اللغوي فهو صحيح من حيث المعنى ، والصفة كانوا نحو أربعائة عابد لم تكن لهم مساكن ولا زرع ولا ضرع ، هم عشائر جمعوا أنفسهم في المسجد ، يحتطبون ويرضخون النوى بالنهار ، ويشغلون ليلا بعبادة الله وتلاوة القرآن ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يواسيهم ويوصي بمواساتهم ويجلس إليهم ويأكل معهم ، وفيهم نزل قوله عز وجل «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه» .

## التصوف

من الناس من يغلو في حق التصوف، فمنهم من يغلو في رفعه، ومنهم من يخرج عنه حد المعقول، ومنهم من يراه ضرباً من يسرف في طعن أهله لدرجة الزندقة.

وقد ذكر الله أفضل المؤمنين عنده وأعلامهم في الدين رتبة ودرجة، في قوله تعالى «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط»، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول «العلماء ورثة الأنبياء» وليس ببعيد أن أولي العلم القائمين بالقسط، والذين هم ورثة الأنبياء، تلك الزمرة المعتصمة بكتاب الله، والتمسكة لسنة رسوله. والمقتدية بالصحابة والتابعين من عباده الصالحين، وهم ثلاث أصناف. علماء الحديث والفقهاء والصوفية، وفي هذا المعنى يقول الطوسي في كتاب اللمع «وأصل ذلك حديث الإيمان، حيث سأل جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم عن أصول ثلاث، عن الإسلام والإيمان والإحسان الظاهر والباطن. والحقيقة فالإسلام ظاهر، والإيمان ظاهر وباطن، والإحسان حقيقة الظاهر والباطن، وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم، الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وصدّقه على ذلك جبريل، والعلم مقرون بالعمل، والعمل مقرون بالإخلاص، والإخلاص أن يريد العبد بعلمه وعمله وجه الله تعالى، وهؤلاء الثلاثة الأصناف في العلم متفاوتون، وفي مقاصدهم ودرجاتهم متفاوتون. وقد ذكر الله تعالى تفاضلهم ودرجاتهم فقال عز وجل «والذين أوتوا العلم درجات» وقال «ولكل درجات مما عملوا» وقال «انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض» وقال النبي صلى الله عليه وسلم «الناس أكفاء متساوون كأسنان المشط، لا فضل لأحد على أحد إلا بالعلم والتقوى» فكل من أشكل عليه أصل من أصول الدين وفروعه وحقائقه وحدوده وأحكامه ظاهراً وباطناً فلا بد له من الرجوع إلى هؤلاء الأصناف الثلاثة، أصحاب الحديث والفقهاء والصوفية، وكما صنف من هؤلاء مترسم بنوع من العلم والعمل والحقيقة والحال. ولكل صنف منهم في معناه علم وعمل ومقام ومقال وفهم ومكان وفقه وبيان».

وقد اتفق الصوفية مع الفقهاء وأهل الحديث، وشاركوهم في كل علومهم ولم يخالوا نهجهم، وإن اختلف أي طرف من الفقهاء وأصحاب الحديث فإن المتصوفة يأخذون بالأحسن والأولى، وابتعدون عن الرخص والنزول والتأويلات وركوب الشبهات، ثم أنهم ارتقوا إلى درجات عالية وتعالقوا بالمنازل الرفيعة والأحوال الشريفة، وحقائق الطاعة والأخلاق والاستقامة. ولهم في هذه الأحوال والمنازل خصائص ليس لغيرهم من العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث.

وحياة التصوف يتأملها المتأمل ، ويتذوقها المحب وينعم بها العابد ويعجز عن وصفها قلم كاتب ، إنها وثبة ونشوة ، ومناجاة وخلوة ، وإلهامات فوق ما يتصور الخيال . ولقد هتف أحد رجالها يوما «إن قلبي ليسكن اليوم عالما لا يعرف غيري عنه شيئا ، ولو سئلت ما بي لأعجزني أن أجيب» .

وكلمات المتصوف ألحان من قلبه ، وهتاف أنغام من فيضه ، ورسالة نابعة من روحه .

فالتصوف الإسلامي تصوير ملون ، وأداب إسلامية ، وخلاصة فضائل أحمدية ، وزكاة علوم ومعارف إنسانية .

والتصوف هوجم هجووما عنيفا من طرف رجال الفكر والعلم على كل الواجهات من طرف واحد ، ومع ذلك بقي سائرا في هدوء من غير مبالاة .

قال فيه الماديون ، إنها هي حياتنا الدنيا نموت ولا نحيا ولا يهلكنا إلا الدهر ، وكذبوا بكل الرسل والروحانيات ، فصدقت عليهم الآية «إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل» . وقال الفلاسفة ما قالوا من نكران ، وعابوا عليهم التفرغ والزهد والانقطاع إلى الله . غير أن الصوفية رفضوا النقاش معهم بحكم أنهم لم يتفقوا بأرائهم في الإلهيات وغيرها ، فأى عقلية يتبعونها ؟ وأي عقل معصوم ؟ وأي عقل يمكن الاعتراف به أنه وصل الكمال حتى يأخذوا منه الرأي والاطمئنان .

وعلماء الاجتماع هم أيضا تهكموا على الصوفية وأسرفوا ، وقالوا بأنها غيرصالحة للحياة اليومية ولا يقوم عليها نظام .

فكانت هذه الشهادة للصوفية لا عليهم ، فهم يقولون أن طريقتهم ليست للناس جميعا ، لأن المثالية ليست للناس جميعا ، فلا يعقل أن يكون الناس كلهم ملوكا أو فلاسفة أو علماء ، بل التصوف مثل عليا من قبل الفضيلة والتقرب إلى الله لا يقوم بها إلا صفة مختارة من أولي العزم .

وقال بعض الفقهاء ما حلالهم من معارضة ، والصوفي يقول بأن الفقيه هو العابد أولا ، ثم العالم بحدود الله وشريعته ، وكثير من الفقهاء لم يستوفوا الشرط فنبذوهم . ومع هذا فالمتصوفة انتزعوا الجماهير إعجابا .

والصوفية دستورها واضح في قول سهل التستري «أصول طريقتنا سبعة : «التمسك بالكتاب ، والاعتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصي ، ولزوم التوبة ، وأداء الحقوق»

ويقول الإمام الغزالي في رجال التصوف : «إعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل ، والمدعي فيه كثير ، ونحن نعرفك علامتين له : العلامة الأولى أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع ، موقوفة على توفيقاته ، إيرادا وإصدارا وإقداما وإحجاما ، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها ، ولا يصل فيه إلا من واظب على جملة من النوافل ، فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض» . وفي موضوع آخر يقول : «إني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من

سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهريهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به . وماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها وأول شروطها تطهير القلب عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها استغراق القلب بالكلية في ذكر الله وآخرها الفناء بالكلية في كله . وأول هذه الطريقة المكاشفات حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد يضيق عنها نطاق النطق» .

وهذا نموذج من نماذج أهل الصوفية نأخذه كمثال ، وهو «أويس القرني» حين جاء وقت الحج وهرع الناس من كل فج عميق ، ففاضت رحاب مكة بالوافدين وتهايا الكل لعرفات ، وعنت الوجوه للحج القويم . أما أمير المؤمنين عمر وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فقد كانا يطوفان بوفود العرب تلهفا وتطلعا خاصة وفد اليمن ، وعجب الناس لعمر وهو يقتحم وفود اليمن ويتطلع إلى وجوههم يسأل عن أسمائهم ، كما عجبوا من علي وهو يتفحص ملامح اليمنيين ويمازح أبناءهم . وكم كانت تلقي نظرة علي بعمر فيبتسم ، كان هذا حالهما مدة عشر سنوات وما بلغا هدفهما . لماذا هذا كله ؟ لقد أخبرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بقوله «يا عمر ويا علي ، إذا لقيتما أويسا القرني فاطلبا إليه أن يستغفر لكما ، فإنه مجاب الدعاء «فبقي ذلك مرتسا في قلبيهما ، وبقيت صورته واضحة في أعينهما حينما وصفه لهم صلى الله عليه وسلم قائلا : «إنه أشهل بعيدا ما بين المنكبين ، معتدل القامة ، آدم يضرب بذقنه إلى صدره ، واضع يمينه في شماله ، يتلو القرآن ، ذو طمرين من صوف . مجهول في الأرض ، معروف في السماء ، وتحت منكبه الأسير لمعة بيضاء ، يقال للعباد يوم القيامة ، ادخلوا الجنة ، ويقال له : قف ، فيشفع في عدد ربيعة ومضر» ، وأنبأهما الرسول صلى الله عليه وسلم بأنها سيشاهدانه في موسم الحج ، فكانت لهفة القلب على هذا الصوفي وصلت ذروتها عند عمر وعلي ، خاصة وأن الصحابة لم يشاهدوا أويسا ، وأن الرسول عليه السلام فاخر به دون أن يراه .

وحل الوقت الموعود حينما جاء رجل إلى عمر يخبره بأن قافلة أخرى صغيرة جاءت من اليمن ، فوثب عمر راكضا وهو يشاهد عليا يستفسر آخر ساداتهم الذي يرد قائلا : إن في رحالنا فتى ممزق الثياب شارد العقل حامل الذكر يرعى بهيمتنا مقابل دراهم معدودة ! فصرخ عمر : إنه أشهل ذو صهوبة ، بعيد ما بين المنكبين ، معتدل القامة ، يضرب بذقنه إلى صدره ؟ فيجيب الأعرابي من غير أن يعرف عمر : لقد وصفته وصفا دقيقا ؟ فينطلقان بسرعة نحو أويس ، فلما وصلا نحوه قالا : من الرجل ؟ قال : راعي إبل وأجير قوم . قالا : ما اسمك ؟ قال : ماذا تريدان مني ؟ قالا : وصف لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أويسا القرني ، وقد عرفنا الآن فيك الشهولة والصهوبة واللمعة . فأحسنا السلام وطلبا منه الدعاء . . . !

ثم قال له عمر عظمي . فقال له : ابتغ رحمة الله عند الطاعة . واحذر نعمته عدد المعصية ، ولا تقطع رجاءك منه .

وقال علي ، لقد حدثنا عنك رسول الله وهو لم يرك ، ومع ذلك يحبك فيصنك ويقول أنك أفضل التابعين ، فكيف تتصوره صلى الله عليه وسلم يا أويس ؟ فقال : يا علي ، لكم فضل الشرف برؤيته ، أما أنا فأتصوره في بصيرتي على غير ما رأيتم . . . أتصوره نورا ساطعا يملأ الفضاء ويسري في الوجود ، أتصوره ورأسه الشريف قاب قوسين أو أدنى من العرش ، وقدمه في مستقر الأرض السابعة . بكى عمر وعلي شوقا لرسول الله عليه السلام ، ثم قال عمر : كيف حالك يا أويس ؟ قال : حال رجل إن أصبح ظن أنه لا يمسي ، وإن أمسى ظن أنه لا يصبح . قال كيف وصلت إلى مكانتك العليا ؟ قال : إني في مقام الخوف ، لا يصله الإنسان حتى يصبح من خوف ربه وكأنه قتل الناس جميعا . وبعد مناجاة طويلة عرض عمر كسوة ونفقة عليه . فأجابه على الفور بالرفض قائلا : هذا إزاري وردائي من صوف ؟ متى أفنيهما ؟ وأجري أربعة دراهم ، متى تراني آكلهما ؟ إن العقبة لا يجوزها إلا كل ضامر ، فأعرض عن الدنيا يا عمر ، واخش يوما لا ينفع فيه مال ولا بنون . فضرب عمر بدرته على الأرض ونادى بأعلى صوته . . . ألا ليت عمر لم تلده أمه .

وهم أويس بالانصراف ، فبادره علي قائلا : إنا جئنا لنأنس بك . فقال عجبا ! ما أحسب أحدا يعرف ربه فيأنس بغيره ! ؟ ثم أدبر .

## المتصوف

إن المتصوف متطلع إلى حال الصوفي، والصوفية أولها إيمان ثم علم ثم ذوق، يقول الجنيد «الإيمان بطريقنا هذا ولاية».

والمتصوف تميز بأحوال عزيزة، وأشياء تستغربها الخلائق، لأنهم مكاشفون، ولهم علم من هذا القبيل، لا يؤمن بطريقهم إلا من أخذ الله بيده وخصه بمزيد عنايته، فالمتشبه بهم صاحب إيمان. والمتصوف صاحب علم، لأنه بعد الإيمان اكتسب مزيدا من العلم، وصارت له حصيلة يستدل بها على سائرهما، وهو صاحب ذوق، يسير من حال إلى حال أعلى مما هو فيه، أو بعبارة أخرى، من ذوق إلى صاحب قدم، وفي حال العلم صاحب نظر، وفوق ذلك صاحب إيمان، قال تعالى «إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون» وصف سبحانه وتعالى الأبرار ووصف شرابهم بقوله «ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون . . .» فكان شراب الأبرار مزج من شراب المقربين . وللمتشبه مزج من شراب المتصوف . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «سيروا . . . سبق المفردون، قيل من المفردون يارسول الله؟ قال : المستترون بذكر الله، وضع الذكر عنهم أوزارهم فوروا القيامة خفافا، فالصوفي في مقام المفردين، والمتصوف في مقام السائرين . قال تعالى «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات» قيل إن الظالم الزاهد، والمقتصد العارف، والسابق المحب . وقيل أن الظالم الذي يجزع من البلاء، والمقتصد ذلك الذي يصبر عند البلاء، والسابق ذلك الذي يبعد على الهبة والمنة . وقيل إن الظالم يعبد الله على غفلة، والمقتصد يعبد الله على الرغبة والرغبة، والسابق ذلك الذي يتلذذ بالبلاء . وقيل إن الظالم يذكر الله بلسانه، والمقتصد يذكر الله بقلبه، والسابق لا ينسى ربه . وقيل إن الظالم صاحب أقوال : والمقتصد صاحب أفعال، والسابق صاحب أحوال . وكل هذه المعاني قريبة للصوفي المتصوف . وقال صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات » « كلهم في الجنة » قال ابن عطاء : الظالم، الذي يجب الله من أجل الدنيا، والمقتصد، الذي يجب الله من أجل العقبي . والسابق هو الذي أسقط مراده بمراد الله فيه وهذا حال الصوفي . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لله ملائكة فضلا عن كتاب الناس، يطوفون في الطرق ويتبعون مجالس الذكر، فإذا رأوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلم إلى حاجاتكم، فيحفونهم



بأجنحتهم إلى عنان السماء، فيقول الله وهو أعلم، ما يقول عبادي؟ قالوا يمدونك ويسبحونك ويمدحونك. فيقول: وهل رأوني؟ فيقولون: لا، فيقول: كيف لو رأوني؟ قالوا: لو رأوك كانوا أشد تسبيحا وتحميدا وتمجيذا، فيقول: ما يسألونني؟ قالوا يسألونك الجنة. فيقول: وهل رأوها؟ قالوا: لا، فيقول: كيف لو رأوها؟ قالوا: لو رأوها كانوا أشد لها طلبا وعليها أكثر حرصا. قالوا: ويتعوذون من النار. فيقول: وهل رأوها؟ قالوا: لا، فيقول: كيف لو رأوها؟ قالوا: كانوا أشد منها تعوذا وأشد فرارا. فيقول: أشهدكم أني قد غفرت لهم. فيقول الملك: فمنهم فلان ليس منهم وإنما جاء لحاجة. فيقول تبارك وتعالى: هم الجلساء، لا يشقى جليسهم».

ومن المتصوفة ما يدعى «بالملاّمي» وهو الذي لا يظهر خيرا ولا يظهر شرا، حيث تشربت عروقه طعم الإخلاص، فلا يجب أحدا أن يطلع عليه. قال صلى الله عليه وسلم: «سألت جبريل عن الإخلاص ما هو؟ قال: سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو؟ قال: هو سري، استودعته قلب من أحببت من عبادي». فالملاّميّة لهم اختصاص في التمسك بالإخلاص، يتلذذون بكتمان الأحوال، ويستوحشون ظهور أعمالهم كما يستوحش العصي ظهور معصيته، قال فيهم أبو يعقوب السوسي: «متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص احتاج إخلاصهم إلى إخلاص».

## منشأ العلم الصوفي

من القلوب ما هي بمثابة الأرض الطيبة التي أنبتت الكلاً والعشب الكثير، وهذا المثل للعالم الذي انتفع بعلمه واهتدى نحو الطريق السوي إسوة بيد المرسلين، ومن القلوب ما هي بمثابة الغدران الصافية، وهي قلوب العلماء الزهاد من الصوفية التي صفت قلوبهم وتزكت، واختصت بالمزيد، فصارت أوعية للعلوم بما من الله عليها من صفاء الفهم. قال صلى الله عليه وسلم لعلي لما نزلت الآية «وتعيبها أذن واعية» «سألت الله سبحانه وتعالى أن يجعلها أذنك يا علي» فقال علي: «فما نسيت شيئاً بعد، وما كان لي أن أنسى» ويشرح أبو بكر الواسطي هذه الآية بقوله: آذان وعت عن الله تعالى أسرارهم. فقلوب الصوفية واعية، وبالتقوى طهرت نفوسهم، وبالزهد صفت قلوبهم، ولما أعدموا شواغل الدنيا تفتحت بواطنهم. إن علماء التفسير وأصحاب الحديث والفقهاء أحاطوا علماً بالكتاب والسنة واستنبطوا الأحكام وردوا كل شيء إلى أصله من النصوص، فحمى الله بهم الدين، كما عرف علماء التفسير وجهه وتأويله بحكم معرفتهم للغة وغرائبها من نحو وصرف وأصول واختلاف في وجوه القراءة، فصنفوا الكتب واتسعت علوم القرآن على أمة الإسلام. أما أصحاب الحديث فميزوا الصحيح والحسن وانفردوا لمعرفة الرواة والسند حفظاً للسنة. أما الفقهاء فقد انتدبوا استنباط الأحكام والتفريغ ومعرفة التعليل ورد الفرع للأصل، وتفرغ عن الأخلاق علم الجدل. وعلم الفرائض ما لزم علم الحساب والجبر إلى غير ذلك.

وبهذا تمهدت الشريعة واستقام الدين وتفرغ، وبهذا أنبت قلوب العلماء الكلاً والعشب بما آتاها الله من مياه الهدى والعلم. قال ابن عطاء شارحاً قول الله تعالى «أنزل من السماء ماء» هذا مثل ضربه الله للعبد، وذلك إذا سال السيل في الأودية لا تبقى فيها نجاسة، كذلك إذا سال النور الذي قسمه الله للعبد في نفسه لا تبقى فيه غفلة ولا ظلمة. وقال بعضهم «أنزل من السماء ما» أي أنواع الكرامات، فيأخذ كل حظه، فقلوب علماء التفسير والحديث والفقهاء سألت أودية قلوبها بقدرها، وسألت أودية قلوب الصوفية الزهاد والمتمسكين بحقائق التقوى بقدرها، ومن كان قلبه لازال يحمل حب الدنيا ورفعتهها سألت أودية قلبه بقدرها، وأخذ من العلم طرفاً ولم يحظ بحقائق العلوم، أما الزاهد فيها فإن أودية قلبه تتسع وتسيل فيها مياه العلوم وتجتمع وتصير كالغدران.

يقول الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين الجزء الخامس صفحة 47 قائلاً : «وقيل : لما بعث الله جبريل وميكائيل ليقبض قبضة من الأرض فأبت ، حتى بعث الله عزرائيل فقبض قبضة من الأرض ، وكان إبليس قد وطىء الأرض بقدميه ، فصار بعض الأرض بين قدميه وبعض الأرض بين موضع أقدامه ، فخلفت النفس مما مس قدم إبليس فصارت مأوى الشر ، وبعضها لم يصل إليه قدم إبليس ، فمن تلك التربة أصل الأنبياء والأولياء ، وكانت ذرة رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع نظر الله تعالى من قبضة عزرائيل لم يمسه قدم إبليس ، فلم يصبه حظ الجهل ، بل صار منزوع الجهل موفورا حظه من العلم ، فبعثه الله تعالى بالهدى والعلم ، وانتقل من قلبه إلى القلوب ، ومن نفسه إلى النفوس ، ف وقعت المناسبة في أصل طهارة الطينة ، ورفع التأليف بالتعارف الأول ؟ فكل من كان أقرب مناسبة بنسبة طهارة الـينة ، كان أوفر حظا من قبول ما جاء به ، فكانت قلوب الصوفية أقرب مناسبة ، فأخذت من العلم حظا وافرا وصارت بواطنهم أخاذات – أي غدران – فعلموا وعملوا كالأخاذا الذي يسقى منه ويزرع منه ، وجمعوا بين فائدة علم الدراسة و علم الوراثة بإحكام وأساس التقوى ، ولما تركت النفوس انجلت مرايا قلوبهم بما صقلها من التقوى . فانجلى فيها صور الأشياء على هيئتها ، فبانَت الدنيا بقبحها فرفضوها ، وظهرت الآخرة بحسنها فطلبوها ، فلما زهدوا في الدنيا انصبت إلى بواطنهم أقسام العلوم انصبابا ، وانضاف إلى علم الوراثة» .

قال تعالى «فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب» شرح بعضهم : اللب والعقل مائة جزء ، تسعة وتسعون في الرسول ، وواحد لكل المؤمنين ، وهو مقسم إلى إحدى وعشرين سهما . واحد تساوى فيه كل المؤمنين وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وعشرون سهما يتفاضلون فيها على مقادير إيمانهم .

## طبقات الصوفية

الصوفية تفرد والخملة خصال بعد أداء الفرائض واجتناب المحرمات ، من ذلك تركهم مالا يعينهم وقطع العلاقة مع مطلوبهم ومقصودهم ، واتصفوا بالقناعة والاكتفاء بالقوت الذي لا بد منه ، والاختصار على الملبوس البسيط ، واختيار الفقر على الغناء ، والقلة على الكثرة ، والجوع على السبع ، واجتناب العلو والجاه ، والشفقة والتواضع للصغير والكبير والوفاء والإخلاص في السباق نحو الطاعات وفعل الخيرات ، والانقطاع إلى الله عز وجل ، والصبر على المجاهدة .

ومن سمائلهم مراعاة الأسرار والمحافظة على طهارة القلوب بالخواطر النقية ومساكنة الأفكار التي لا يعلمها إلا الله حتى يعبدوا الله بقلب حاضر ونية صادقة وقصد خالص ، فيجري عليهم قوله عز وجل «ألا لله الدين الخالص» فينزلون في منازل أصفیائه . سأل الرسول صلى الله عليه وسلم حارثة فقال «لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانكم ؟» فأجابه قائلاً : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهت ليلى وأظمأت لهناري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون وإلى أهل النار في النار كيف يتعاوون . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم «عرفت فالزم»

والصوفية لهم تخصيص من طبقات أهل العلم عن مقامات عالية في الدين ، ومنازل رفيعة خصت بها طائفة من المؤمنين وتعلقت بها جماعة الصحابة والتابعين إسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال صلى الله عليه وسلم «إن الله أدبني فأحسن أدبي» ، وفيه يقول عز وجل «وإنك لعلى خلق عظيم» .

وطبقات الصوفية يتميزون عن العلماء بالدقة والتفقه ، فهم حينما يذكرون التوبة يذكرون صفاتها ودرجات التائبين وحقائقهم ، ودقائق الورع وأحوال الورعين وطبقات المتوكلين ومقامات الراضين ودرجات الصابرين . . . إلى غير ذلك ، فهم يذكرون كل حال مثلا من باب الخشية والخشوع والمحبة والخوف والرجاء والشوق والمشاهدة والإنابة والطمأنينة واليقين والقناعة ، وهم في ذلك أسرار ومشاهدات واجتهادات وإرادات . وهم أيضا معرفة بالنفس وأماراتها وخواطرها ، والشهوة الخفية والإخلاص من ذلك وصدق الالتجاء ، كما لهم استنباطات في علوم تشكلت عن فهم الفقهاء والعلماء ، يشيرون لها بإشارات تكاد تختفي في عباداتها من لطافتها ، كما يتميزون بخبايا السر ومقامات الإخلاص وحقائق الأذكار ودرجات القرب والتوحيد وحقائق العبودية وعبور الأحوال والمقامات .

فهم مخصوصون من أولي العلم القائمين بالقسط من حل هذه العقد والوقوف على المشكل بحكم المنازلة والمباشرة ببذل المهج ، هذا أكثر من أن يتهيأ لأحد ، وجميع ذلك موجود في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولا ينكره العلماء إلا أصحاب العلم الظاهر الذين لم يعرفوا من كتاب الله ورسوله إلا ما كان في الأحكام الظاهرة .

لقد صدق فيهم صلى الله عليه وسلم حينما قال : «رب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله لأبره» وقال : «يدخل بشفاعة رجل من أمتي الجنة مثل ربيعة ومضر يقال له أويس القرني» وقال : «إن في أمتي من إذا قرأ أريت أنه يخشى الله تعالى : وإن طلق بن الحبيب منهم» وقال : «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بلا حساب ، قيل من هم يا رسول الله ، قال هم الذين لا يكتون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون» .

يقول الطوسي في كتاب اللمع باب التصوف ما هو ونعته وما هيته «فأما التصوف ونعته وماهيته ، فقد سئل محمد بن علي القصاب - وهو أستاذ الجنيد رحمه الله - عن التصوف ما هو قال : أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام ، وسئل الجنيد رحمه الله عن التصوف فقال : أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة . وسئل رويم بن أحمد رحمه الله عن التصوف فقال : استرسال النفس مع الله تعالى على ما يريد . وسئل سمنون رحمه الله عن التصوف فقال : أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء . وسئل أبو محمد الجريري رحمه الله عن التصوف فقال : الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني . وسئل عمرو بن عثمان المكي رحمه الله عن التصوف فقال : أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى في الوقت . وسئل علي بن عبدالرحيم القناد رحمه الله عن التصوف فقال : نشر مقام واتصال بدوام»

ومن طبقات الصوفية نورد مجموعة من الأسماء نقلا عن كتاب طبقات الصوفية لأبي عبدالرحمن السلمي ، الذي أعطى نبذا عن حياتهم وحكما من أقوالهم وقد قسمهم إلى خمس طبقات كما يلي .

الطبقة الأولى : الفضيل بن عباس - ذو النون المصري - إبراهيم بن أدهم - بشر الحافي - سري السقطي - الحارث المحاسبي - شقيق البلخي - أبو يزيد البسطامي - أبو سليمان الداراني - معروف الكرخي - حاتم الأصم - أحمد بن أبي الحواري - أحمد بن خضرويه - يحيى بن معاذ الرازي - أبو حفص النيسابوري - حمدون القصار - منصور بن عمار - أحمد بن عاصم الأنطاكي - أبو تراب النخشي .

والطبقة الثانية : أبو القاسم الجنيد - أبو الحسين النوري - أبو عثمان الحيري النيسابوري - أبو عبدالله بن الجلاء - رويم بن أحمد البغدادي - يوسف بن الحسين الرازي - شاه الكرمانى - سمنون بن حمزة المحب - عمرو بن عثمان المكي - سهل بن عبد الله التستري - محمد بن الفضل البلخي - محمد بن علي الترمذي - أبو بكر الوراق - أبو سعيد الخزاز - علي بن سهل الأصبهاني - أبو العباس بن مسروق الطوسي - أبو عبدالله المغربي - أبو علي الجوزجاني - محمد أحمد بن أبي الورد - أبو عبدالله السجزي .

الطبقة الثالثة : أبو محمد الجريري - أبو العباس بن عطاء الأديب - محفوظ بن محمود النيسابوري - طاهر المقدسي - أبو عمرو الدمشقي - أبو بكر بن حامد الترميذي - أبو حمزة البغدادي البزاز -

أبو الحسين الوراق النيسابوري - أبو بكر الواسطي - الحسيني بن منصور الحلاج - أبو الحسين بن الصّائغ الدينوري - ممشاذ الدينوري - إبراهيم القصار - خير النساج - أبو حمزة الخراساني - أبو عبدالله الصبحي - أبو حفص بن سنان .

الطبقة الرابعة : أبو بكر الشبلي - أبو محمد المرتعش - أبو علي الروذباري - أبو علي الثقفي - عبدالله بن محمد منازل - أبو الخير الأقطع التيناتي - أبو بكر الكتاني - أبو يعقوب النهرجوري - أبو الحسن المزين - أبو علي بن الكاتب - أبو الحسن بن بنان - أبو بكر بن طاهر الأبهري - مظفر القرميسيني - أبو الحسين بن هند الفارسي - إبراهيم بن شيبان القرميسي - أبو بكر بن يزيداينار - أبو إسحاق إبراهيم بن المولد - أبو عبدالله بن سالم البصري - محمد بن عليان النسوي - أبو بكر بن أبي سعدان .

الطبقة الخامسة : أبو سعيد بن الأعرابي - أبو عمر الزجاجي - جعفر بن محمد الخلدي - أبو العباس القاسم السيارى - أبو بكر محمد بن داود الدقي - أبو محمد عبدالله بن محمد الشعرائي - أبو عمرو إسماعيل بن نجيد - أبو الحسن علي بن أحمد البوشحني - أبو عبدالله محمد بن خفيف - نبدار بن الحسين الشيرازي - أبو بكر الطمستاني - أبو العباس أحمد بن محمد الدينوري - أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي - أبو قاسم إبراهيم بن محمد النصراباذي - أبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري - أبو عبيد التروغبذي - أبو عبدالله الروذباري - أبو الحسن علي بن نبدار الصيرفي - أبو بكر محمد بن أحمد الشبهي - أبو بكر محمد بن أحمد المقرئ - أبو القاسم جعفري بن المقرئ - أبو محمد عبدالله بن محمد الراسبي - أبو عبدالله محمد بن عبد الخالق الدينوري . وقد نأخذ نصوصا من بعض أقوالهم لنرى مبلغهم من الصوفية .

يقول الفضيل بن عياض : «ثلاث خصال تقسي القلب . كثرة الأكل وكثرة النوم وكثرة الكلام» .  
ويقول : «جعل الشر كله في بيت ، وجعل مفتاحه الرغبة في الدنيا . وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا» .

ويقول ذو النون المصري : «الأنس بالله . من صفاء القلب مع الله ، والتفرد بالله ، الانقطاع من كل شيء سوى الله» . وسأله عن هو الصوفي ، فقال : «من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق ، وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق» . وكتب إبراهيم بن أدهم إلى سفيان الثوري قائلا : «من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل ، ومن أطبق بصره طال أسفه ، ومن أطلق أمله ساء عمله ، ومن أطلق لسانه قتل نفسه» . وخاطب رجلا في الطواف : «اعلم أنك لاتنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقاب :

أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة .

أن تغلق باب العز وتفتح باب الذل .

أن تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد .

أن تغلق باب النوم وتفتح باب السهر.

أن تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر.

أن تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت» .

ويقول أبو يزيد البسطامي حينما سأله عن العارف «ليس هناك أعلى فائدة العارف وجود معروفه» وعن الحسن بن علويه قال : «سمعت أبا يزيد البسطامي يقول : «قعدت ليلة في محرابي، فمددت رجلي، فهتف بي هاتف : من يجالس الملوك ينبغي أن يجالسهم بحسن الأدب» . وقال عن العابد والعارف : «العابد يعبده بالحال، والعارف الواصل يعبده في الحال» .

وعن محمد بن نصر قال، سمعت معروف الكرخي يقول : «ما أكثر الصالحين، وأقل الصادقين في الصالحين» وهذا دعاؤه : «اللهم إن نواصينا بيدك ، لم تملكنا منها شيئاً، فإذا فعلت ذلك بنا فكن أنت ولينا ، واهدنا إلى سواء السبيل» .

## طرق الصوفية

طرق الصوفية تتم بعلم وعمل ، ومن عملهم قطع عقبات النفس ، والترفع عن دنياها الذميمة الخبيثة إلى أن يتوصل إلى صفاء القلب وتحليته بذكر الله ، وقطع علاقته بالدنيا والإنابة إلى دار الخلود . والاقبال إلى الله تعالى ، فتبدأ المشاهدات والمكاشفات للملائكة والرسل مناما ويقظة ، وسماع الأصوات واقتباس الفوائد ، ويترقى الحال من المشاهدة إلى درجات يضيق عنها الوصف . وكمثال عن طرق بداية أهل التصوف حين يعتقدون العزم نورد مثالا من شخصية الإمام الغزالي رحمه الله ، وهو القائل في كتابه «المنقذ من الضلال» «ثم أي لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقهم إنما تتم بعلم وعمل ، وكان حاصل علمهم عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتحليته بذكر الله ، وكان العلم أيسر علي من العمل ، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه ، وكتب الحارث المحاسبي ، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك ممن كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طرقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم ، بل بالذوق والحال وتبدل الصفات ، وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابها وشروطها ، وبين أن يكون صحيحا وشبعانا ، وبين أن يعرف حد السكر وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكرانا لا يعرف حد السكر وعمله وهو سكران ، وما معه من علمه شيء ، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه ، وما معه من السكر شيء ، والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة ، فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها ، وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا ، فعلمت يقينا أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم . بل بالذوق والسلوك ، وكان قد حصل معي من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية وإيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر، فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت راسخة في نفسي لا بدليل معين محرر بأسباب وقرائن وتجاريب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها ، وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا



بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإقبال بكنه المهمة على الله ، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق ، ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أهدت بي من الجوانب ولاحظت أعمالي وأحسنها التدريس والتعليم ، فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة ، ثم فكرت في نيتي في التدريس ، فإذا هي غير خاصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصييت ، فتيقنت أني على شفا جرف هار ، وأنني قد أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال ، فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوما ، وأحل العزم يوما ، وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل عليها جنود الهوى حملة فتفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام ، ومنادي الإيمان ينادي الرحيل الرحيل . فلم يبق من العمر إلا قليل وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخيل ، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟ فمنذ ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار ، ثم يعود الشيطان ويقول ، هذه حال عارضة ، إياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال ، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص والأمن المسلم الصافي عن منازعة الخصوم . ربما التفت إليه نفسك ولا يتيسر لك المعاودة ، فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريبا من ستة أشهر ، أولها رجب سنة ١٣٠٠ هـ ، وثمانين وأربعمائة ، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ أقفل الله علي لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوما واحدا تطيبيا لقلوب المختلفين إلي ، فكان لا ينطلق لساني بكلمة واحدة ، ولا أستطيعها البتة حتى أورثت هذه العقلية في لساني حزنا في القلب بطلت معه قوة الهضم ، ومراة الطعام والشراب ، فكان لا ينسأغ لي ثريد ولا تنهضم لي لقمة ، وبعدي إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم ، ثم لما أحسست بعجزتي وسقط بالكلية اختياري التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والأولاد والأصحاب ، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أدبر في نفسي سفر الشام حذرا أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي في المقام بالشام ، فتلطف الحيل في الخروج من بغداد على عزم الاعدادها أبدا ، واستهدفت لأئمة أهل العراق كافة ، إذا لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الإعراض عما كنت فيه سببا دينيا ، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين ، وكان ذلك مبلغهم من العلم ، ثم ارتبك الناس في الاستنابات وظن من بعد عن العراق أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاية ، وأما من قرب من الولاية وكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي ، والنكباب علي ، وإعراضهم عنهم وعن الالتفات إلى قولهم ، فيقولون هذا أمر سماوي ، وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة العلم ، ففارقت بغداد وفرقت ما كان معي من المال ، ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال ترخصا بأن مال العراق مرصد

للمصالح ، لكونه وقفا على المسلمين ، فلم أر في العالم مالا يأخذه العالم لعياله أصلح منه ، ثم دخلت الشام وأقمت به قريبا من ستين لا شغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ، اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلت من علم الصوفية ، وكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسي ، ثم رحلت منها إلى بيت المقدس أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها على نفسي ، ثم تحركت في داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله تعالى عليه السلام بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه ، فسرت إلى الحجاز ، ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن ، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه ، فأثرت العزلة به أيضا حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر .

وكانت حوادث الزمان ومهفات العيال وضرورة المعاش تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة ، وكان لا يصفوي الحال إلا في أوقات متفرقة ، ولكنني مع ذلك لا أقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق وأعوذ إليها ، فدمت على ذلك مقدار عشرين سنين وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها ، والقدر الذي أذكره لينتفع به علمت يقينا أن الصوفية هم السابقون لطريق الله تعالى ، خاصة وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ، وبالجملة فإذا يقول القائلون في طريق طهارتها - وهي أول شرطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وآخرها الفناء بالكلية في الله ، وهذا آخرها بالإضافة إلى ما لا يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها ، وهي التحقيق أول الطريقة» انتهى .

والإمام الغزالي رحمه الله يبين الطريق نحو التحقيق في عشر قواعد توظف النائم وتقيم القائم .

أولها النية الصادقة ، ومرادها عزم القلب ، وعلاقتها عدم تغيير جزمه ، ولا يترك ما عزم عليه للخلق .

وثانيها العمل لله لا لغيره ، وعلاقة ذلك لا يرضى بغير الحق ، إسوة بقوله صلى الله عليه وسلم «اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تره فإنه يراك» .

وثالثها موافقة الحق ومخالفة النفس بالصبر وترك الهوى ، من تعود هذا خرق الحجاب ودخل الكشف .

ورابعها الاتباع لا الابتداع حتى لا يزهو برأيه ويكون صاحب هوى .

وخامسها الهمة البعيدة عن كل تسويق عملا بقوله صلى الله عليه وسلم «يا أجبائي ، عليكم بالسواد الأعظم ، قالوا : يارسول الله ، وما السواد الأعظم ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي» .

وسادسها الذلة - لا بمعنى الكسل - في الطاعات ، ورؤية الخلق بعين الوقار والاحترام ، فإن بعضهم وسائط بعض .

وسابعها الخوف والرجاء وعدم الاطمئنان بجلال الإحسان ، وحسن ظنك بالله صاحب الفصل والإحسان .

وثامنها دوام الورد في الحق ، فمن ليس له ورد ماله من الموارد إمدادا . ويعمل لله تعالى ما يرضي كما يجب أن يفعل الله به ما يرضى .

وتاسعها المداومة على المراقبة حتى لا يغيب عن الله طرفة عين ، فيصل إلى عين اليقين ، بعدها يرى الله في كل شيء .

وعاشرها علم يجب الاشتغال به ظاهرا وباطنا مع اجتهاد ، لأنه من ظن أنه استغنى عن الطاعة فهو مفلس ، عملا بقوله تعالى «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» .

هذه وصايا عشر قدمها لنا الغزالي . تسير على نهجها الطرق الصوفية التي يشرب عينها أولياء الله الصالحين .

وكرامات الأولياء الصالحين هي بالنسبة للرسول بداية ، والرسول صلى الله عليه وسلم كانت لديه أول حال ، حين اعتكف في جبل حراء واختلى فيه بربه حتى أتاه اليقين .

## أدب المتصوفة

يتميز الأدب الصوفي بلطافته وشفافيته وذوقه في حل بعض ما شكل على الفقهاء والعلماء وسائر الناس من أصحاب الظاهر، وسنحاول أن نجمع شتاتاً من ذلك في مواضيع مختلفة عليها تفي بالمقصود من الناحيتين الأخلاقية والأدبية معا .

فهذا سلمان الفارسي رضي الله عنه قيل أنه لما سمع قول الله تعالى «وإن جهنم لموعدهم أجمعين» صاح صيحة قوية ووضع يده على رأسه وهروا فارا ثلاثة أيام . وقيل عنه أنه زار أبا الدرداء رضي الله عنه من العراق إلى الشام راجلا وهو يلبس كساء غليظا مضموم الرأس شاحبا، فقيل له : شهرت نفسك، فقال : الخير خير الآخرة وإنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبيد، فإذا أعتقت لبست جبة لا بتلاء محاسنها .

وسألوا أبا ذر رضي الله عنه فقال : إن قيامي بالحق لله تعالى لم يترك لي صديقا، وإن خوفي من يوم الحساب ما ترك على بدني لحما، وإن يقيني بثواب الله تعالى ما ترك في بيتي شيئا .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «كم من ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره» منهم البراء بن مالك رضي الله عنه . فقال البراء : اللهم فإني أقسم عليك لما رزقتني الشهادة ورزقت أصحابي الفتح . قال : فاستشهد البراء وفتح الله عليهم .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه، جزأت الليل ثلاثة أجزاء، ثلثا أصلي، وثلثا أنام، وثلثا أستذكر فيه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن أنس بن مالك قال : أول من يرد الحوض يوم القيامة الذابلون الناحلون الذين إذا جنهم الليل استقبلوه بحزن . وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه كان يقول : ما كنا ننام ونحن عزاب في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا في المسجد، ولم يكن لنا مسكن ولا مأوى، وقيل عنه : لا تحب أبدا إلا من تثق بدينه . كما كان يقول : لاتطعموا طعامكم إلا كل تقي نقي، ولا تأكلوا إلا من طعام تقي نقي .

وقال حذيفة رضي الله عنه : كم من شهوة ساعة أورثت صاحبها حزنا طويلا .

وقال محمد بن كعب رضي الله عنه : إذا أراد الله بعبد خيرا جعل فيه ثلاث خصال ، فقهه في الدين ، وزهده في الدنيا ، وبصره عيوب نفسه . وأما زرارة بن أوفى رضي الله عنه ، فإنه أم في مسجد بني قشير فقراً «فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير» فخر ميتا .

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال : أهدي لرجل من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاه قال : إن أخي أحوج إليه مني ، فبعث إليه ، فلم يزل يبعث الواحد إلى الآخر حتى تناوله سبعة أبيات فرجعت إلى الأول ، قال : ونزل فيهم هذه الآية «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» .

وفسر ابن عباس قول الله تعالى «يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا» بقوله : يعني أدبهم وعلموهم تقوهم بذلك من النار . وسئل محمد بن سيرين أي الأذى أقرب إلى الله تعالى وأزلف للعبد عنده . قال : معرفة بربوبيته ، وعمل بطاعته ، والحمد لله على السراء والصبر على الضراء . وسئل الحسن بن أبي الحسن البصري عن إكثار الناس تعلم الأدب . فما أنفعها عاجلا وأوصلها آجلا ؟ قال : التفقه في الدين ، فإنه يصرف إليه قلوب المتعلمين ، والزهد في الدنيا ، فإنه يقربك من رب العالمين ، والمعرفة بما لله عليك يحويها كمال الإيمان .

وقال كلثوم الغساني : الأدب أدبان : أدب قول وأدب فعل ، فمن رفق لنفسه في أدبه بقوله عدم ثواب العمل ، ومن تقرب إلى الله تعالى بأدب فعله منحه محبة القلوب وصرف عنه العيوب ، وجعله شريكا في ثواب المتعلمين .

ويقول الجلاجلي البصري رحمه الله : التوحيد موجب يوجب الإيمان ، فمن لا إيمان له لا توحيد له ، والإيمان موجب يوجب الشريعة ، فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له . والشريعة موجب يوجب الأدب ، فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان ولا توحيد .

ويحكى عن إبراهيم الخواص رحمه الله تعالى أنه قال : إثنا عشر خصلة من خصال الصوفية في حضرهم وسفرهم . أولها أن يكونوا بها وعدهم الله تعالى مطمئنين . والثانية أن يكونوا من الخلق آيسين . والثالثة أن ينصبوا العداوة مع الشياطين ، والرابعة أن يكونوا لأمر الله مستمعين . والخامسة أن يكونوا على جميع الخلق مشفقين . والسادسة أن يكونوا لأذى الخلق محتملين ، والسابعة أن يدعو النصيحة لجميع المسلمين . والثامنة أن يكونوا في مواطن الحق متواضعين . والتاسعة أن يكونوا بمعرفة الله تعالى مشتغلين . والعاشرة أن يكونوا الدهر على طهارة . والحادي عشر أن يكون الفقر رأساهم . والثاني عشر أن يكونوا راضين فيما قل أو كثر وفيما أحبوا أو كرهوا عن الله تعالى شيئا واحدا ، راضين عنه شاكرين له واثقين به .

وقال أبو يزيد : قمت ليلة أصلي فعييت فجلست ومددت رجلي ، فسمعت هاتفا يقول . من يجالس الملوك ينبغي له أن يحسن الأدب . وعن إبراهيم بن أدهم قال : تربعت مرة فهتف بي هاتفا . هكذا تجالس الملوك ؟ فما تربعت بعد ذلك . وقال حسن القزاز - وكان يكثر الجلوس بالليل - سئل

عن ذلك . فأجاب : بني هذا الأمر على ثلاثة أشياء . لا نأكل إلا من فاقة ، ولا نتكلم إلا عن ضرورة ، ولا ننام إلا عن غلبة .

وسئل يحيى بن معاذ عن الجوع فقال : لو علمت أن الجوع يباع في السوق ما كان ينبغي لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره ، وقال : الجوع أربعة أوجه ، للمريدين رياضة ، وللتابعين تجربة ، وللزهاد سياسة ، وللعارفين مكرمة . وقيل عن سهل ابن عبدالله أنه كان لا يأكل الطعام أزيد من عشرين يوما ، فهو لا يترك الطعام ، ولكن الطعام يتركه إذ أنه كان يرد على قلبه ما يأخذه ويشغله عن أكل الطعام . ويحكى عن ممشاذ رحمه الله أنه اعتل بعله شديدة ، فدخل عليه أصحابه عائدين ، فقالوا كيف تجدك ؟ قال : لا أدري ؟ ولكن سلوا العلة كيف تجدني ؟ فقالوا له : كيف تجد قلبك ؟ قال : قد فقدت قلبي منذ ثلاثين سنة .

وقال أبو سعيد الخراز : من أدب المريد وعلامة صدق إرادته أن يكون الغالب عليه الرقة والشفقة والتلطف والبذل واحتمال المكاره كلها عن عبيده وعن خلقه حتى يكون لعبيده أرضا يسعون عليها ويكون للشيخ كالإبن البار وللصبي كالأب الشفوق ، ويكون مع جميع الخلق على هدي يتشكى بشكواهم ويغتم لمصائبهم ويصبر على أذاهم ، فإن هذا مراد الله تعالى من المريدين الصادقين أن يعطفوا على الخلق من حيث عطف الله تعالى عليهم ، ويتأدبوا بآداب الأنبياء والصادقين وآداب أوليائه وأحبائه حتى ترفع الحجب التي بينه وبين الله تعالى . فما دام هو متمسكا بهذه الآداب ومتخلقا بهذه الأخلاق ، ويكون مستعينا في ذلك بالله متوكلا على الله عز وجل راضيا عنه . وسئل يوسف ابن الحسين عن علامة المريد . فقال : ترك كل خليط لا يريد مثل ما يرد ، وأن يسلم منه عدوه كما يسلم منه صديقه ، وعلامة المريد وجدانه في القرآن كان ما يريد ، واستعمال ما يعلم ، وتعلم ما لا يعلم ، وترك الخوض فيما لا يعنيه ، وشدة الحرص على إرادة النجاة من الوعيد مع الرغبة في الوعد والتشاغل بنفسه عن غيره . وقال أبو بكر البارزي : إذا سلك المريد الهول في أول قدم ، فلا يبالي ، فإنه لن يلقاه بعد ذلك إلا الراحة .

وسألوا جعفر الخلدي عن الصداقة والمودة فقال : هي التي لا تزداد بالبر ولا تنقص بالجفاء .

وقال أبو محمد الهروي : مكثت عند الشبلي رحمه الله ليلة غداة التي مات فيها ، فكان يقول طول الليل هاتين البيتين .

كل بيت أنت ساكنه      غير محتاج إلى السرج  
وجهك المأمول حجتنا      يوم يأتي الناس بالحجج

وقال عبدالله أحمد بن عطاء ، سمعت بعض الفقراء يقول : لما مات يحيى الإصطخري رحمه الله ، جلسنا حوله ، فقال له رجل منا ، قل أشهد أن لا إله إلا الله ، فنهض جالسا ، ثم أخذ يد واحد فقال : قل أشهد أن لا إله إلا الله ، وخلي يده وأخذ بيد الآخر الذي يجنبه وقال ، قل أشهد أن لا إله إلا الله وخلي يده ، وأخذ بيد الآخر الذي يجنبه حتى عرض الشهادة على واحد منا ، ثم استلقى على قفاه وخرجت روحه .

وسئل أحد المتصوفة عن الفناء والبقاء فقيل : الفناء والبقاء اسمان ، وهما نعمتان لعبد موحد يتعرض الارتقاء في توحيده من درجة العموم إلى درجة الخصوص ، ومعنى الفناء والبقاء في أوائله فناء الجهل ببقاء العلم ، وفناء المعصية ببقاء الطاعة ، وفناء الغفلة ببقاء الذكر ، وفناء رؤيا حركات العبد لبقاء رؤيا عناية الله تعالى في سابق العلم . وقال سمنون : العبد في حال الفناء محمول ، وفي حال الحمل مورود ، وهي نعوت تؤدي إلى نعوت . وقال : أول مقامات الفناء الوجود والمشاهدات للبقاء . وسئل الجنيد فقال عن الفناء : استعجام كلك عن أوصافك ، واستعمال الكل منك بكليتك . وقال ابن عطاء : من لم يفن عن شاهد نفسه بشاهد الحق . وقال الشبلي : من فنى عن الحق بالحق لقيام الحق بالحق ، فنى عن الربوبية ، فضلا عن العبودية . وقال عن الفناء والبقاء : أول علم الفناء هو النزول في حقائق البقاء ، وهو الأثرة لله تعالى على جميع ما دونه ، وتفقد كل حال معه حتى يكون هو الحظ ، وسقوط ما سواه حتى تفنى عبادتهم لله تعالى بأنفسهم ببقاء عبادتهم لله بالله ، وما بعد ذلك لا يدركه المعقول بالعقول ، ولا تنطق به الألسن ، وقد قال الله تعالى «كل من عليها فان» فأول علامة الفاني ذهاب حظه من الدنيا والآخرة بورود ذكر الله تعالى ، ثم ذهاب حظه من ذكر الله تعالى عند حظه بذكر الله تعالى له ، ثم تفنى رؤية ذكر الله تعالى حتى يبقى حظه بالله ، ثم ذهاب حظه من الله تعالى برؤية حظه ، ثم ذهاب حظه برؤية حظه بفناء الفناء وبقاء البقاء .

وسئل بعض الصوفية عن الوصول ، فقال : ذهاب العقول .

## حال الصوفية

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم «يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش لأحد فافعل . ثم قال «يا بني وذلك من سنتي ، ومن أحيا سنتي فقد أحياي ، ومن أحياني كان معي في الجنة» هذا الحديث بشرى للصوفية ، حيث هذا حالهم ، وهم أحق بإحياء هذه السنة لما يميزوا به من طهارة قلب ، فظهر جوهرهم ولاح فضلهم . ومما أعانهم على هذه السنة زهدهم في الدنيا ، فتركوها لأهلها وطلابها ، فكانت لهم مثار غش وغل ومحبة الرفعة والمنزلة بين الناس . وقد صدق بعض الصوفية حينما قالوا : طريقنا هذا لا يصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابيل ، فلما سقط عن قلوبهم محبة الدنيا وحب الرفعة أصبحوا وأمسوا وليس في قلوبهم غش لأحد . وقد يعني المزابيل «النفوس» - كما شرح ذلك بعضهم ، لأنها مأوى كل رجس ونجس كالزبلة ، وكنسها بنور الروح الواصل إليها ، لأن الصوفية أرواحهم في مجال القرب ، ونورها يسري إلى النفوس . قال تعالى «ونزعنا ما في صدورهم من غل ، إخوانا على سرر متقابلين» . قال أبو حفص ، يبقى الغل في قلوب إئتلفت بالله واتفقت على محبته واجتمعت على مودته وأنست بذكره ، إن تلك قلوب صافية من هواجس النفوس وظلمات الطباع ، بل كحلت بنور التوفيق فصارت إخوانا قولاً وفعلاً وحالاً ، ووقعت الموافقة في كل شيء مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجبت المحبة من الله تعالى ، فصدق قوله «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» .

فالصوفية اتبعوا في أحوالهم الجهد والاجتهاد في العبادة ، والتهجد والصوم والصلاة ، فرزقهم الله البركة في هذا الحال . واتصفوا بالحلم والعفو والصفح والرأفة والشفقة والنصيحة والتواضع ، فرزقهم الله من أحواله من الخشية والسكينة والهيبة والتعظيم والرضا والصبر والزهد والتوكل ، وبهذا استوفوا أقسام اتساع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأقصى الغايات . قيل لبعث الواحد بن زيد : من الصوفية عندك ؟ قال : القائمون بعقولهم على فهم السنة ، والعاكفون عليها بقلوبهم ، والمعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم الافتقار إلى الله حيث يقول : «لا تكني إلى نفسي طرفة عين ، اكلائي كلاءة الوليد» والصوفي هو أيضا يسير على هذا النهج ، فهو دائم الافتقار إلى ربه ، أسير إليه من نفسه ، لما يبدو من شرورها ، فلا يخلو عن مطالعتها أدنى ساعة ، كما لا يخلو عن ربه أدنى ساعة . فالصوفي الزاهد في الدنيا ، والمستمسك من التقوى بأوثق



العري ، هو حاله . إن افتقاره إلى ربه تمسك بجانب الحق وفي هذا التمسك استغراق الروح واستتباع القلب إلى الدعاء ، والنفس المدبرة بهذا التدبير مأمونة من الغل والغش والحقد والحسد و سائر المذمومات ، وهذا حال الصوفي .

ويجمع حال الصوفية في شئنين ، هما : وصف الصوفية - وفي ذلك قوله تعالى ؛ «الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب» فقوم من الصوفية خصوا بالاجتباء الصرف ، وقوم خصوا بالهداية شرط الإنابة .

فالاجتباء المحض ، حال المحبوب المراد يمنحه الحق سبحانه مواهب من غير سابقة . يسبق كشفه لاجتهاده ، وفي هذا السياق طائفة من الصوفية ، رفعت عنهم الحجب ، وسطح فيهم نور اليقين ، فأثار نازل الحال فيهم شهوة الاجتهاد والأعمال فأقبلوا على ذلك بلذة عيش وقرّة عين . وسهل الكشف عليهم الاجتهاد .

وأما المريدون الذين اشترطت فيهم الإنابة في قوله تعالى «ويهدي إليه من ينيب» فقد طولبوا بالاجتهاد أولا قبل الكشف .

وبعبارة أوضح . فإن هناك مرادون ومريدون .

فالمرادون ، سبقت كشفاتهم اجتهاداتهم .

والمريدون . سبقت اجتهاداتهم كشفاتهم .

يقول الجنيد : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسّنات .

وقال أبو عثمان : المرید هو الذي مات قلبه عن كل شيء دون الله تعالى ، فيرى الله وحده ، ويريد قربه ، ويشتاق إليه ، حتى تذهب شهوات الدنيا عن قلبه لشدة شوقه إلى ربه . وقال أيضا : عقوبة قلب المریدين أن يجربوا عن حقيقة المعاملات والمقامات إلى أضدادها ، فهذان الطريقتان يجمعان أحوال الصوفية ، ودونهما طريقتان آخران ليسا من طرق التحقق بالتصوف : أحدهم مجذوب أبقي على جذبته مارد إلى الاجتهاد بعد الكشف . والثاني مجتهد متعبد ما خلص إلى الكشف بعد الاجتهاد .

يقول سهل بن عبد الله : كل وجه لا يشهد له الكتاب والسنة فباطل . ذلك حال الصوفية وطريقهم ، وكل من يدعي حال غير هذا الوجه فمدع مفتون كذاب .

## تصورات ثلاثة أقطاب

ثلاثة من كبار أقطاب التصوف عرفهم تاريخنا الإسلامي ، كانوا أمناء مع أنفسهم ومع الناس ، كل واحد منهم استفاد من الآخر وفق التسلسل التاريخي ، إنهم الرفاعي والبدوي والقنائي .  
فالبدوي كانت له صلة بالرفاعي ، والقنائي كانت له صلة بالبدوي ، كانت هذه اللقاءات باطنية وروحية ، عاش الثلاثة حياة تكاد تكون متشابهة في الصراعات والجولات وتربية الرجال ، بل حتى في نهاية حياتهم لقوا نفس المصير الذي لقيه جدهم الأكبر سيدنا علي كرم الله وجهه وأبناؤه رضي الله عنهم .

فالرفاعي ينصح أتباعه ويحذرهم من أن يسبوه بعد وفاته ، ويعلن براءته ، ويسأله الأتباع قائلين : كيف نسبك وأنت إمامنا ، فيجيبهم قائلاً : ستفعلون ما لا يليق — ثم يكرر براءته — ونفس المعاني كان يرددها البدوي والقنائي . وتمر الأيام والسنين الطويلة ، فيتجلى حب هذا أو ذاك ، وينسجون من حبه كلاماً سيئاً لهم ، فيخرجون عن تعاليم الشيوخ ، فيراهم الناس ويستهزئون بهم وبأئمتهم ، والحق أن المسلمين البسطاء يظلمون أئمتهم وتحت كل كل هذا الجهل ، ضاع ثراث كثير ، وضاعت مجموعة تعليم وآداب صوفية رفيعة ، يكفي أنهم في فترة تاريخية أو فترات من الحياة الإسلامية ، كان لهم الفضل الأكبر في حماية العالم الإسلامي من الخطر الأجنبي أو التفكك الداخلي .

### الإمام أحمد الرفاعي :

من أقواله «طريقي دين بلا بدعة ، وهمة بلا كسل ، وعمل بلا رياء ، ونفس بلا شهوة ، وقلب عامر بالمحبة» .

من مواليد العراق سنة 512 هـ أيام الخليفة المستظهر بالله من العصر العباسي الثاني ، والرفاعي نسبة إلى جده السابع رفاعه الذي اسمه الحسن ، وكان قد هاجر من مكة إلى المغرب حين اضطهاد العلويين حيث استقر به المقام في اشبيلية . أما نسبه فينتهي إلى سيدنا الحسين من جهة أبيه ، وإلى سيدنا الحسن من جهة أمه ، حفظ القرآن في السابعة ، وجمع العلوم في العشرين على مشايخ مرموقين . من تصوراته في نشر الإسلام . أن الدين يجب أن يكون بعيداً عن كل بدعة ، وإنما يحتاج إلى صدق وإخلاص وحسن خلق وتقى ، ومن أدخل في عمله الرياء والفجور فقد ضل ضلالاً بعيداً ، ومن كان

يرغب في إظهار الكرامات وخوارق الأحوال قاصداً بذلك التفاخر وجلب الحظ ، فمثله مثل الذي يتعلق بخيط العنكبوت . و هو يؤكد أن كل حقيقة خالفت الشريعة فهي زندقة . وقد قسم أتباعه إلى مجموعات تبدأ من المرید «التلميذ» وكل مجموعة من المریدین شیخ «مدرس» ولكل مجموعة من الشيوخ شیخ .

والمرید لا یصل إلى مراده حتى ینخرج عن المألوفات الحسية ویترك جميع الشهوات ، حتى إذا ما صمم المرید على السیر في الطریق مما فعلیه أن یسیر في قول الشیخ الرفاعی الذي یؤكدہ في مجالسہ قائلا : «أعینونی على أنفسکم بخمس خصال : الأولى سنة رسول الله وصفته كما قال لعائشة - إن سرك اللحاق بي فإياك ومجاورة الموتى ومجالسهم - موتى القلوب - ولا تصنعني ثوبا حتى ترقيعه . والثانية موافقة السلف على حالهم . والثالثة لباس ثوب التعرية من الدنيا والنفس . والرابعة تحمل البلاء والاستسلام له . والخامسة لباس الوفاء واجتناب الجفاء» .

ويقول في موضع آخر مبينا مراحل تعلم المرید : «يحتاج الفقير - يقصد العبد - منكم إن كان سالكا في طريقه مقتدرا على نفسه أن تكون فيه ست خصال : أولها ، فقد المعلوم المحسوس المفضي إلى البؤس - أي الماديات وحب الدنيا - . وثانيها ، الصبر والإياس من جميع الأشياء إلا الله تعالى . وثالثها . كتمان السر حتى لا يشكو إلى مخلوق مثله . والرابعة ، ترك المسألة لكيلا يهرب إلى الخلق من باب الله تعالى . والخامسة ، أن يظهر الغنى في الفقر . والسادسة ، أن يعمل لله تعالى ولا يرى أنه يعمل شيئا» .

وفي الشیخ يقول الإمام الرفاعی : «الشیخ ظاهره الشرع وباطنه الشرع» «الشیخ من یلزمك الكتاب والسنة ویبعدك عن المحدثه والبدع» «الشیخ إذا نصحك أفهمك ، وإذا قادك ذلك ، وإذا أخذك نهض بك .

والرفاعی الإمام ، كان یشتغل في حياته الخاصة خطابا ، ثم یحمل الماء لبيوتات العجزة والأرامل والفقراء .

مات الرفاعی ، وبقي الرفاعیة یقرأون حزبه الصغیر الذي لانرى مانعا من عرضه كاملا :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، الرحمان الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك ، نعبد و إياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين . . آمين .

بسم الله الرحمان الرحيم التّم ، ذلك الكتاب لا ريب ، فيه هدى للتمقين الذين يؤمنون بالغيب و يقيمون الصلاة و مما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك . وبالآخرة هم يقنون أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون . وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو ، الرحمان الرحيم . الله لا إله إلا هو ، الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في السموات وما في لأرض ، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما

شاء ، وسع كرسية السموات والأرض ، ولا يؤده حفظهما ، وهو العلي العظيم . لله ما في السموات وما في الأرض ، وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله على كل شيء قدير . آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا ، وإليك المصير ، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد لله آله وصحبه وسلم . اللهم إني أسألك بعظيم قديم مكنون مخزون أسمائك ، وبأنواع أجناس رقوم نقوش أنوارك ، وبعزيز إعزاز عزتك ، وبحول طول حول شديد قوتك ، وبقدرة مقدار اقتدار قدرتك ، وبتأييد تمجيد تمجيد عظمتك ، وسمو نمو علو رفعتك ، ويقىوم ديوم دوام أبديتك ، وبرضوان غفران أمان مغفرتك ، وبرفيع بديع منيع سلطانك ، وبصلات ساعات بساط رحمتك ، وبلوا مع بوارق صوامق عجيج وهيج نور ذاتك ، وببهر جهر قهر ميمون ارتباط وحدانيتك ، وبهدير تيار أمواج بحرك المحيط بملكوتك ، وباتساع انفساح ميادين برازخ كرسيك ، وبهيكليات علويات روحانيات أملاك عرشك ، وبالأملاك الروحانيين المديرين لكواكب أفلاكك ، وبحنين أنين تسكين المرادين لقربك ، وبحرقات زفرات خضعات الخائفين من سطوتك ، وبآمال نوال المجتهدين في مرضاتك ، وبتجهد تمجد تجلد العابدين على طاعتك ، يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن يا قديم يا مقيت أطمس بطلسم بسم الله الرحمن الرحيم سر سويداء قلوب أعدائنا وأعدائك ، ودق أعناق رؤس الظلمة بسيوف نمشات قهر سطوتك ، واحجبنا بحجبك الكثيفة عن لحظات لمحات أبصارهم الضيقة بحولك وقوتك ، وصب علينا من أنابيب ميازيب التوفيق في روضات السعادة آناء الليل وأطراف النهار ، وأغمسنا في حياض سواق مساق برك ورحمتك ، وقيدنا بقيود السلامة عن الوقوع في معصيتك ، يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن يا قديم يا مقيت . اللهم ذهلت العقول وانحصرت الأفهام وحارت الأوهام وبعسدت الخواطر وقصرت الظنون عن إدراك كنه كيفية ما ظهر من مبادئ عجائب أنواع قدرتك ، دون البلوغ إلى تلالؤ لمعات بروق شروق أسمائك ، اللهم محرك الحركات ومبديء النهايات الغايات ، ومشفق صم الصلاديد والصخور الراسيات ، المنبع منها ماء معيناً للمخلوقات ، المحيي بها سائر الحيوانات والنباتات ، والعالم بما اختلج في سرورهم نطق إشارات خفيات لغات النمل السارحات ، ومن سبحت وقدسست وعظمت ومجدت جمال كمال افضال عزك ملائكة السبع سماوات . اجعلنا اللهم يا مولانا في هذه الساعة المباركة ممن دعاك فأجبتهم ، وسألك فأعطيتهم ، وتضرع إليك فرحمتهم ، وإلى دارك دار السلام أدنيتهم وقربتهم ، جد علينا بفضلك يا جواد يا جواد يا جواد ، عاملنا بما أنت أهله ولا تعاملنا بما نحن أهله ، إنك أنت أهل التقوى وأهل المغفرة ، يا أرحم الراحمين ارحمنا ، يا أرحم الراحمين ارحمنا ، يا أرحم الراحمين ارحمنا . رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ، إنه حميد مجيد ، « إنما يريد الله ليذهب عنكم

الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيرا» . إن الله وملائكته يصلون على النبي ء ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .

وهذه الصلاة المسماة جوهرة الأسرار تقال بعد قراءة الحزب الصغير.

اللهم صل وسلم وبارك على نورك الأسبق ، وصراطك المحقق الذي أبرزته رحمة شاملة لوجودك ، وأكرمته بشهودك ، واصطفيته لنبوتك ورسالتك ، وأرسلته بشيرا ونذيرا وداعيا إليك بإذنك وسراجا منيرا ، نقطة مركز باء الدائرة الأولية وسر أسرار الألف القطبية الذي فتقت به رتق الوجود وخصصته بأشرف المقامات لمواهب الامتنان والمقام المحمود ، وأقسمت بحياته في كلامك المشهود ، لأهل الكشف والشهود ، فهو سرّك القديم الساري ، وماء جوهر الجوهريّة الجاري ، الذي أحييت به الموجودات من معدن وحيوان ونبات ، فهو قلب القلوب ، وروح الأرواح ، وعلم الكلمات الطيبات ، والقلم الأعلى ، والعرش المحيط ، روح جسد ، الكونين ، وبزخ البحرين ، وثاني اثنين ، وفخر الكونين ، أبو القاسم سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليما بقدر عظمة ذاتك في كل وقت وحين ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

### الإمام أحمد البدوي :

من أقواله «طريقتنا مبنية على الكتاب والسنة والصدق والصفاء وحسن الوفاء ، وحمل الأذى ، وحفظ العهود»

من مواليد فاس سنة 596 هـ سلالة عربية يعود نسبة إلى الإمام علي كرم الله وجهه ، هاجر المغرب إثر اضطهاد العلويين في المشرق ، حفظ القرآن الكريم في السابعة ، ثم بدأ يصاحب والده الشريف علي بن عثمان ، وإخوته الستة بين مجالس العلم إلى أن أعلن والده الرحيل من المغرب إلى مكة مقرهم الأول ، فاغترف بها أيضا من العلم ما ثبت فؤاده ، بعدها بدأ اعتزال الناس والاعتكاف على العبادة لدرجة أنه اعتزل في مغارة بجبل قرب مكة ، وهنا درس ذاتيته وحاجية الأمة الإسلامية ، وخطر له خاطر الشوق إلى معرفة علوم الرفاعي وعبد القادر الجيلاني وغيرهم من المتصوفة ، ومن هنا سلك خط الوحدة معهم ، فخرج عن صمته متوجها نحو العراق ثم إلى مصر ليقيم في طنطا .

من تصوراته في نشر الإسلام أن يكون جندا للدفاع عن دين الله ، فكان كذلك إذ حارب المبشرين والمسيحية بطنطا وقضى عليهم ، كما حارب «لويس» التاسع وقضى عليه وأسر منهم عددا كثيرا ، وبقدر ما كانت تصوراته في تكوين جند الله في الدفاع بقدر ما كانت تصوراته في تكوين جند الله في السلم ، فربى عددا عديدا عن طريق التعليم والتدريس والتربية .

وقد سأله يوما عن علامة الولاية ، فقال :

«إن الولي الشرعي له اثنتا عشرة علامة .

- الأولى : أن يكون عارفاً بالله .
- الثانية : أن يكون مراعيًا لأوامر الله .
- الثالثة : أن يكون متمسكا بسنة النبي .
- الرابعة : أن يكون دائم الطهارة .
- الخامسة : أن يكون راضيا عن الله تعالى .
- السادسة : أن يكون موقنا عما وعده الله به .
- السابعة : أن ييأس بما في أيدي الناس .
- الثامنة : أن يتحمل أذى الناس .
- التاسعة : أن يكون مبادرا لأوامر الله .
- العاشرة : أن يكون شفوفا على خلق الله .
- الحادية عشر : أن يكون متواضعا للناس .
- الثانية عشرة : أن يكون عالما بأن الشيطان عدو كما أخبر الله تعالى بقوله «إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا» .

وفي سؤال عن العقبات التي تقيد الإنسان ، يجيب السيد البدوي قائلا :

تسع عقبات تقيده وتشده إلى الدنيا .

- عدم مراعاة الإحسان في العمل .

- شح النفس بالعطاء .

- عدم استدامة ذكر الله .

- الغفلة عن قيام الليل .

- سوء الخلق في المعاملة .

- عدم الصبر على تحمل أذى الناس .

- عدم ملازمة الصدق .

- خلو القلب من الصفاء وحسن الوفاء وحفظ العهود . «

وفي إحدى وصاياه : «من لم يكن عنده علم ، لم تكن له قيمة في الدنيا ولا في الآخرة ، ومن لم يكن عنده حلم لم ينفعه علم ، ومن لم يكن عنده سخاء لم يكن له من ماله نصيب ، ومن لم تكن عنده شفقة على خلق الله لم تكن له شفاعة عند الله ، ومن لم يكن له صبر لم تكن له في الأمور سلامة ، ومن لم تكن له تقوى لم تكن له منزلة عند الله ، ومن حرم هذه الخصال فليس له منزلة في الجنة» .

ومن أقواله «اذكر الله بقلب حاضر، وإياك والغفلة عن الله، فإنها تورث القسوة في القلب» وفي الزهد «أن يترك المرید سبعین بابا من الحلال خوفا من الوقوع في الحرام» وعن التوبة النصوح «ندم عن الذنب، وإقلاع عنه، واستغفار باللسان، وعزم على عدم العودة إلى المعصية، وصفاء القلب».

لقد واصل البدوي مسيرته التعليمية والتربوية إلى أن وافاه الأجل بطنطا سنة 675م. فترك أتباعه يرددون حزيه الشهرين، الكبير والصغير، وصلاتية.

فأما الحزب الكبير فهو :

«الحمد لله رب العالمين، الرحمان الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين. وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، الله لا إله إلا هو، الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السموات وما في الأرض، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤده حفظهما. وهو العلي العظيم. ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان، إن للذين كفروا آيات الله لهم عذاب شديد، والله عزيز ذو انتقام، إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، إن الدين عند الله الإسلام. الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، ومن أصدق من الله حديثا، ذلكم ربكم، لا إله إلا هو، خالق كل شيء فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل. اتبع ما يوحى إليك من ربك، لا إله إلا هو، واعرض عن المشركين. قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا، الذي له ملك السموات والأرض، لا إله إلا هو يحيي ويميت، فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون. وما أمروا إلا ليعبدوا إلهها واحدا لا إله إلا هو، سبحانه عما يشركون. فإن تولوا فقل حسبي الله، لا إله إلا هو عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم. حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا هو الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين. فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنها أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون. وهم يكفرون بالرحمن، قل هو ربي لا إله إلا هو، عليه توكلت وإليه متاب، ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون. وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى، الله لا إله إلا هو، لله الأسماء الحسنى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدوني وأقم الصلاة لذكري. إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما. وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون. وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فتعالى الله الملك الحق، لا إله إلا هو رب العرش الكريم. ويعلم ما تخفون وما تعلنون، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم. وهو الله لا إله إلا هو، له الحمد في الأولى والآخرة،

وله الحكم، وإليه ترجعون، ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم، وإليه ترجعون. يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض، لا إله إلا هو، فأنى تؤفكون. إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون. ذلكم الله ربكم له الملك. لا إله إلا هو، فأنى تصرفون، حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو، إليه المصير. ذلكم الله ربكم خالق كل شيء، لا إله إلا هو، فأنى تؤفكون. هو الحي، لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين، الحمد لله رب العالمين. رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين، لا إله إلا الله يحيي ويميت، ربكم ورب آبائكم الأولين، فاعلم أنه لا إله إلا الله، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات، والله يعلم متقلبكم. هو الله الذي لا إله إلا هو، عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق البارئ المصور، له الأسماء الحسنى، يسبح له ما في السموات والأرض، وهو العزيز الحكيم. الله لا إله إلا هو، وعلى الله فليتوكل المؤمنون. رب المشرق والمغرب، لا إله إلا هو، فاتخذة وكيلاً. اللهم إني أسألك بنور وجهك الذي ملى أركان عرشك، وأسألك بطول حول شديد قوتك، وأسألك بتوكيد أكيد برهانك، وأسألك ببديع منيع رفيع سترك، وأسألك بقدر مقدار اقتدار قدرتك، وأسألك بدوام ديوم ديوميتك، وأسألك بعزيز معتز عزتك، وأسألك بجلال كمال نعمتك، وأسألك بمكنون تكوين كائن سرك، وأسألك بما أنارت به السموات والأرض من خفي علمك، وأسألك باسمك العظيم وركنك الجسيم أن تفك اللهم كربتي، وتفرج غمتي، وتؤنس غربتي، وتتفضل علي يا إلهي بنظرة منك تكون لي النجاة بها في الدنيا والآخرة، إنك على كل شيء قدير، يا أرحم الراحمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

وأما الحزب الصغير فهو :

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، عما نوروا فعموا، وصموا عما طووا، رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين. بسم الله الرحمن الرحيم ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول. اللهم اكفنيهم بما شئت، اللهم إني أعوذ بك من شرورهم، وأدرا بك في نحورهم، بك أحاول وبك أقاتل، اللهم واقية كواقية الوليد، بكفهي عص كفيت، بحم عسق حميت، فسيكفيهم الله وهو السميع العليم، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد النبي المصطفى الكريم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، والحمد لله رب العالمين».

أما الصلاة الأولى :

«اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد شجرة الأصل النورانية، ولمعة القبضة الرحمانية، وأفضل الخليقة الإنسانية، وأشرف الصور الجسمانية، ومعدن الأسرار الربانية، وخزائن



العلوم الاصفائية ، صاحب القبضة الأصلية ، والبهجة السنية ، والرتبة العلية ، من اندرج النبيؤون تحت لوائه ، فهم منه وإليه ، وصل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه عدد ما خلقت ورزقت وأمت وأحييت إلى يوم تبعث من أفنيت ، وسلم تسليما كثيرا ، والحمد لله رب العالمين» .

أما الصلاة الثانية :

«اللهم صل على نور الأنوار، وسر الأسرار، وترياق الأغيار، ومفتاح باب اليسار، سيدنا محمد المختار، وآله الأطهار، وأصحابه الأخيار، عدد نعم الله وإفضاله» .

### الإمام عبدالرحيم القنائي :

من أقواله «اللهم ارزقنا رزقا لا تعذبنا عليه»

من مواليد ترغاي بمقاطعة سبته بالمغرب سنة 880هـ ، حفظ القرآن في الثامنة من عمره ، وتلقى العلم عن أبيه وكبار العلماء ، وفي سن الثامنة عشر تأثرت صحته إثر وفاة أبيه ، فأرسلته أمه عند أخواله بدمشق ، حيث تلقى العلم ، وعاد إلى ترغاي في سن العشرين ، وانطلق مكان أبيه واعظا ، فذاع خبر الشيخ الصغير بين الناس وعم الآفاق . غير أن موت أمه ، والفتن التي تمر بالعالم الإسلامي ، والدمار الذي أصاب ترغاي ، وموت الأعبة . كل هذا دفعه إلى الحجاز عبر الأسكندرية مارا بالقاهرة ، ليجاور الحرمين تسع سنوات عالما عابدا ، بعدها توجه إلى قنا بمصر ، يتعرف على أهلها ويدرس ويتعبد ويعمل بالتجارة ، حيث أصبحت ثروته العظيمة وقفا على الطلبة ورجال العلم .

من تصوراته في حماية العقيدة السمحاء قوله دوما وباستمرار لتلامذته «إن الدين الإسلامي دين علم وعمل وأخلاق ، فمن ترك واحدة فقد ظل الطريق» من أجل ذلك أسس مدرسة فكرية إسلامية صوفية ، ويمكن القول عنه أنه أسس مدرسة فكرية إسلامية أكثر مما أسس طريقة ، عكس سابقه ، وهو يدعو إلى ذلك ويفرده بالشرح في كتاباته وتدريسه ، إيمانا منه بأن العلم دعوة سماوية ومتممة للعمل ، ومما كان يقوله عن العلم «إن مصدره أحاسيس مرتبطة بين العقل والإرادة ، ينتج منها الانتاج الفكري سواء كان جديدا من بيانه وأبوابه ، أو مرتلا خزينة أسرار مجلس الإنتاج الفكري . . .

والعلم علم الواقع والعلم الطبيعي . فالأول حسن ظاهري . . . والثاني تحوطه المعرفة ، وهو ما يتبصره الإنسان وينظر به ظاهر الأشياء وأسبابها الخفية .

والأخير - العلم الطبيعي - يرتبط ارتباطا وثيقا بالدين ، وهو الذي يجز صاحبه إلى البحث والتنقيب وراء خالق الكون ، فتجر صاحبها إلى كلام الله وأقوال الرسل والرضوخ جسمانيا وروحيا في حلقة من حلقات النور الإلهي الذي يوهب لمن اتقى ، وسار في هذا الطريق مجاهدا بنفسه ليبلغ المرتبة العليا من هذا العلم ، أو أسمى حقائق الدين ، وبه أخذ التصوف ، بل هو التصوف نفسه» .  
وبقدر ما أوصى بالعلم أوصى بالعمل قائلا : « . . . وإلى المزيد من العمل لمن يعمل إلى جانب العلم ، فهو ضرورة لا يكتفي منها بما يسد الرمق ، بل باستغلال كل طاقة الإنسان ، من أجل الخير له ، وللناس ممن حوله ، وللحياة التي خلقتها الله لنا»

وقد يبحث الإمام القنائي عن الأخلاق قائلاً : «إن الأخلاق تنبع من مزيج من العلم الظاهر والباطن ، والعمل المنتج المستنير تطويه الروح فترسله إلى النفس الأمانة فتغسلها من أدرانها ، وبهذا يحصل النقل عن الإدراك الصحيح والمعرفة ، فيخلص البدن ، فيتجه الكل إلى الله ، وإلى كلام رسول الله ، وهذه تسمى الأخلاق الزكية ، وهي أعلى درجات الكمال ، وبها اتصف النبي صلى الله عليه وسلم فقال الله تعالى «وإنك لعلى خلق عظيم» .

مات الامام عبد الرحيم القنائي سنة 952هـ وقد ترك آثارا علمية وصدى تردده أتباعه ، وله حزب مشهور نوره بكامله :

«بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد . الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . بسم الله الرحمن الرحيم قل أعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق إذا وقب ، ومن شر النفاتات في العقد ، ومن شر حاسد إذا حسد .

بسم الله الرحمن الرحيم قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس . بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . بسم الله الرحمن الرحيم ألم . ذلك الكتاب لا ريب ، فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبل وبالاخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون . وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو ، الرحمن الرحيم . الله لا اله الا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما في السموات وما في الأرض ، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم . لا إكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انقصاص لها . والله سميع عليم . الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . ألم ، الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، هو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو ، العزيز الحكيم . شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الاسلام . قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير ، تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب . الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، ومن أصدق من الله حديثاً ، ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الابصار ، وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير ، اتبع ما يوحى إليك من ربك ، لا إله إلا هو ، وأعرض عن المشركين . قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ، الذي له ملك السموات

والأرض ، لا إله إلا هو، يحيي ويميت ، فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته  
واتبعوه لعلكم تهتدون . وماأمروا إلا ليعبدوا إلهها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون . فإن تولوا  
فقل حسبي الله ، لا إله إلا هو . عليه توكلت . وهو رب العرش العظيم . حتى إذا أدركه الغرق قال  
آمنت ان لا إله الا الذي آمنت به بنوا اسرائيل وأنا من المسلمين ، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنها  
أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا أنا فاعبدون . وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفي ، الله لا إله إلا  
هو له الأسماء الحسنی . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى أنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم  
الصلاة لذكري . إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو ، وسع كل شيء علما . وما أرسلنا من رسول إلا  
نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون . وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في  
الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك  
ننجي المؤمنين . فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو ، رب العرش الكريم . الله لا إله إلا هو رب  
العرش العظيم . هو الله لا إله إلا هو ، له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم . وإليه ترجعون .  
ولا تدع مع الله إلاها آخر لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم ، وإليه ترجعون . يا أيها  
الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا إله إلا هو ،  
فأنى تؤفكون ، ذلكم الله ربكم ، له الملك ، لا إله إلا هو ، فأنى تصرفون . غافر الذنب وقابل التوب  
شديد العقاب ذي الطول ، لا إله إلا هو ، إليه المصير . ذلكم الله ربكم ، خالق كل شيء ، لا إله إلا  
هو ، فأنى تؤفكون ، هو الحي ، لا إله إلا هو ، فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين . رب  
السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . لا إله إلا هو يحيي ويميت ، ربكم ورب آبائكم الأولين .  
فاعلم أنه لا إله إلا الله فاستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ، والله يعلم متقلبكم ومثواكم . وهو  
الله لا إله إلا هو ، له الحمد في الأولى والآخرة ، وإليه الحكم ، وإليه ترجعون . ولا تدع مع الله إلاها  
آخر لا إله إلا هو ، كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم ، وإليه ترجعون . يا أيها الناس اذكروا نعمة  
الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا إله إلا هو ، فأنى تؤفكون ، ذلكم  
الله ربكم ، له الملك ، لا إله إلا هو ، فأنى تصرفون . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي  
الطول ، لا إله إلا هو ، إليه المصير . ذلكم الله ربكم ، خالق كل شيء ، لا إله إلا هو ، فأنى تؤفكون .  
هو الحي ، لا إله إلا هو ، فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين . رب السموات والأرض  
وما بينهما إن كنتم موقنين . لا إله إلا هو يحيي ويميت ، ربكم ورب آبائكم الأولين . فاعلم أنه لا إله إلا  
الله فاستغفر لذنبك وللمؤمنين وللمؤمنات ، والله يعلم متقلبكم ومثواكم وهو الله لا إله إلا هو عالم  
الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن  
المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحانه الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور ، له الأسماء  
الحسنى ، يسبح له ما في السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ، الله لا إله إلا هو ، وعلى الله  
افليتوكل المؤمنون . رب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو ، فاتخذه وكيلا . آمن الرسول بما أنزل إليه من  
ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا  
وأطعنا ، غفرانك ربنا ، وإليك المصير لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، لها ما كسبت ، وعليها

ما اكتسبت ، ربنا لا توأخذنا إن نسينا أو اخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين . سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم « ثلاثا » عدد ما علم وزنه ما علم وملء ما علم ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، عدد خلقه ووزنه عرشه ورضاء نفسه ومداد كلماته ، سبحان الله وبحمده منتهى علمه ، سبحان الله ذلك التسبيح الذي سبحه لنفسه ، سبحان الله دائما في ديمومته ، سبحان الله تسبيحا يعلو تسبيح المسبحين ويفضل على تسبيحهم لفضله على جميع خلقه ، الحمد لله بجميع محامده كلها على جميع نعمائه كلها على جميع خلقه ، الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافيء مزيده ، الحمد لله كما ينبغي له وجه ربه وعز جلاله ونور كبريائه ، الحمد لله ذلك الحمد الذي حمده لنفسه ، الحمد لله حمدا يفضل على حمد كل حامد كفضله على جميع خلقه ، اللهم أنت الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأنت الحي القيوم القديم الدائم الأبدي ، وأنت الملك المقدر القدير القادر ، وأنت العلي العلي الأعلى الرحمن الرحيم الشكور العفو الغفور الودود التواب ، اللهم أنت الأول فلا شيء قبلك ، وأنت الآخر فلا شيء بعدك ، وأنت الظاهر فلا شيء فوقك ، وأنت الباطن فلا شيء دونك ، اللهم ، اللهم إني استغفرك فإنك الله الذي لا إله إلا أنت الحي القيوم ، غفار الذنوب وأتوب اليك . اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم . أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ومن شر نفسي وما فيها ، الحمد لله الذي عافاني فيما ابتلي به غيري ، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا ، الحمد لله الذي حمد نفسه ، اللهم آت سيدنا محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة ، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته يا أرحم الراحمين . اللهم صل على سيدنا محمد بعدد من يصلي عليه من خلقك ، وصل على سيدنا محمد بعدد من لم يصل عليه من خلقك ، وصل على سيدنا محمد كما ينبغي لنا أن نصلي عليه ، وصل على سيدنا محمد كما أمرتنا أن نصلي عليه ، وصل على سيدنا محمد صلاة زكية تبلغه الدرجة والوسيلة ، وصل على سيدنا محمد كلما ذكره أحد من خلقك وحيث ما ذكر ، اللهم سلم على سيدنا محمد سلامك الذي سلمته عليه ، اللهم صل على ملائكتك المقربين وعلى أنبيائك المرسلين وعلى عبادك الصالحين من أهل السموات والأرضين ، اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ، اللهم نسألك يارب يارحمن يارحيم ياملك ياخالق ياباريء يا مصور يا شكور ياودود يا علي يا عظيم يا عليم يا كريم يا لطيف يا خبير يا سميع يا بصير يا كبير يا متعال يا مولاي يا نصير يا بري يا وتر يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن يا وافي يا قابض يا باسط يا قائم يا دائم يا واسع يا شاكر يا صادق يا خافض يا قاهر يا غافر يا واحد يا أحد يا فرد يا صمد يا غني يا علي يا ولي يا قوي يا جواد يا قريب يا مجيب يا حسيب يا مغيث يا محيي يا مميت يا مبدئ يا معيد يا حميد يا مجيد يا حي يا قيوم يا وهاب يا تواب يا فتاح يا فعال يا كافي يا هادي يا وافي يا باقي يا حفيظ يا محيط يا شديد يا شهيد يا بديع يا رفيع يا باعث يا وارث يا وكيل يا جليل يا الله . اللهم اعف عنا واغفر لنا وارحمنا وعافنا واهدنا واسترنا واجبرنا وانصرنا وارزقنا خير الدنيا والآخرة ، واصرف عنا شر ما في الدنيا وشر ما في الآخرة ، اللهم خذنا من أنفسنا إليك ، واحي قلوبنا بذكرك ، وارزقنا الثبات على

طاعتك بين يديك ، وافتح لنا طريقنا إليك . بسم الله على ديني ، بسم الله على نفسي ، بسم الله على أهلي ومالي وأولادي وعلى كل شيء أعطاني ربي ، بسم الله خير الأسماء ، بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ، بسم الله استفتحت وعلى الله توكلت ، الله ربي ولا أشرك به شيئاً ، اللهم إني أسألك لي وهم بخيرك من خيرك الذي لا يعطيه غيرك . ولا يملكه سواك . أنت ربي عز جاهك وحل ثناؤك وتقدست أسماؤك ولا إله غيرك ، اللهم اجعلني وإياهم في عيادك من شر كل ذي شر ، ومن شر الشيطان الرجيم ، اللهم نسألك حرائهم واجارتهم إن ربي على صراط مستقيم بين يدي وأيديهم ، وعن يميني وإيمانهم ، وعن شمالي وعن شمائهم ، ومن فوقهم ومن فوقهم ، ومن تحتي ومن تحتهم ، ومن خلفي ومن خلفهم ، قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد . »

## الشيخ

للشيخ شروط، منها سلامة صدره من عيوب الناس، وكرمه لكل طالب وراغب، وصفاء سيرته نحو من أساء إليه، وعدم إغفاله خطايا مرديه، ملما بعلم الفقه والتوحيد، ومزودا بعلم الباطن، معرضا عن الهوى، زاهدا في دنياه، مقبلا على آخرته، ذا بصيرة، غير مغرور. وهو المسعف للمريد الذي ينقله إلى عناية الله عز وجل .

ولأبأس هنا أن نذكر قصة النفر من الصحابة رضوان الله عليهم، الذين قدموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث سألوا أزواجه عن عبادته وقيامه وصيامه، فذكرن لهم عبادته عليه السلام، فقالوا لسنا كرسول الله، فإنه أخذ غفران ربه ثم قال أحدهم: أما أنا فأصوم الدهر كله، وقال الآخر: أما أنا فأقوم الليل كله، وقال الآخر: أما أنا فلا أقارب النساء. ثم ذهبوا. وجاء النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته عائشة رضي الله عنها بما رأت منهم وما قالوا، فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال لهم «أما أنا فأخشاكم الله وأتقاكم له وأعلمكم به وإني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وأقارب النساء، ومن رغب عن سنتي فليس مني» وأنزل الله تعالى «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا. إن الله لا يحب المعتدين» إن الشيخ - إلى جانب ماتقدم - هو من يكون على بينة بحال المريد. فليأخذه بالتدرج من مقام التوسط إلى ما هو أعلى، أو بعبارة أصح، يأخذه مثل ما تأخذ الأم طفلها في حجرها. وعلى المريد أن يطيع شيخه كطاعة موسى للخضر، وعلى الشيخ أن يحفظ أسرار المريد من مكاشفات. فسر المريد لا يتجاوز ربه وشيخه.

والشيخ من مبدئه تحبيب الله إلى عباده، اتباعا لقوله صلى الله عليه وسلم «والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمن لكم، إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يجيبون الله إلى عباده، ويجيبون عباد الله ويمشون على الأرض بالنصيحة» فهذا الحديث الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رتبة المشيخة، والشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن صح اقتداؤه أحبه تعالى بدليل قوله عز وجل «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» فالشيخ حين يسلك بالمريد طريق الله فهو يسير به نحو التزكية وانجلاء مرآة القلب، فتنعكس فيه أنوار العظمة الإلهية وينجلي فيه جمال التوحيد وفلاح الظفر بمعرفة الله عز وجل، كما تنكشف للبصيرة حقيقة الدارين ومن هنا تظهر مزايا المشيخة والتربية، فيتضح جليا أن الشيخ من جنود الله يهدي به الراغبين.

ونقلا عن كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي في الجزء الخامس صفحة 75 يقول : « كان شيخنا شيخ الإسلام أبو النجيب السهروردي رحمه الله يقول : ولدي من سلك طريقي واهتدى بهدائي : فالشيخ الذي يكتسب بطريقة الأحوال قد يكون مأخوذاً في طريق ابتدائه ، وقد يكون مأخوذاً في طريق المحبين ، وذلك لأن أمر الصالحين والسالكين ينقسم إلى أربعة أقسام : سالك مجرد ! ومجذوب مجرد ! وسالك متدارك بالجدبة ، ومجذوب متدارك بالسلوك . فالسالك المجرد لا يؤهل للمشيخة ولا يبلغها لبقاء صفات نفسه عليه ، فيقف عند حظه من رحمة الله تعالى في مقام المعاملة والرياضة ، ولا يرتقي إلى حال يروح بها عن وهج المكابدة . والمجذوب المجرد من غير سلوك يبادئه الحق بآيات اليقين ويرفع عن قلبه شيئاً من الحجاب ولا يؤخذ في طريق المعاملة ؛ إلى أن يقول : وهذا أيضاً لا يؤهل للمشيخة ويقف عند حظه من الله مروحاً بحاله ، غير مأخوذ في طريق أعماله ماعداً الفريضة . والسالك الذي تدورك بالجدبة هو الذي كانت بدايته بالمجاهدة والمكابدة والمعاملة بالإخلاص والوفاء بالشروط . ثم أخرج من وهج المكابدة إلى روح الحال ، فوجد العسل بعد العلقم ، وتروح بنسبات الفضل ، وبرز من مضيق المكابدة إلى متسع المساهلة ، وأونس بنفحات القرب ، وفتح له باب من المشاهدة فوجد دواءه وفاض وعاءه وصدرت منه كلمات الحكمة ومالت إليه القلوب ، وتوالت عليه فتوح الغيب وصار ظاهره مسدوداً وباطنه مشاهداً ، وصلح للخلوّة وصار له في جلوته خلوة ، فيغلب ولا يغلب ، ويفترس ولا يفترس . يؤهل هذا للمشيخة ، لأنه أخذ في طريق المحبين ، ومنح حالاً من أحوال المقربين ، بعدما دخل من طريق أعمال الأبرار الصالحين ، ويكون له أتباع ينتقل منه إليهم علوم ، ويظهر بطريقة بركة ، ولكن قد يكون محبوساً في حاله ، محكماً حاله فيه ، لا يطلق من وثاق الحال ، ولا يبلغ كمال النوال ، يقف عند حظه وهو حظ وافر سني ، والذين أوتوا العلم درجات . ولكن المقام الأكمل في المشيخة القسم الرابع ، وهو المجذوب المتدارك بالسلوك ، يبادئه الحق بالكشوف وأنوار اليقين ، ويرفع عن قلبه الحجب ، ويستنير بأنوار المشاهدة ، وينشرح وينفسخ قلبه ويتجافى عن دار الغروب ، وينيب إلى دار الخلود ، ويرتوي من بحر الحال ، ويتلخص من الأغلال والأعلال ، ويقول معلناً ، لا أعبد رباً لم أره ، ثم يفيض من باطنه على ظاهره ، وتجري عليه صورة المجاهدة والمعاملة من غير مكابدة وعناء ، بل بلذاذة وهناء ، ويصير قلبه بصفة قلبه ، لامتلاء قلبه ربه ، ويلين جلده كما لأن قلبه ، وعلامة لين جلده إجابة قلبه للعمل كإجابة قلبه ، فيزيده الله تعالى إرادة خاصة ، ويرزقه محبة من محبة المحبوبين المرادين ، ينقطع فيواصل ، ويعرض عنه فيراسل ، يذهب عنه جمود النفس ، ويصطلي بحرارة الروح ، وتنكمش عن قلبه عروق النفس . قال الله تعالى « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً متاناً ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » أخبر أن الجلود تلين كما أن القلوب تلين ، ولا يكون هذا إلا حال المحبوب المراد ، وقد ورد في الخبر أن إبليس سأل السبيل إلى القلب ، فقيل له : يحرم عليك ، ولكن السبيل لك في مجاري العروق المشبكة بالنفس إلى حد القلب ، فإذا دخلت العروق عرقت فيها من ضيق مجالها ، وامتزج عرقك بهاء الرحمة المترشح من جانب القلب في مجرى واحد ، ويصل بذلك سلطانك إلى القلب ، ومن جعلته نبياً أو ولياً قلعت تلك العروق من باطن قلبه ، فيصير القلب

سليما، فإذا دخلت العروق لم تصل إلى المشتبكة بالقلب، فلا يصل إلى القلب سلطانك. فالمحجوب المراد الذي أهل للمشيخة سلم قلبه وانشرح صدره ولان جلده، فصار قلبه بطبع الروح، ونفسه بطبع القلب، ولانت النفس بعد أن كانت أمانة بالسوء مستعصية، ولان الجلد للين النفس ورد إلى صورة الأعمال بعد وجدان الحال. ولا يزال روحه ينجذب إلى حضرة إلهية فيستتبع الروح القلب ويستتبع القلب النفس ويستتبع النفس القالب، فامتزجت الأعمال القلبية والقالية، وانخرق الظاهر إلى الباطن، والباطن إلى الظاهر، والقدرة إلى الحكمة والحكمة إلى القدرة، والدنيا إلى الآخرة والآخرة إلى الدنيا، ويصح له أن يقول: لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا، فعند ذلك يطلق من وثاق الحال ويكون مسيطرا على الحال، لا الحال مسيطرا عليه، ويصير حراما من كل وجه. والشيخ الأول الذي أخذ طريق المحبين حر من رق النفس، ولكن ربما كان باقيا في رق القلب، وهذا الشيخ في طريق المحبين حر من رق القلب كما هو حر من رق النفس، وذلك أن النفس حجاب ظلماني أرضي أعتق منه الأول، والقلب، حجاب نوراني سماوي أعتق منه الآخر، فصار لربه لا لقلبه ولمواقفه لا لوقته. فعبد الله حقا وآمن به صدقا ويسجد لله سواده وخياله، ويؤمن به فؤاده ويقربه بلسانه، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض سجوده، ولا يتخلف عن العبودية منه شعرة، وتصير عبادته مشاكلة لعبادة الملائكة «ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا أو كرها وظلالهم بالغدو والآصال»، فالقوالب هي ظلال الساجدة و ظلال الأرواح المقربة في عالم الشهادة. فالأصل كثيف والظل لطيف، وفي عالم الغيب: الأصل لطيف والظل كثيف، فيسجد لطيف العبد وكثيفه، وليس هذا لمن أخذ في طريق المحبين لأنه يستتبع صور الأعمال ويمتليء بما أنيل من وجدان الحال، وذلك قصور في العلم وقلة في الحظ، ولو كثر العلم رأى ارتباط الأعمال بالأحوال كارتباط الروح بالجسد، رأى أن لا غنى عن الأعمال كما لا غنى في عالم الشهادة من القوالب، فما دامت القوالب باقية فالعمل باق، ومن صح في المقام الذي وصفناه هو الشيخ المطلق والعارف المحقق، والمحجوب المعتق، نظره دواء وكلامه شفاء بالله ينطق والله يسكت. كما ورد في الحديث «ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا ومؤيدا، بي ينطق وبي يبصر» الحديث، فالشيخ يعطي بالله ويمنع بالله، فلا رغبة له في عطاء ومنع لعينه، بل هو مراد الحق، والحق يعرف مراده، فيكون في الأشياء بمراد الله تعالى لا بمراد نفسه، فإن علم أن الله تعالى يريد منه الدخول في صورة محمودة دخل فيها لمراد الله تعالى لا لكون الصورة محمودة، بخلاف الخادم القائم بواجب خدمة عبادة الله تعالى.



## أدب المرید

المرید مشتق من الإرادة، وهي لوعة في القلب يطلقونها ويريدون بها إرادة المتمني، وهي منه، وإرادة الطبع، ومتعلقها الحظ النفساني، وإرادة الحق، ومتعلقها الإخلاص. وهذه هي التي اشتق للمريد منها اسمه عندهم، لأنه المجرّد عن إرادته لما أراد الله منه وهو العبادة، قال تعالى «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون». ويطلق عندهم على شخصين، واحد من سلك الطريق بمكابدة ومشاق، ولم تصرفه تلك المشاق عن طريقة، والآخر من تنفذ إرادته في الأشياء، وهذا هو المتحقق بالإرادة. هذا تعريف الشيخ العلامة ماء العينين بن الشيخ سيدي محمد فاضل صاحب كتاب «البدایات وتوصيف النهايات»

إن أول ما يجب على المرید بعد انتباهه من غفلته أن يعمد إلى شيخ ينصحه ومرشد يهذبه ويبصره بعيوب نفسه ودواعي حسه، ومن لم يكن له شيخ يقوده إلى طريق الهدى، فإن الشيطان يقوده لا محالة إلى الردى.

والمبتدئ ربما يكون غير مستقر على حال في الاختيار، وفي هذه الحال لا يستغني عن الشيخ الذي يجعله في البدء غير مستقل بالاختيار حسب الشروط المتعلقة بالعبادة وطبق تعاليم الشيخ التي أخذها بالسند المتصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو الداعي إلى الله عز وجل. وما الشيخ إلا نائب عنه. ولو فرضنا أن للمرید اختيار نحو الولاية، فإنه ليس في وسعه الثبات، إذ اختياره لطريق يعرضه لهزات فيجعل بعد وقت يعدل عن الأولى نحو الثانية، والثانية نحو الثالثة، فيزين له الشيطان هذه عن تلك، فيبقى في دوامة النفس وحبل الشيطان، حتى تسكن حرارته ويتقهقر نحو الولاء. بينما لو كان تحت كنف الشيخ حفظ أحواله بقوة ولايته المشتقة من نور النبي صلى الله عليه وسلم، فحينذاك لم يبق سلطان النفس وكيد الشيطان.

والمرید ينبغي له أن يسلم نفسه لخدمة شيخه، صدوقاً في صحبته، غير مفارق له، صبوراً على أمره ونهيه، مجالساً له وقت الملالة والكلالة، بل في كل وقت وحين حتى لو فتحت له غوامض الأسرار والكرامات، فلربما قد يحصل له إعجاب بذلك وغرور باعتقاد الكمال، فيتصدى له الشيخ بانتشاله وإنقاذه من بعض التألّبات الروحانية التي تلتبس بالتجليات الروحانية، فيظن المرید أنه قد وصل القصد، وفي هذا الحال لا يميز ذلك إلا الشيخ الواصل.

لذلك يجب على المرید أن يعتصم بشيخه ويتمسك به تمسك الأعمى . بحيث يفوض أمره إليه مقتديا بالحديث الشريف «أصحابي كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم» فلا ينازعه في أمر ، يصحبه باحترام وتعظيم ، يبين له كل ما يراه من حال وخواطر ، غير معترض ، جاعلا نصب عينيه أن الخير في الانقياد ، وأن الشر في الانتقاد ، والمرید بطاعته هاته يقتبس من الشيخ كما يقتبس السراج من السراج ، فالشيخ يقوم بتلقيح باطن المرید ، فينتقل الحال منه إليه ، ويحصل بينهما امتزاج وتأليف إلى أن يرتقي إلى ترك الاختيار معه إلى الاختيار مع كله . ومن هلاك المرید اختباره لشيخه ، فالشيخ لا يختبر ، وإنما يعالج الأمراض النفسية ويجد لها الدواء المناسب ، فعلى المرید أن لا يفارقه قبل انقطاعه وإلا نال العلل الموجبة لرجوعه إلى أكنار الدنيا ، إن تصاريف الشيخ للمرید محمولة على السداد والصلاح ، فلا نقاش ولا اعتراض ، مثل ذلك مثل الخضر مع موسى عليهما السلام ، ولعل المرید يصل إلى مقام أعلى من شيخه فإن ذلك يلزمه المهابة والتعظيم والاحترام الزائد والفائق نحوه ، وأن يحترمه في أوقات ضرورياته ، ولا يتبعه في أموره العادية من أكل ونوم وسفر ، وأن لا يؤاخذ في صور مذمومة في الظاهر محمودة في الباطن ، وأن يكتف ما أسر به إليه من أسرار إلهية ، ولا يتشوف إلى منزلة فوق منزلته ، قال صلى الله عليه وسلم «أمي أمة مباركة ، لا يدرى أولها خير أو آخرها .»

## الإشارة إلى المقامات

يقول الإمام الغزالي في الجزء الخامس من كتابه «إحياء علوم الدين»: التوبة أصل كل مقام، وقوام كل مقام، ومفتاح كل حال، وهي أول المقامات، وهي بمثابة الأرض للبناء، فمن لا أرض له لا أبناء له، ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له، وإني بمبلغ علمي وقدر وسعي وجهدي اعتبرت المقامات والأحوال وثمرتها، فرأيتها بجمعها ثلاثة أشياء بعد صحة الإيثار وعقوده وشروطه، فصار مع الإيثار أربعة، ثم رأيتها في إفادة الولاية المعنوية الحقيقية بمثابة الطبائع الأربع التي جعلها الله بإجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية، ومن تحقق بحقائق هذه الأربع بلج ملكوت السموات ويكشف بالقدر والآيات، ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى المنزلات، ويحظى بجميع الأحوال والمقامات، فكلها من هذه الأربع ظهرت، وبها نهايات وتأكيدات، فأحد الثلاث بعد الإيثار: التوبة النصوح، والثاني: الزهد في الدنيا، والثالث: تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله ظاهرا وباطنا من الأعمال القلبية والقلبية من غير فتور وقصور، ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تمامها وقوامها، وهي: قلة الكلام، وقلة الطعام، وقلة المنام، والاعتزال عن الناس. واتفق العلماء الزاهدون والمشايخ على هذه الأربع بها تستقر المقامات وتستقيم الأحوال، وبها صار الأبدال بتأييد الله تعالى وحسن توفيقه. ونبين بالبيان الواضح أن السائر يندرج في صحة هذه، ومن ظفر بها فقد ظفر بالمقامات كلها، أولها بعد الإيثار: التوبة، وهي في مبدئ صحتها تفتقر إلى أحوال، وإذا صحت تشتمل على مقامات وأحوال، ولا بد في ابتدائها من وجود الزاجر حال، لأنه موهبة من الله تعالى على ما تقرر أن الأحوال مواهب، وحال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤها».

يقول الجنيد: من حسنت رعايته دامت ولايته، وما الخواطر إلا مقدمات العزائم، والعزائم مقدمات الأعمال، فبالخواطر تتحقق إرادة القلب، والقلب أمير الجوارح لا تترك إلا به.

قال أبو عثمان المغربي: «أفضل ما يلزم الإنسان في هذا الطريق المحاسبة والمراقبة وسياسة العمل بالعلم، وإذا صحت التوبة صحت الإنابة» والمنيب هو الراجع عن كل شيء يشغله عن الله إلى الله، والذي لا يزن نفسه بميزان الصدق فيما له وعليه لا يبلغ مبلغ الرجال، ورؤية عيوب الأفعال من ضرورة صحة الإنابة، وذلك في تحقيق مقام التوبة، والتوبة لا تستقيم إلا بالمجاهدة، والمجاهدة لا تستقيم إلا بالصبر. قال صلى الله عليه وسلم «المجاهد من جاهد نفسه» أما الصبر فهو من أعز

مقامات الموقنين ، وهو داخل في حقيقة التوبة ، ذكره الله في القرآن أزيد من تسعين موضعا ، وصحة التوبة تحتوي على مقام الصبر. أما حال الزهد فهو ثالث الأربعة من مقام التوبة ، والنفس بحال هذه الأحوال تصل إلى الطمأنينة ، فتبلغ طمأنينتها حال الرضا ، وبوصولها حال الرضا تكون قد وصلت إلى طمأنينة مجاري الأقدار. قال صلى الله عليه وسلم «من خير ما أعطى الرجل ، الرضا بما قسم الله تعالى له». فالرضا هو ثمرة التوبة النصوح : ثم أن الخوف والرجاء مقامان من مقامات أهل اليقين ، وهما من صلب التوبة النصوح ، فالخوف سبيل التوبة ، والرجاء سبيل الخوف ، وهما ملازمان لقلب المؤمن التائب ، وهما يدفعان إلى الشكر. فإذا وصل مقام التوبة لما أسلفناه ، فإنه يكون قد جمع حال الزجر ، وحال الانتباه والתיقظ ومخالفة النفس والتقوى والمجاهدة ورؤية عيوب الأفعال والإنابة والصبر والرضا والمحاسبة والمراقبة والرعاية والشكر والخوف والرجاء ؛ فتتجلي مرآة القلب وتتكشف مساويء الدنيا ، فيحصل الزهد ، وفي الزهد يتحقق التوكل ، وهذا يستدرج التائب نحو تحقيق المقامات كلها. قال تعالى «إنا جعلنا على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا». قيل الزهد في الدنيا. وعن عبد الله بن بريدة قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر ، فبدأ بفاطمة رضي الله عنها ، فرآها قد أحدثت في القيت سترًا وزوائد في يديها ، فلما رأى ذلك رجع ولم يدخل ، ثم جلس فجعل ينكت في الأرض ويقول : « مالي والدنيا ، مالي في الدنيا » فرأت فاطمة أنه إنما رجع من أجل ذلك الستر والزوائد ، وأرسلت بهما مع بلال وقالت له : إذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقل له : قد تصدقت به ، فضعه حيث شئت ، فأتى بلال إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : قالت فاطمة قد تصدقت به فضعه حيث شئت . فقال النبي صلى الله عليه وسلم «بأبي وأمي قد فعلت ، بأبي وأمي قد فعلت ! اذهب فبعه».

والتائب يرتقي إلى المراقبة فيستقيم في توبته حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئا ، بعدها يرتقي من تطهير الجوارح عن المعاصي إلى تطهير الجوارح عما لا يعني . بحيث لا يسمح بكلمة فضول أو حركتها ، منها ينتقل إلى الرعاية والمحاسبة من الظاهر إلى الباطن ، فتستولي المراقبة على الباطن ، فتحمي خواطر المعصية عن باطنه ، حتى إذا ما تمكن من رعاية الخطرات عصم عن مخالفة الأركان والجوارح . قال تعالى مخاطبا رسوله «فاستقم كما أمرت ومن تاب معك» . فكان الأمر بالاستقامة له ولمن اتبعه .

والتائب في النادر إذا ابتلى بذنب انمحي أثره من باطنه حين لوحد الندم في باطنه .

قال يحيى بن معاذ الرازي : مادام العبد يتعرف ، يقال له لا تختر ، ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف ، فإذا عرف وصار عارفا يقال له إن شئت اختر وإن شئت لا تختر ، لأنك إن اخترت فباختيارنا اخترت ، وإن تركت الاختيار فباختيارنا تركت الاختيار ، فإنك بنا في الاختيار وفي ترك الاختيار . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تكني إلى نفسي طرفة عين فأهلك ، ولا إلى أحد من خلقك فأضيع ، اكلائي كلاءة الوليد ، ولا تخل عني» .

## الأحوال والمقامات

قال الجنيد «الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم» وقيل ، هو ما يجلب بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار.

وهو من طريق المجاهدات والعبادات والرياضيات كالمقامات .

أما المقام فهو كما قال الطوسي «مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما يقال فيه من العبادات والمجاهدات والرياضيات والانقطاع إلى الله عز وجل» . قال تعالى : «ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد» وقال عز وجل «وما منا إلا له مقام معلوم» قال الواسطي في قوله صلى الله عليه وسلم «الأرواح جنود مجندة . . . الحديث . . .» مجندة على قدر المقامات ، والمقامات مثل التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والرضا والتوكل . . إلى غير ذلك .

إن أول مقام لدى المنقطعين إلى الله عز وجل مقام التوبة ، وفيها يقول الطوسي في كتابه «اللمع في التصوف» يقول ذو النون رحمه الله عن التوبة «توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة ، فإن لسان أهل المعرفة والواجدين وخصوص الخصوص في معنى التوبة فهو ما قاله أبو الحسن النوري رحمه الله حين سُئل عن التوبة . فقال : التوبة أن تتوب من كل شيء سوى الله عز وجل . وإلى هذا أشار إلى الذي أشار بقوله ذنوب المقربين حسنات الأبرار - وهو ذو النون ، والذي قال أيضا ، رياء العارفين إخلاص المريدين ، لأن الذي كان يتقرب به العارف إلى الله عز وجل في وقت قصده وابتدائه وتعرضه من القربات والطاعات ، فلما تمكن وتحقق بذلك وشملته أنوار الهداية وأتته العناية وحوته الرعاية وشاهد ما شاهده بقلبه من عظمة سيده والتفكر في صنع صانع صانعه وقديم إحسانه ، تاب عن الملاحظة والسكون والالتفات إلى ما كان من طاعته وأعماله وقربائه في حين إرادته وبدائياته ، فشتان بين تائب وتائب وتائب ، فتائب يتوب من الذنوب والسيئات ، وتائب يتوب من الزلل والغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات والطاعات . والتوبة تقتضي الورع .

أما الورع فهو مقام شريف كما قال صلى الله عليه وسلم «ملاك دينكم الورع» وهو ثلاث طبقات : تورع عن الشبهات ، وهي ما بين الحرام واللال البين . وتورع عما يقف عنه القلب ويحيك في الصدر ، وهذا يعرفه أرباب القلوب والمتحققون . وورع العارفين الواصلين . وهو عدم تشتت القلب عن الله عز وجل طرفه عين . والورع بطبيعة الحال يقتضي الزهد .

والزهد مقام شريف يعتبر أساس الأحوال والمراتب ، وهو أول خطوة لزمرة القاصدين إلى الله والراضين المتوكلين .

إن الزهد هو رأس الخير والطاعة ، وهو في الحلال أبلغ وأنفع ، أما في الحرام وكل شبهة فتركه واجب .

والزهاد ثلاث طبقات ، مبتدئون ، وهم من خلت قلوبهم مما خلت منه أيديهم .

ومتحققون ، وهم من يتركون حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا ، لما في ذلك من راحة ومحمدة .  
وعارفون ، وهم مشتغلون بالله لا يلتفتون للدنيا مطلقا .

والزهد يقتضي عناق الفقر .

ومقام الفقر الصادق هو كما سئل عنه أبو عبد الله بن الجلاء عن حقيقته فقال : هو أن لا يكون لك ، فإذا كان لك لا يكون لك ، ومن حيث لم يكن لك لم يكن لك ومقام الفقر مقام الصديقين ، وهو يقتضي الصبر .

والصبر مقام شريف ، ذكره الله عز وجل في كتابه «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب»  
والصبر ثلاثة . متصبر وصابر وصبار .

فالمتصبر من صبر في الله مرة على المكاره ومرة يعجز .

والصابر من صبر في الله ولله ، لا يجزع ولا يتمكن منه الجزع ويتوقع منه الشكوى .

والصابر من صبره في الله ولله وبالله ، لو وقعت عليه جميع البلايا لم تعجزه ولا غيرت أو نالت من حاله . والصبر يقتضي التوكل .

ومقام التوكل مقرون بالإيمان بدليل قوله عز وجل «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، وقوله تعالى «وعلى الله فليتوكل المؤمنون» .

والتوكلون طبقات ثلاث : توكل المؤمنين ، وهو كما قال أبو تراب النخشي حين سئل عن التوكل فقال : طرح البدن في العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والاطمئنانية إلى الكفاية ، فإن أعطي شكر ، وإن منع صبر ، راضيا موافقا للقدر .

وتوكل أهل الخصوص ، وهو كما قال أبو يعقوب النهر جوري : التوكل موت النفس عند ذهاب حظوظها من أسباب الدنيا والآخرة .

أما توكل أهل خصوص الخصوص ، فهو كما قال الشبلي : أن تكون لله كما لم تكن ويكون الله تعالى لك كما لم يزل . والتوكل يقتضي الرضا .

ومقام الرضا يصدق عليه قوله الله عز وجل «رضي الله عنهم ورضوا عنه» فيه يسكن قلب العبد تحت حكم الله . وأهل الرضا في الرضا ثلاثة أحوال . من يعمل في إسقاط الخوف متى يكون قلبه مستويا لله فيما يجري عليه من حكم الله من شدائد ومكاهه وراحات ومنع وعطاء .

من يذهب عن رؤية رضاه عن الله برؤية رضا الله عنه رغم استواء الشدة والمنع والرخاء والعطاء .

من يجاوز هذا ويذهب عن رؤية رضا الله عنه ورضاه عن الله لما سبق من الله لخلقه من الرضا .  
والرضا آخر المقامات ، وهو باب الله الأعظم وجنة الدنيا .  
وقد نعود إلى أحوال أهل القلوب وتهذيب أسرارهم وصفاء أذكارهم ، ذلك أن أول حال من هذه الأحوال هو حال المراقبة .

وهو ثلاثة : حال ابتداء المراقبة ، وحال مراقبة الحق في فناء ما دون الحق ، وحال النجباء الذين يراقبون الله ويسألونه أن يرعاهم ويتولى أمرهم ، كما قال عز وجل «وهو يتولى الصالحين» .  
والمراقبة تقتضي حال القرب ، قال تعالى « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب » والقرب ثلاثة أحوال . حال المقربين إليه عزوجل بأنواع الطاعات . وحال من تحقق بذلك ، وحال أهل النهايات ، والقرب يقتضي حال المحبة وحال الخوف .

والمحبة واضحة في قوله تعالى «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله» . وأهلها ثلاثة أحوال . حال محبة العامة ، وتتولد عن إحسان الله إليهم ، وشرطها الود مع دوام الذكر ، لأنه من أحب شيئاً أكثر من ذكره .

وحال حب الصادقين المتحققين ، وهي تتولد من نظر القلب إلى جلال وعظمة الله عزوجل وإلى علمه وقدرته . وشرطها هتك الأستار وكشف الأسرار . وحال حب الصديقين والعارفين ، وهي تتولد من نظرهم ومعرفتهم بتقديم حب الله بلا علة .

أما حال الخوف الذي قرن بالمحبة فإن حال القرب يقتضي أحد الحالين ، إما غلبة المحبة على قلبه من كشوفات ومشاهدات .

والخوف ثلاثة أوجه : خوف العامة ، وفيه قوله تعالى « يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار» .  
وخوف الأوساط . وفيه قوله تعالى «ولمن خاف مقام ربه جنتان» . وخوف الأجلة . وفيه قوله تعالى «فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين» ، وقد نجد الرجاء مقروناً بالخوف .

وحال الرجاء يصدق عليه قول الله عز وجل «لقد كان في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر» وقوله تعالى «فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً» . إن الرجاء ترويح من الله لأهل الخوف وإلا أصيبوا بذهول ، وهو ثلاثة أقسام : رجاء في الله ، ورجاء في سعة رحمته ، ورجاء في ثوابه عز وجل والرجاء والمحبة يقتضيان الشوق .

وحال الشوق كما قال بعضهم ، نار الله تعالى أشعلها في قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات والعوارض والحاجيات ، وهو ثلاثة أحوال . حال من اشتاق إلى وعد الله لأوليائه من ثواب وكرامة ورضوان ، وحال من اشتاق إلى محبوبه من شدة محبته إلى لقاءه . وحال من شاهد قرب سيده أنه حاضر معه لا يغيب . والشوق يقتضي الأانس .

وحال الأُنس اعتماد على السكون لله والاستعانة به ، وهو ثلاثة أحوال : أنس بالذكر والطاعة ، وأنس بالله عز وجل فيستوحش العبد مما سواه ؛ وذهاب عن رؤية الأُنس بوجود الهيبة والقرب والتعظيم مع الأُنس .

والأُنس يقتضي الطمأنينة .

وحال الطمأنينة سكون قلب العبد إلى مولاه . وفيها قوله تعالى «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب» فيها يرجح العقل فيقوى الإيمان ويصفو الذكر وتثبت الحقيقة ، وهي ثلاثة : ذكر العامة فيطمئنون إلى ذكرهم لله عز وجل من إجابة الدعوات . ذكر الخصوص ، وقد رضوا بقضاء الله وصبروا على البلياء وأخصوا وسكنوا واطمأنوا . وذكر خصوص الخصوص الذين أدركوا أن سرائرهم لا تقدر على طمأنينتها هيبة وتعظيماً لبارئها ، إذ ليس له غاية تدرك . والطمأنينة تقتضي المشاهدة .

وحال المشاهدة يتلاشى أمامه كل شيء ، ولم يبق في القلب إلا الله عز وجل ، وهي وصل بين رؤية القلب ورؤية العين . وهي ثلاثة أحوال : الأول منها للأصاغر وهم المريدون . والثاني للأواسط ، وهم الذين إذا وقعت مشاهدتهم فيما بين الله وبين العبد لا يبقى في سرهم غير الله . والثالث للعارفين الذين شاهدوا الحق ظاهراً وباطناً وأولاً وآخراً ، كما قال عز وجل «هو الأول والآخر والظاهر والباطن . وهو بكل شيء عليم» . والمشاهدة تقتضي حال اليقين . وحال اليقين هو المكاشفة ، وهو حال رفيع ، ينقسم إلى ثلاثة أحوال :

حال الأصاغر وهم المريدون والعموم ، وحال الخصوص وهو المشاهد مع الترحل من يقين إلى يقين حتى يصير اليقين وطناً . وحال الأكابر ، وهم خصوص الخصوص وعندهم اليقين في جملته تحقيق الإثبات لله عز وجل بكل صفاته ، وقطع كل سبب بينهم وبين الله تعالى من العرش إلى الثرى حتى يكون مرادهم الله لا غير .

واليقين أصل جميع الأحوال وإليه تنتهي ، والأحوال جميعها ظاهره وهو باطنها ، نهايته التصديق بالغيب ، وحلاوة المناجاة وصفاء النظر إلى الله عز وجل . قال تعالى : «وفي الأرض آيات للموقنين» .



## مقام الحيرة

الحيرة مقام مر منه تقريبا جميع العارفين، بل مر منه حتى بعض الأنبياء ومن اصطفاهم الله إليه، وهو طريق العبور نحو الاطمئنان والوصول إلى معرفة الله ومحبته الرسخة عن طريق المكابدة والتخبط. قال تعالى: «وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهني ربي لأكونن من القوم الظالمين، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون» هذا مقام الحيرة عند سيدنا إبراهيم عليه السلام، ومحمد صلى الله عليه وسلم فوجيء في غار حراء بجبريل عليه السلام، ففزع وخاف على نفسه فسارع إلى خديجة رضي الله عنها وأبلغها الخبر فأرسلت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ولما حضر طمأنه على حاله وأخبره أن ذلك سبيل الأنبياء، حيث يفاجئون بالحقيقة فلا يدرون في البداية هل هم في حقيقة أم في منام أو أوهام، بعدها تتبين لهم شمس الحقيقة وتكشف لهم الأستار.

ثم نأخذ الإمام الغزالي كمثال آخر عن مقام الحيرة إذ نورد قوله من كتابه المنقذ من الضلال «في مدخل السفسطة - أي المغالطة - حيث يقول: «ثم فتشت عن علمي فوجدت نفسي عاطلا من علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات. فقلت: الآن بعد حصول اليأس لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات، وهي الحسيات والضروريات، وأنظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها؟ فانتهي بي طول التشكك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الأمان في المحسوسات أيضا، وأخذ يتسع هذا الشك فيها ويقول: من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفا غير متحرك، دفعة بغتة، بل على التدريج ذرة ذرة، حتى لم تكن له حالة وقوف. وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيرا في مقدار الدينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار، وهذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه، ويكذبه حاكم العقل وخونه تكذيبا لا سبيل إلى مدافعتة فقلت: قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا، فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة، والنفي والإثبات لا يجتمعان في شيء والواحد لا يكون حادثا قديما: موجودا معدوما، واجبا محالا. فقلت المحسوسات بما تأمن أن تكون ثققتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات، وقد كنت واثقا بي، فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي؟ فلعل وراء إدراك العقل حاكما آخر إذا تجلى كذب العقل في

حكمه، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه، وعدم تجلي ذلك الإدراك. لا يدل على استحالته، فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلا وأيدت إشكالاتها بالمنام وقالت: أما تراك تعقد في النوم أمورا وتتخيل أحوالا وتعتقد لها ثباتا واستقرارا ولا تشك في تلك الحالة فيها، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل؟ تأمن أن يكون جميع ما تعتدي في يقظتك بحس أو غفل هو حق، بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك، وتكون يقظتك نوما بالإضافة إليها!

فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها، ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم، إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي لهم إذا غاصوا في أنفسهم وغابوا عن حواسهم، أحوالا لا توافق هذه المعقولات، ولعل تلك الحالة هي الموت، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة فإذا ماتت ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن، ويقال له عند ذلك «فكشفتنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» فلما خطرت لي هذه الخواطر وانقدحت في النفس، حاولت لذلك علاجاً، فلم يتيسر إذ لم يكن دفعه إلا بدليل، ولم يكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية، فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل، فإعضل هذا الدواء ودام قريبا من شهرين أنافيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة، ولما سئل رسول الله عليه السلام عن «الشرح» ومعناه في قوله تعالى «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام» فقال: «هو نور يقذفه الله تعالى في القلب» فقيل: «وما علامته؟» فقال: «التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود» وهو الذي قال عليه السلام: «إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره» فمن ذلك النور ينبغي أن يطلب الكشف، وذلك النور ينجس من الجود الإلهي في بعض الأحيان، ويجب التردد له كما قال عليه السلام «إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها».

## مقام السالكين

السالكون للمقامات ثلاثة :

من وصلوا إليها عن طريق الحس والخيال ولم يجاوزوها

من وصلوا إليها عن طريق الحس والعقل .

من ووصلوا إليها عن طريق العقل ، فيتجاوزون ما قبله . والقسم الأول موضوع محبتهم عالم الأجسام وحسن صورها وأشكالها ، ولا تجاوز محبتهم علم الخيال الباطن ، إذ يعقل أربابها عوارض الجسم دون المعاني التي هي أرواح الأجسام ، فيخيل لهم الوهم أن عين الجمال المطلوب هو حسن الهيئة ، فتجد ذلك أسرع زوالا وأقل غنى في الآخرة ، وذلك ما يجري عليه قوله عز وجل «الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ» وما أشبه ذلك بهذه الحكاية ؛ ذلك أن بعض العارفين رأى رجلا يبكي على قبر ، فسأله عن بكائه ، فأجاب : إن صاحب هذا القبر كان لي محبوبا ، فلما مات لم أستطع عنه صبرا ، فقال له العارف : يا هذا ، أنت ظلمت نفسك حين أحببت من يموت ، لو أنك أحببت من لا يموت لم تتعذب بفراقه . والقسم الثاني ممن وصلوا عن طريق الحس والعقل ، هم الأكثر من خواص السالكين ، وهم مجردون الصورة الجسمية من عوارضها وينقلونها إلى روح معانيها للنفس فتلتذ بها لما حصل فيها من هذه الصورة الروحانية ، بعدها تطلب كمال المعنى الذي أدركته من محبوبها من الخارج عن طريق البصر ، وهذه المحبة وسط بين الطرفين ، فهي شريفة من حيث حصول حقائقها في النفس ، غير أنها ناقصة من حيث أنها متعلقة بشخص معين مقصورة عليه تزيد لذتها بحضوره وتنقص بغيابه ، وقد تترقى هذه المحبة إلى ما هو أعلى من أمده الله بتوفيقه ، بحيث يدرك بأن صورة المحبوب الحقيقية ما هي إلا الصورة التي حصلت عنده منه ، بحكم أن رسوم الجسم أمور عارضة عرضت لتلك الصورة ، وأنه لو فارقتها الصورة لما كانت شيئا . فإن تصور هذا تعلق بالمعنى الذي استغنى به عن الأمور العرضية إلى أن تنطبع هذه الصورة المجردة في نفسه وتمتزج بها مزجا عشقيا فتلطف النفس وتستنير ، وتقبل عليها الأنوار العلوية وتبصر الصور الروحانية في ذاتها ، فتتعلق بالأشرف نحو الأشرف إلى أن تبلغ ما قدره الله لها .

وأما القسم الثالث والأخير ، هم من وصلوا عن طريق العقل ، وهم الذين لاحظوا الجمال القدسي المتجلي لنفوسهم من العالم النوراني فانطبع انطباع صورة الشمس فتكيفت النفس بذلك النور

ونجوهرت به ، فأبصرت ذاتها النورية وما بها من آثار العالم النوراني ، فأحبتها من جهة أنها هي ذلك السور القدسي . وهذا مقام المقربين من عباد الله الصالحين العارفين ، وهذا المقام لا يصله إلا أرباب الرياضات القلبية المقرونة بالإعانة الربانية ، فإن حصلت لا يخشى زوالها ، وفي ذلك قوله تعالى «يجبهم ويحبونه» .

والصفات الواردة من المحبوب لا تنحصر، إذ هي تتعاقب على الساعات وتختلف باختلاف الحالات، إلا أنها على الجملة ثلاث : جمال وجلال وكمال .

فالانبساط والأنس يوجب الجمال، والفناء والمحو يوجب الجلال، والشوق والحب يوجب الكمال .

وللسالك شروط ، إذ أنه لا يزال يرتقي على الدوام ولا يقف مهما شاهد من محبوه ما شاهد وإلا حجب بها من الزيادة ، ولا يزال يتطور إلى مراتب الكمال طورا بعد طور، فهو كلما أدرك حالة جلييلة استعد عندها إلى حالة أكمل منها إلى أن تصل حالة الدهول والدهش ، عندما تذهل النفس عن عالم الحس وهو بدنها فتصير علوية ، همها الصعود والارتقاء والرفض لما سوى محبوبها ، وهذا مقام الحرية ، إذ يكون فيه العبد المحب هو الفقير مطلقا، والمحبوب هو الغني مطلقا .

وقل من السالكين أصحاب التمكين ، التمكن من دوام المشاهدة باستمرار إلا بعد فراق الأجسام ، إما بالموت الحسي . وهو الأكثر شيوعا . وكما في حال الحياة عند الانسلاخ عن قوى البدن والتجرد بالكلية - وهو نادر - ومثل هذا قد استوفت شروطه في الرسل ، مثل قوله تعالى في الرسول صلى الله عليه وسلم «ما كذب الفؤاد ما رأى» لأنه كان أتم مقاما وأكمل . وهو كما قيل عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يضرب بيده على فخذ عائشة ويقول «كلميني يا حميرا» لكي يستتر عنه بعض ما كوشف به من صفات الجلال الموجبة لطمس الذات ، فينزل إلى المحسوسات التي هي محل الرحمة إبقاء على الرسالة في حق أمته . وقيل عن الشبلي أنهم دخلوا عليه يوما فوجدوه ينتف لحمه بمنقاش ، فسئل عن ذلك فقال : الحقيقة ظاهرة لي ولست أطيعها ، فأنا أدخل الألم على نفسي لعلي أحس به فتستتر عني ، فلا أنا أجد الألم ولا هي تستتر عني .

إن أنوار التجلي تمحق رسوم الذوات مثل ما تمحق أنوار الشمس أبصار الخفافيش فإذا استترت تلك الأنوار عادت الذوات ، وإن ظهرت تلاشت .

وعلى أي حال ، فإن من قويت روحانيته بما يرد عليه من أنوار يضعف هيكله الجسمي لكون ما يكشف له من صورة روحانية هي أعظم ما يطيقه جسمه ، لذلك يوجد صاحب هذا المقام إما قصير العمر أو ضعيف البنية . وأما الذي لا تكون له رياضة قلبية فإنه يذهل عقله ويفر عن الناس كالمجنون إذ لم نهذه رياضته .

وهناك من رده الله عن هذا المقام إلى العالم الأسفل بحكم انتفاع الأمة به لما يدعوهم إلى طريق الله ويفيض عليهم من أنوار المعارف ما يكون لهم سلما ، كالأنبياء والعلماء ، فإن هؤلاء رزقوا من التمكين في الأحوال والقوة في المقامات ما يجعلهم يصعدون إلى أعلى المقامات ثم ينزلون إلى أسفل دون كلفة .

## مقام المعرفة

يقول أبو القاسم الجنيد في تعريف المعرفة ، المعرفة عندهم صفة من عرف الحق بأسمائه وصفاته ، ثم صدق الله في معاملاته ، ثم تنقى من أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم طال بالباب وقوفه ، ودام بالقلب اعتكافه ، فحظي من الله بجميل إقباله ، وصدق الله في جميع أحواله ، وقطع عنه هواجس نفسه ، ولم يصنع بقلبه إلى خاطر يدعو إلى غيره ، فإذا صار عن الخلق أجنيا ، ومن آفاق نفسه بريئا ، ومن المساكنات والملاحظات نقيا ، وداوم في السر مع الله مناجاته ، وحقق في كل لحظة إليه رجوعه ، وصار محدثا من قبل الحق بتعريف أسراره مما يحويه من تصاريف أقداره : تسمى عند ذلك عارفا ، وتسمى حالته معرفة .

ويقول ذو النون ، حقيقة المعرفة إطلاع الحق على الأسرار ، بمواصلة لطائف الأنوار .

وسئل الشبلي عن المعرفة فقال : أولها الله وآخرها ما لا نهاية له .

وقيل : المعرفة وراثثة النبوة ، والعارف أنموذج مختصر من النبي صلى الله عليه وسلم .

والمعرفة حياة القلب ، يحييه الله بها قال تعالى : «أفمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس» .

والمعرفة لها شروط وعلامات كما قال الشبلي : بذاتها حيرة ونهايتها دهشة ، كالطفل أوله طفولة ، ثم يرد إلى علم ، ثم يرد إلى جهل . وقال الدقاق : من أمارات المعرفة بالله حصول الهيبة من الله ، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته ، قال تعالى «إنها يخشى الله من عباده العلماء» .

سئل الحسن عن المعرفة بالله هل هي كسب أم ضرورة فقال : رأيت الأشياء تدرك بشيئين ، فما كان منها حاضرا فبحس ، أو غائبا فبدليل ، ولما كان الله غير باد لصفاتها وحواسنا ، كانت معرفته بالدليل والفحص والاستدلال ، إذ كنا لا نعلم الغائب إلا بدليل ، والحاضر إلا بحسن . وقال : إن شئت ترتيب المعرفة على المقامات ببيان أقرب ، فاعلم أن المعرفة المرتبة الأولى ، وهي مرتبة الإسلام . وهي معرفة أصل الجسوم ، ومعرفتهم هي الإقرار بأن الرب موجود ، وأنه الخالق المعبود ، وقربهم قرب ثواب .

وفي المرتبة الثانية ، وهي مرتبة الإيمان ، معرفة أهل النفوس ، ومعرفتهم أن يسلبوا عن معبودهم نقائص الكون ، وقربهم قرب اليقين .

والمرتبة الثالثة، مرتبة الإحسان، وهي معرفة ذوي العقول القدسية، ومعرفتهم أن يشهدوا سحرهم في جميع المتفرقات كلها شيئاً واحداً .

قال روم البغدادي : العارف مرآة إذا نظر فيها تجلى له مولاه .

وقال الشبلي : للخلق أحوال، ولا حال للعارف، لأنه محيت آثاره ورسومه، وفنيت هويته بهوية غيره، وغيب آثاره بآثار غيره، والله أعلم .

والعارف كما قال النصر أباذي : الزاهد غريب في الدنيا . والعارف غريب في الجنة، لأن تاركي الدنيا قليلون فهم غرباء، وكذلك أهل الجنة قنعوا بنعيمها، والعارفون تعلقت همهم بالحق، فلم يشغلهم عنه نعيمها فهم فيها غرباء .

قال الحلاج : علامة العارف أن يكون فارغاً من الدنيا والآخرة .

ويقول الوزير لسان الدين بن الخطيب في كتابه «روضة التعريف بالحلب الشريف» في فصله الرابع تحت عنوان «في علوم العارف» .

«وعلوم العارف على ضربين، إجمال وتفصيل .

فالإجمال من حيث هو، قد آتاه الله الحكمة «ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً» أن يعرف جوهر نفسه، وكيف تصير عاقلاً بالفعل، وتتخلص من كدرات الطبيعة، وتتجرد عن جميع العلائق الفاطعة عن السبب الأول، ويكمل جوهرها كما تحب، فيستقيم معراجها إلى الأول، ولا يمتنع عن سروره وفرحه في وقت من الأوقات، ولا يعجز عن شيء يريد به ويتمم غيره، ويخلص الفطر الناقصة بعلم أجل وأعلى من العلوم المكتسبة والنظرية والأعمال البدنية والتخلف على ما ينبغي، وهذه النفس لا تحتاج في سعادتها وتتميمها إلى غيرها من النفوس الجزئية . وجميع النفوس الجزئية محتاجة إليها وأخذة منها وتابعة لها، وهو إذا استكمل بأكثر هذه الخواص، فمن حيث هو وارث فإن وظيفة الحكم أن يعلم النفس وعللها، ولا يترك شيئاً من الصنائع العلمية والعملية التي تعطي تدبير الإنسان إلا نظر فيه وحصله واتصف به، ثم حمل نفسه من المشقات التي تحصل باكتساب الصنائع المذكورة بها وبالصبر عليها وتمرن وبحث عن الحقائق الموجودات، ووقف على ماهيتها، وفكر في الأول الحق، ونظر في الذي يجب عليه ويجوز ويستحيل، وطلب القرب منه . والوصول إلى المبدع الأول بالعلم لا بالتجوهر، واستقام وبلغ كمال الإنسانية وخلص العلم بنفسه وعقله إلى حيث ينبغي وبقدر ما ينبغي .

والتفصيل حيث الوراثة أن يعلم حسبها يعتقده أهل هذا الفن أن موروثه الذي لا ينطق عن الهوى قد بلغ كل ما أمر به في تجلياته وإسراءاته وتنزيلاته، ورأى من آيات ربه الكبرى، وعلم تصريحا كل ذي همة باعثة، وإشارة لكل ذي نفس مستشرقة، ورمزا لكل ذي عقل مصيب . ففهم كل على قدر ما رزق، فكان رجال الشريعة من بعده أربعة .

أولها : عامي يختص به من علومها ظاهر، يقال له علم الرسوم، وعلم التفسير - أي تفسير الحدود الظاهرة - ويكشف عن الحلال والحرام، وهذا العلم ينبغي تعلمه وتعليمه وإشاعته، وهو لا يدرك إلا بالتعلم والدراسة، ويزيد وينقص . وعلم الرسوم، وهو علم محفوظ مسموع من لسان الشارع صلى الله عليه وسلم وهو الإسلام .

وثانيها خاص : يختص به من علومها علم باطنها بشرط تحصيل علم ظاهرها، ويسمى علم الباطن، وعلم التأويل - أي تأويل ما تضمنه الرسم من المعنى، وتحقيق ما انطوى عليه من الفوائد، ويسمى بالحكمة، وهو الاطلاع على حقيقة المراد من الرسم، وهذا العلم كثير لا يوصف بفضله، فإنه بحر، ولا يدرك هذا العلم بدرس ولا تعليم، وهذا العلم إنما يدرك بهداية الله، والتعرض لهذه الهداية يتعين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لله في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها» وهذا التعرض لا يكون إلا بطهارة الظاهر والباطن، وأداء الحقوق الشرعية . وامثال الأوامر، والتقرب إلى الله بالنوافل، يتقرب بها العبد حتى يحبه، ويقيد هذا العلم بالعلم الإيماني، فهو علم الإيمان، ومن لم يحصل عليه فقد فاته خير كثير نتيجة للتقوى .

وثالثها : خاصة الخاصة، ويختص به من علوم الشريعة علم الحمد، متضمننا التحصيل ما تقدم، قال صلى الله عليه وسلم «لكل من كتاب الله ظاهر وباطن وحد ومطلع» في رواية «لكل كلمة ولكل حرف» وهو علم الإلهام، والعلم اللدني، والموهبي، والإلهي، وهذا فضل من الله يوتي به من يشاء، والله ذو الفضل العظيم . ويحتوي على معان لا يقدر أن يعبر عنها من اطلع عليها، إنما هو استشراق واطلاع على ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. وهو بحر يوصف بطول ولا عمق، ولا عرض ولا نقطة ولا حظ، إنما هو ذوق تتلون لذاته في الطعمة الواحدة إلى ما لا ينحصر عدده، ولا ينتهي أمده، وهو علم النبوة؛ وحملته هم الذين عناهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل» قالوا : وهذا العلم هو الذي لا يجوز كشفه ولا إذاعته ولا ادعائه، ومن كشفه وأذاعه وجب قتله واستحل دمه، وينسبون في ذلك إلى خواص النبوة وخلفائها كقوله :

يا رب جوهر علم لو أبوح به

لقليل لي أنت ممن يعبد الوثنا

ولا استحل رجال مسلمون دمي

يروون أقبح ما يأتونه حسنا

وغاية من اطلع عليه، الحصول في العجز، ولذلك قيل : العجز عن درك الإدراك إدراك، وهو المراد بقوله تعالى «ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير» والعلم الذي قبله في جنسه كلا شيء، وهذا هو علم الإحسان . والرابع من رجال الشريعة : خواص الله في أرضه ورحمته في بلاده وعلى عباده، وهم الأبدال والأقطاب والأوتاد والعرفاء والنجباء والنقباء وسيدهم الغوث، ويختص بهم من علوم الشريعة علم المطلاع، متضمننا لما وراءه من العلوم، وهذا العلم هو العلم العظيم، المحتوي على جميع العلوم، وهو علم الرسالة، ولا يقدر على وصفه من اطلع عليه، ولا يعلم

ماهية هـ ، بل لا ماهية له ، إنها حامله حامل أسرار ومعان وأبكار حسان « لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان » .

ويقول أيضا في الفصل الخامس تحت عنوان « في أقسام العارفين بالله » :

« وحقق الاستقراء أن مجموع من يدعى أو تدعى فيه المعرفة بالله ينحصر في سبع زمر تتفرع منها إحدى وعشرون زمرة .

الأولى منهم : أهل التقليد وهم ثلاثة أصناف : الأولى قلدوا آباءهم . والثانية قلدوا علماءهم ، والثالثة قلدوا أنبياءهم ، ومعرفة هؤلاء خبرية .

والزمرة الثانية : أهل النظر، وهم ثلاثة أصناف : قوم استدلوا بالصنعة على الصانع ، وقوم استدلوا بالصانع على الصنعة ، وهم أشرف وأعسر، وقوم جمعوا بين الدالتين ، وإليه الإشارة بقوله : ما رأيت شيئا إلا رأيت الله فيه ، أو معه أو بعده من حججهم الشهرة ؛ ومعرفة هؤلاء قياسية نظرية .

والزمرة الثالثة : أهل التنزيه ، وينقسمون إلى ثلاثة أصناف : الأولى ، نزهوا معروفهم عن لواحق الأشباح ، والثانية نزهوه عن لواحق الأرواح ، والثالثة نزهوه عن لواحق العقول القدسية .

والزمرة الرابعة ، أهل التشبيه ، وهم ثلاثة أصناف : شبهوه بصفات الجسوم وهم الظاهرية . وحكموا عليه بما حكموا عليها من اليد والرجل ، والثانية شبهوه بالنفوس ، والثالثة شبهوه بالعقول .

والزمرة الخامسة : أهل العجز ، وهم ثلاثة أصناف ، الأولى عجز عن معرفته من غير نظر ولا استبصار ، والثانية عجزوا عنها بعد بحث ونظر ، والثالثة عجزوا عن إدراك إدراكهم ، وخرجوا إلى النور المحض الذي لا تصور فيه ولا شوب ولا يخلفه غيره .

والزمرة السادسة : أهل الاتحاد ، وهم ثلاثة أصناف : الأولى ، الذين قالوا بالاتحاد في الظواهر ، والثانية الذين قالوا به في البواطن ، والثالثة ، الذين قالوا بالاتحاد المطلق .

الزمرة السابعة : أهل التحقيق ، وهم ثلاثة أصناف : الأولى جمعوا بين الخبر والنظر . والثانية ، جمعوا بين التشبيه والتنزيه . والثالثة جمعوا بين العجز والاتحاد المقدس .

أما الدلائل ، فأهل الخبر دليلهم الحديث والقرآن « وإلهكم إله واحد » « قل هو الله أحد » « إني لأعرفكم بالله وأشدكم خوفا منه » وغير ذلك من أخباره عن الله ، وما يناسبه .

وأهل النظر أدلتهم كثيرة « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه ، فقنا عذاب النار » ومثلها قوله تعالى « أفلم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض » وأهل التنزيه دليلهم « ليس كمثله شيء » وقوله « سبحانه ربك رب العزة عما يصفون » ، فالمخالفون ما وصفوه إلا بما اتصفت به ذواتهم . وأهل التشبيه دليلهم قوله عليه أفضل الصلاة والسلام « من عرف نفسه عرف ربه » ، وقول حاكيا عن ربه « لم تسعني أرضي ولا سمائي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن ، - أي عرفني وقبل صورة معرفتي - . وأهل العجز دليلهم من



الكتاب «ويحذركم الله نفسه» وفي السنة «تفكروا في آلاء الله ولا تتفكروا في ذات الله فإن التفكر في ذات الله يقدح الشك في القلب» وقوله «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» . ومن الآثار «العجز عن درك الإدراك إدراك» وأهل الاتحاد دليلهم «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله» ، ومن السنة ما أخبر به ربه في حديث التقرب بالنوافل . وما أعطى كل شيء حقه في حضرته المعينة ، فهو العارف بالحق» . .

## الخواطر

الخاطر بربط بالإرادة، وقد يجهل زمانه، ينقسم إلى هبة مزعجة، وهبة باسطة، وهبة قابضة. فالمزعجة ما أوجست في النفس خفية. والباسطة إن سبقتها خلوة أو وقوف على حقيقة فقد تحدث في النفس طيب النكهة والانبساط. أما الهبة القابضة ما أكسبت صاحبها كمالا وصعودا إلى أوج مما كان أو تحذره أو تجرده أو تكون له مقدمة غيبته، أو تحله السكينة أو تلهمه الوعيد وتحذره من المكر وتدفعه نحو الوسائل المنجية. كل هذه الخواطر خواطر رحمانية.

وهناك الخاطر الملكي وهو مرتبط بالخاطر الرحماني ومباين لخاطري النفس والشيطان. والخاطر الرحماني في غاية الخاطر الملكي، والملكي يسير بالمالك نحو الأمر بالمعروف وكسب الفضائل، وذلك في باطنه بمشابهة بالأستاذ الزاجر والمعلم، ينبهه ويرشده إلى الغوامض حتى يتصور ما لم يكن يتصور، ويسمع ما لم يكن يسمع، أو يحفظه ويخلصه من الشوائب ويصعد به إلى منازل الأبرار، أو يعلمه الوصول والخروج عن نفسه، والخروج عن خروجه والرجوع إلى حقه بأدب الحقيقة، فيبصر الغلط الخفي ويعلم الحياة والموت. وهناك الخاطر النفساني يرتبط ويتعلق بالخاطر الشيطاني وهو متصل بالجسم، إذ كل لواحق الجسم موادها شيطانية وقواطعها جرمية، لا تهدي ولا ترشد البعيد من حيث طبعه، بل تقبل الزجر، فيفهم بالخاطر الملكي عرضا لا بالذات. وهذا الخاطر ميال إلى الشهوات يحض على الجاه والصيت والملذات، وهذا يقترن بتداخل الخاطر الشيطاني، فيدفع ذلك بالتعظيم والتظاهر مما يرمي بذلك إلى بدعة أو ربما إلى اليأس من الرحمة وارتكاب المحرمات والتشويق إلى هوى النفس من باب الإباحة.

والخاطر النفساني هو بالجملة مستمد من الخاطر الشيطاني؟، وكأنه مادة لصورته؛ أما الخاطر الشيطاني فإنه يجذب إلى النقص، فتزين عينه المحرم، وتعلمه ما يضره وتنسيه كل نافع، وتسلب منه الإنسانية وكل خير وفلاح، وتنزل به إلى الحيوانية، ولا تقنع إلا بفواحش الهوى والضلالة، ولا ترشد إلى الامتثال والطاعة. فهذا خاطر يدعو إلى الانتكاسة. فلا مناص منه إلا بالاستقامة، واتباع خط إمام المرسلين صلى الله عليه وسلم.

## فهم أهل الصفوة

قال تعالى «وتنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين» وقال أيضا «آلم ذلك الكتاب لا ريب، فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب» .

لقد فهم أهل الصفوة الخطاب، وأصبح فهمهم للقراءان طافيا كاللجين، فيه الهدى والرحمة، وفيه فصل الخطاب لما قد شكل، هو تبيان وبشرى للمتقين، قال تعالى «ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين»، فهذه الآية بينت لأهل الصفوة من الفهم ما قسم لهم بعد إيمانهم بالغيب، وقد أدركوا قول الله تعالى «ما فرطنا في الكتاب من شيء» وقوله عز وجل «وكل شيء أحصيناه في إمام مبين» وقوله عز وجل «وإن من شيء إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم» .

إن أهل الفهم والعلم من الصفوة، يعلمون أن القراءان يهدي إلى الأصواب، وذلك بعد التدبير والتفكير والتهيؤ والتذكر وحضور القلب عند القراءة. لقوله تعالى «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» - يعني حاضر القلب - وقوله تعالى «وإن من شيعته لإبراهيم إذ جاء ربه بقلب سليم» قال أهل الفهم، القلب السليم الذي ليس فيه غير الله. قال سهل بن عبد الله: لو أعطي العبد لكل حرف من القراءان ألف فهم لما بلغ نهاية ما جعل الله تعالى في آية من كتاب الله تعالى من الفهم، لأن كلام الله تعالى، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهمون على مقدار ما يفتح الله تعالى على قلوب أوليائه من فهم كلامه، وكلام الله غير مخلوق فلا تبلغ إلى نهاية الفهم فيه فهوم الخلق، لأنها محدثة مخلوقة.

والصفوة من العباد أشار إليهم قول الله عز وجل «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات» فالاصطفاء الذي ذكره الله لعباده الذين أورثهم الكتاب هم المونون، ثم بين أنهم متفاوتون في أحوالهم التي بينهم وبين الله، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات. بعد وقع الاصطفاء على وجهين، اصطفاء الأنبياء بالعصمة والوحي والتبليغ، وغيرهم من المومنين بصفاء المعاملة والمجاهدة والتعلق بالحقائق. وأمر الله بالاستباق والمسارة والمبادرة إلى الخيرات، بقوله تعالى «ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليلوكم فيما آتاكم، فاستبقوا الخيرات» وقد أجمل سبحانه الاستباق إلى الخيرات، وفصل ذلك في

آيات ، كقوله تعالى «هدى للمتقين» و«موعظة للمتقين» «فلا تخشوهم» «فاذكروني أذكركم» «وعلى الله فتوكلوا» «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول» «والذين جاهدوا فينا» «ومن شكر فإنها يشكر لنفسه» «إن الله يحب الصابرين» «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين» «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» «قل متاع الدنيا قليل . والآخرة خير لمن اتقى» «من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نوته منها ، وماله في الآخرة من نصيب» «إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا» .

ففهم أهل الصفوة لآيات الله المحكمات الذين أنابوا وأطاعوا وتحققوا في الأحوال وأخلصوا في المقامات هم الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه «الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم» وقوله عز وجل «قد أفلح المومنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون» .

وزاد طبقة العلم منهم بقوله تعالى «إنما يخشى الله من عباده العلماء» ، وقال أيضا «وأولوا العلم قائما باقسط» ، ثم خصص من هؤلاء قوما أعلى فشفهم بقوله عز وجل «والراسخون في العلم» . قال أبو بكر الواسطي «الراسخون في العلم هم الذين رسخوا بأرواحهم في غيب الغيب ، وفي سر السر ، فعرفهم ما عرفهم ، وأراد منهم من مقتضى الآيات ما لم يرد من غيرهم ، وخاضوا بحر العلم بالفهم لطلب الزيارات ، فأنكشف لهم من مذخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النص ، فاستخرجوا الدر والجوهر ونطقوا بالحكم» .

وقال أبو سعيد : أول الفهم لكتاب الله عز وجل العمل به ، لأن فيه العلم والفهم والاستنباط ، وأول الفهم إلقاء السمع والمشاهدة لقول الله عز وجل ، «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» ، وقال تعالى : «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه» ، والقرءان بطبيعة الحال كله حسن ، ومعنى اتباع الأحسن — أي يكشف للقلب من العجائب عند الاستماع والفهم والاستنباط .

والاستماع والحضور ثلاثة أوجه كما قال أبو سعيد الخراز «إلقاء السمع لاستماع القرءان هو أن تسمعه كأن النبي صلى الله عليه وسلم يقرأه عليك ، ثم ترقى عن ذلك فكأنك تسمعه من جبريل عليه السلام وقراءته على النبي صلى الله عليه وسلم لقول الله عز وجل «وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك» ثم ترقى عن ذلك فكأنك تسمعه من الحق ، وذلك قول الله عز وجل «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين» وقوله «تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم» .

وأهل الصفوة استفادوا من الآية الكريمة «فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته» إن زيادة الإيمان لا نهاية له ، بل إن جميع ما وصل إليه أصحاب الحقائق من البداية إلى النهاية ، كل ذلك من حقائق الإيمان وزيادته وبراهينه وأنواره ، وأن لا نهاية لذلك .

## الدعوة إلى الله

قال تعالى «قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد» إنه سبحانه وتعالى الواحد ، الفرد الصمد ، لا شريك له ، يحيي ويميت ، وهو على كل شيء قدير، إنها أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، هو صانع العالم وفاعله ومبدعه .

إن الإنسان ميال بفطرته إلى الإقرار بوجود كائن عظيم ، عاقل حكيم ، أرفع من جميع الموجودات ، خلقها وأبدعها ونظمها ورتبها في حركة دائمة إلى مالا نهاية ، وهذا الصانع المبدع يتمتع بقوة ثابتة ، وهو مبدأ ومرجع كل شيء ، ذو الكمال المتناهي ، لا يحتاج إلى علة خارجة ، سبحانه وتعالى عما يصفون .

والعقل البشري مهما بلغ من السمو والارتقاء يقف عاجزاً عن إدراكه سبحانه وتعالى ، وهو منزّه عن جميع الصفات التي تتصف بها موجوداته ومبدعاته ، فهو مبدأ كل موجود لاستناد جميع الموجودات إليه ولصدورها عنه .

والشرائع والأديان تدور في إيمانها بوجود الخالق المبدع ، الذي نظم الليل والنهار وتعاقب الفصول ، وزين السماء بالكواكب بالمنازل والبروج والأفلاك ، والرياح بجريانها ، والأرض وما عليها ، فسبحت له كافة الموجودات العلوية ، والمخلوقات الجسمانية ، والمبدعات الروحانية ، ناطقة بعصمته ، ومنبئة عن باهر قدرته ، فخضعت العقول لنوره .

إن أشرف العلوم معرفة الله وصفاته اللائقة به ، والعلماء قد تكلموا في ماهية ذاته . وأكثروا القيل في حقيقته وصفاته ، وتاه أكثرهم في العجاج عن المنهاج والعلم . والعلة في ذلك هو من أجل أن هذا المطلوب من أبعد المرامي إشارة ، وأقرب المذاهب وجدانا ، فهو سبحانه وتعالى يقبل فيض الجود مادام هو مطلقاً مبدأ كل موجود ، وإليه سبحانه ينتهي الحدود ، فهو فوق وصف الواصفين ، وقد يقال لا إله إلا هو ، إيماناً وتسليماً ، وهذا القول إثبات التوحيد ، فصار الأصل المعتمد عليه في كل شريعة .

فأله سبحانه وتعالى له الخلق والأمر «إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استولى على العرش ، يغشى الليل النهار ، يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم ومسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين» إنه سبحانه خالق كل شيء وربّه ومليكه ، ما شاء كان

وما لم يكن ، كل شيء بقضائه وقدره وقدرته وإرادته ، وقد أمر سبحانه بطاعته . فأعظم الطاعات توحيده والإخلاص له ، وأعظم المعاصي الشرك به «إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء» «ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله» . وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قلت يارسول الله أي الذنب أعظم؟ قال : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك» قلت ثم أي؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن تطعمه معك» قلت ثم أي ! قال : « أن تزني بحليلة جارك» فكان تصديق هذا القول بالآية الكريمة «والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما» .

والعبد مأمور بالتوبة إليه سبحانه «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» وهو القائل سبحانه «سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون أموالهم في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فاتهم وهم يعلمون»

وبهذا القدر أكتفي مادام الكتاب موضوعه بكامله الدعوة إلى الله ، والله ولي المتقين .

## منزلة العبد عند خالقه

إن توفيق العبد في أعماله تصبح صالحة موافقة للصواب، وهذا ما يدل عليه منطوق القرآن والسنة، والصوفية رأوا في ذلك سندا.

فالجنيد رحمه الله يتكلم عن توحيد الخواص ويبين أنه مقام من وصل إلى الفناء عن نفسه، وهذا غاية تحقيق حقيقة توحيد الموحد للواحد، أن يذهب كما لو لم يكن يتلاشى وتنمحي أوصافه ويبقى بأوصاف الحق.

وذو النون المصري يتكلم عن المعرفة ويرى أنها لا تكمل إلا بالوصول إلى درجة الفناء، ويصير العارف في مظهر الفناء الأكمل متحركا بحركة الله ناطقا بما يجريه على لسانه ناظرا بنور الله في بصره.

والحلاج يتخذ الفناء أساسا، بحيث لا يصل العبد إلى مرتبة حلول الله فيه إلا بعد أن يفنى عن نفسه فناء كاملا ويحجب عنها بالله، فالمتحققون عنه بالله هم الذين أفناهم الله عن أوصافهم الناشئة عن طباعهم، ولم يردهم إلى علومهم المستخرجة بحكم عقولهم، بل كان هو لسانهم الذي به ينطقون، وبصرهم الذي به يبصرون، وأسماهم التي بها يسمعون، وأيديهم التي بها يبطشون. ويرى الفلاسفة الإشراقيون والصوفية أن الكرامات ردها إلى طبيعة النفس وقوة ذاتية فيها، حصلت لها بعد صفاتها بالرياضة والمجاهدة ووصولها إلى درجة العرفان، وتحولها إلى جوهر أسمى من جوهرها، هو جوهر الملائكة، وقربها من طبيعة الإله، فأصبحت لها القدرة على التأثير في الكون والتصرف فيه، كقدرتها على تأثيرها في جسمها وتصرفها فيه. وأفضل العباد الأولياء، وأفضل الأولياء الأنبياء، وأفضل الأنبياء الرسل، وأفضل الرسل أولو العزم - نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - وأفضل أولي العزم محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» وقد جعل سبحانه وتعالى صدق محبته متوقفة على اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وجعل أتباعه سبب حصول المحبة من الله سبحانه، وادعت اليهود والنصارى أنهم أبناء الله وأحباؤه، وجعلوا الجنة وقفا عليهم، وقال تعالى «وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، تلك أمانيهم، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين. بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» وقال تعالى «وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا، إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو، بئس للظالمين بدلا» وقال

سبحانه «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات» .

والأولياء على طبقتين، سابقون مقربون، وأبرار أصحاب يمين مقتصدون، وقد ذكرهم الله سبحانه وتعالى في أول سورة الواقعة، وذكر معها القيامة الكبرى والصغرى حيث قال : «إذا وقعت الواقعة ليس لوقعتها كاذبة، خافضة رافعة إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا وكنتم أزواجا ثلاثة، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة، والسابقون السابقون، أولئك المقربون في جنات النعيم، ثلث من الأولين وقليل من الآخرين» فهذا تقسيم الناس إذا قامت القيامة الكبرى التي يجمع فيها الله الأولين والآخرين» وقال عز وجل في آخر سورة الواقعة «فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين، فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم، وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين، وأما إن كان ممن المكذبين الضالين فنزل من حميم وتصلية جحيم، إن هذا هو حق اليقين، فسبح باسم ربك العظيم» وقد نلاحظ أن الآية الأولى من السورة ذكرت القيامة الكبرى، والثانية ذكرت القيامة الصغرى .

والعبد عادة يأخذ الجزاء من جنس عمله خيرا كان أو شرا، قال صلى الله عليه وسلم «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيها علما سهل الله له طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» وفي حديث آخر «الراحمون يرحمهم الله، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» .

وهناك ثلاثة أصناف من العباد، منهم ظالم لنفسه، مصر على الذنوب . ومنهم مقتصد، يؤدي الفرائض ويحتمل المحارم . ومنهم سابق بالخيرات، يؤدي الفرائض والنوافل ويحتمل المحرمات والمكروهات . وهذا ما هو واضح في الآية الكريمة «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، ذلك هو الفضل الكبير، جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا، ولباسهم فيها حرير، وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور»، ثم ذكر سبحانه المفاضلة بين أولياء المؤمنين بقوله «انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا» بل كان هذا التفضيل أيضا بين أنبيائه حيث قال عز وجل «تلك الرسل، فضلنا بعضهم على بعض، منهم من كلم الله، ورفعنا بعضهم درجات، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس» وقال أيضا «لقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داوود زبوراً» .



إن منزلة العبد عند خالقه واضحة ، يبقى إذن عمل العبد عند ربه واضح في قوله عز وجل  
«أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوي الذين يعلمون  
والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب» ، وقال أعز من قائل «يرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا  
العلم درجات ، والله بما تعملون خبير» .

## سلوك العباد

قال تعالى «وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم» وقال صلى الله عليه وسلم «من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلا كلما غدا أو راح» .

إن العبد السالك هو ذلك العبد الذي يسير بالحكمة والموعظة الحسنة متشبها بعمله متوكلا على الله غير متواكل ، قلبه يضيء بتقوى الله ، غير هياب بما يمسه في إيمانه . روي عن نجیح العرباض بن سارية قال «وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرقت منها العيون . فقلنا يارسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا ، قال «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة» .

والعبد السالك هو الذي يحافظ على السنة وآدابها مستمداً ذلك من قوله عز وجل «وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا» وقال «لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر» وقال صلى الله عليه وسلم «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى» قيل ومن أبى يا رسول الله ؟ قال «من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى» والعبد السالك هو الذي يجعل من أوجب واجباته الانقياد لحكم الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعماً لقوله عز وجل «فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً» ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لله ما في السماوات وما في الأرض ، وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله» الآية ، اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب فقالوا : أي رسول الله ، كلفنا من الأعمال ما نطبق : الصلاة والجهد والصيام والصدقة ، وقد نزلت عليك هذه الآية ولا نطبقها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير» فلما اقتراها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى في إثرها «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا ، وإليك المصير» فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل عز وجل «لا يكلف الله نفساً إلا

وسعها ، لها ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» قال : نعم «ربنا لا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا» قال : نعم «ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به» قال : نعم «واعف عنا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» قال : نعم ، قال : يا رسول الله ما نهى عن البدع ومحدثات الأمور، قال تعالى «فماذا بعد الحق إلا الضلال» وقال تعالى «فما ننازلهم في شيء فردوه إلى الله والرسول» أي إلى الكتاب والسنة — وقال أيضا «وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا» .

والعبد السالك مبدؤه التعاون على البر والتقوى ، قال تعالى «وتعارفوا على البر والتقوى» وقال أيضا «والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» وقال صلى الله عليه وسلم «من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا . ومن خلف غازيا في أهله بخير فقد غزا» ، وعن ابن عباس رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقي ركبا بالروحاء فقال «من القوم ؟ فقالوا ، المسلمون ، فقالوا : من أنت ؟ قال : رسول الله ، فرفعت إليه امرأة صبيا فقالت : ألهذا حج ؟ قال : نعم ، ولك أجر» .

والعبد السالك هدفه النصيح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى : «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» وقال جل شأنه «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» وقال أيضا «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» ، وقال صلى الله عليه وسلم «الدين النصيحة ، قلنا لمن ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» . وقال أيضا « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيذان» .

والعبد السالك من استطاع أن يصلح بين الناس ويحث على الحب في الله ، قال تعالى «لا خير في كثير من نحواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس» وقال أيضا «إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم» وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه أن بني عمرو بن عوف كان بينهم شر ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلح بينهم في أناس معه ، فحبس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت الصلاة ، فجاء بلال إلى أبي بكر رضي الله عنهما ، فقال : يا أبا بكر، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حبس وحانت الصلاة ، فهل لك أن تأم الناس ؟ قال نعم إن شئت ، فأقام بلال الصلاة وتقدم أبو بكر فكب وكبر الناس ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي في الصفوف حتى قام في الصف فأخذ الناس في التصفيق ، وكان أبو بكر رضي الله عنه لا يلتفت في الصلاة ، فلما أكثر الناس التصفيق

التفت ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فرفع أبو بكر رضي الله عنه يده محمد ورجع القهقري وراءه حتى قام في الصف ، فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصلى للناس ، فلما فرغ أقبل على الناس فقال : «أيها الناس ما لكم حين نابكم شيء في الصلاة أخذتم في التصفيق؟ إنما التصفيق للنساء . من نابه شيء في صلاته فليقل : سبحان الله ، فإنه لا يسمعه أحد حين يقول سبحان الله إلا التفت ، يا أبا بكر ما منعك أن تصلي بالناس حين أشرت إليك؟» فقال أبو بكر : ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يصلي بالناس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم» .

وفي الحث على الحب في الله نجد قول الله عز وجل «محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم» وقوله عز وجل «والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم» . وفي الحديث الشريف «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال ، فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه» .

وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون ، بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي» وقال عليه السلام «والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا . أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» .

والعبد السالك من أنفق في أوجه الخير ما يجعله كريماً تطبيقاً لقوله عز وجل «وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه» وقال أيضاً «وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون» وقال صلى الله عليه وسلم «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفاً» .

والعبد السالك من اتصف بالورع وترك الشبهات ، قال تعالى «وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم» وقال عز وجل «إن ربك لبالمرصاد» ، وقال صلى الله عليه وسلم «إن الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب» .

والعبد السالك من خفض جناحه وتواضع ، قال تعالى «واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين» وقال تعالى «ولا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن اتقى» ، وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد» .

وبصفة عامة ، فإن العبد السالك من اتصف بالخلق الحسن ، والتزم الشريعة ، قال تعالى :

«وإنك لعلى خلق عظيم» وقال صلى الله عليه وسلم «إن من أحبكم إلى وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة، الثرثارون والمتمشدقون والمتفهبون» قالوا: يارسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتمشدقون، فما المتفهبون؟ قال المتكبرون».

## الطريق إلى الولاية

قال عز وجل «الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه، فقنا عذاب النار» .

إن مما يفتح الطريق نحو الولاية ذكر الله، والذكر مرغوب فيه كما ورد في الآية الكريمة، وقال صلى الله عليه وسلم «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن اقترب إلى شبرا اقتربت منه ذراعا، وإن اقترب إلي ذراعا، اقتربت إليه باعا، وإن أتاني مشيا أتيت هرولة» وقال أيضا «لا يقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله سبحانه فيمن عنده» وقال أيضا «إذا مررتم برياض الجنة فارتقوا، قالوا يارسول الله وما رياض الجنة؟ قال : حلق الذكر». وإن أفضل الذكر ما كان في دعاء الله سبحانه وتعالى حيث قال جلت قدرته «وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعان»، وقال صلى الله عليه وسلم «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها» .

ومن أعظم الأذكار أجرا وأكثرها جزاء، تلك الأدعية الثابتة في الصباح والمساء، فإن فيها من النفع والدفع ما تشتمل عليه، وهي ترياق المجرب في النفع والدفع، وكمثال على ذلك للذي يحافظ عند خروجه من بيته كأن يقول ملازما «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق» أو أن يقول «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم» أو آية الكرسي، فإن ذلك فيه حصن من جميع الشرور لما ورد في الذكرين أو آية الكرسي، وكذلك الاستغفار فإنه بمثابة المرهم الذي يغسل الذنوب .

ومن أعظم ما يلزمه السالك نحو الولاية كلمة التوحيد كما قيل عنه صلى الله عليه وسلم «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»، وعن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله أوصني، قال : إذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تمحوها، قال : قلت يا رسول الله : أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال : هي أفضل الحسنات». ومما ينبغي لسالك الطريق أن يستكثر من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وأن يجعلها فاتحة كل دعاء، فقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث

جماعة أن من صلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صلاة واحدة صلى الله عليه عشر صلوات . . فانظر إلى هذا العطاء العظيم والجزاء الكريم ، أن العبد يصلي على المصطفى صلى الله عليه وسلم فيصل عليه خالق الكون عز وجل عشر مرات ، فما أجزل هذا الثواب وما أعظم هذا الأجر الذي لا يماثله أي أجر ، فمن نظر بعين المعرفة وفهم هذا المعنى طار بأجنحة السرور إلى الاستكثار من هذا الخير العظيم والأجر العميم ، فشكر أو حمدا للواهب الوهاب .

وإن ملازمة التسبيح والتكبير والتوحيد والتحميد لنبراس الولي كما ورد في قوله صلى الله عليه وسلم «أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، لا يضرك بأيهن بدأت» .

وأفضل الأدعية ما وردت عنه صلى الله عليه وسلم ، منه مثلا قوله عليه السلام «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عاقبتك ، وفجأة ندمتك ، وجميع سخطك» أو دعاؤه أيضا «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إلیها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر» .

ومن أدب السالك لطريق الولاية أن يدعو أيضا في الوضوء وفي الأذان والإقامة ودخول المسجد وداخل الصلاة .

فعقب الوضوء مثلا يقول ما قاله صلى الله عليه وسلم «ما منكم من أحد يتوضأ ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية ، يدخل من أيها شاء» .

وعند الأذان مثلا يردد معه الأذان ؛ وحين يقول المؤذن حي على الصلاة . يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله . وحين يقول المؤذن حي على الفلاح ، يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وهذا ما جاء في حديث عمر .

وعند سماع الإقامة مثلا يقول «اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة أت محمدا الوسيلة والفضيلة وأبعثه مقاما محمودا الذي وعدته» وهذا ما جاء في حديث جابر .

وعند دخول المسجد مثلا يقول «اللهم افتح لي أبواب رحمتك» وإن خرج يقول : «اللهم إني أسألك من فضلك» وهذا ما ورد في حديث أبي سعيد .

وعقب الصلاة يقول ما جاء في قول المغيرة «أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول في دبر كل صلاة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، ثلاث مرات» .

والطريق إلى الولاية يستوجب أداء الفرائض وترك المعاصي أو التحايل على الشريعة وما يتنافى مع الدين ، والقيام بالنوافل قدر الإمكان حسب أوقاتها من صلاة وصيام .

ففي الصلاة تصلي ركعتان قبل الظهر وركعتان بعده، وقيل أربعة، وركعتان قبل العصر وركعتان بعد المغرب وركعتان بعد العشاء، وركعتان قبل الغداة، ونوافل الليل مع الشفع والوتر، وصلاة تحية المسجد وعقب الوضوء، وبين الأذان والإقامة . . . إلى غير ذلك .

وفي الصيام هناك صوم عاشوراء وستة من شوال وعشر من ذي الحجة ومنها يوم عرفة، وشهر شعبان خاصة يوم النصف منه . . . إلى غير ذلك . والسالك نحو الولاية لا بد له من التسليم والرضا بقضاء الله وقدره في السراء والضراء، وأن ينحو نحو المرشد الأعظم، والنبى الأكرم، محمد صلى الله عليه وسلم حينما كان يردد وقت الشدة «اللهم إني أعوذ بك من سوء القضاء، ودرك الشقاء، وجهد البلاء، وشماتة الأعداء» .

ومن مظاهر الولاية الإحسان، فإنه رتبة عالية لا يحصل عليها الولي إلا بعد كمال الإيمان، والإيمان يتجلى في أداء الفرائض والنوافل، وترك المحرمات والمعاصي والمكاه، والسير على النهج القويم في الحياة مقرنة بطهارة الباطن، فإذا كان كذلك فإن سالك طريق الولاية يدخل في الحديث القدسي الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره إساءته» .



## الإسلام

الإسلام دستورنا في هذه الحيا، لا يمكن أن يغيب عن مسرح حياتنا، ولو غاب لا يبقى شيء يأخذ محله، فيحدث خلل في جميع المقاييس، حيث يصبح الحرام حلالا والحلال حراما، وما نقره اليوم يلغي غدا، وما يثبت غدا يلغي بعد غد. فتنتلق الأهواء، ولا يعرف الإنسان بها لنفسه مدخلا ولا مخرجا، ومهما اعتقد معرفة الشيء فهو في الحقيقة لا يدري، وما يريده جيل يرفضه آخر بطريقة أو بأخرى، ومهما أراد سلطان أن يرد الناس إلى نظام فإن الناس يستعصون عليه، فتكون كل إمكاناته العلمية مسخرة بطريقة منحرفة.

ومما يدل على ذلك واقع الإنسان في القرن العشرين وما والاه، ألسنا نعيش اليوم وطأة الإجرام رغم ازدياد أجهزة الأمن؟ ألسنا نرى أجيالا جعلوا الفوضى مبدأ حياتهم يدعون أنفسهم بالحنافس؟ ألسنا نرى الإباحية المطلقة في العلاقات الجنسية وفي الشذوذ الجنسي حتى بلغت في بعض الدول الأوربية ذروتها؟ ألسنا نرى نظريات مطروحة على الساحة الدول أو الجهوية تجعل كل شيء متناقضا؟ لعلك الآن تقتنع بأن غياب الإسلام عن الساحة لا يبقى معه أي شيء في محله، لأن الإسلام هو شيء رباني، فهو الصحيح السليم عن أي انخرف، وبه تستطيع البشرية أن تتظلل، وبغيره كل شيء يضيع.

إن الإنسان مرتبط بخمس، وهي أهم شيء بالنسبة له، مرتبط بالدين، والعقل، والمال، والنفس، والنسل.

## الدين

فتح المسلمون مصر وبلاد الشام والهند وفارس إلى غير ذلك، وحكموا، لكنهم لم يغيروا العقائد كرها، وإنما عن طريق الاقناع والرغبة، ولم تحدث حادثة إكراه واحدة على تغيير الدين. وفي عصرنا هذا، عصر ما يدعى بالحرية العقائدية المصونة، نجد العكس من ذلك، فقد نجدها مغتالة جهرا أو ضمنا لدرجة أن أبناء الدين أنفسهم غير مؤمنين على حفظ دينهم بالأحرى أن يأتمنوا على حفظ دين غيرهم، مثلا في الدول الاشتراكية تفرض تعاليم الماركسية وتحرم الدعوة إلى الأديان، أما في الدول الرأسمالية فقد تغتال الحرية الدينية أحيانا جهرا وأحيانا سرا عن طريق التعذيب أو عن طريق التصفية الجسدية، فالحقيقة الجليلة أن الإنسان لا يحفظ دينه إلا إذا كان الإسلام حاضرا.

إنه لن يوجد. على الإنسان عقله إلا إذا كان الإسلام حاضرا، فقد لوحظ أن أنظمة الحكم اليوم في العالم تدعى العلمانية، غير أننا نجد العلم في واد والواقع في واد آخر، فمثلا يقول العلم بأن الخمر مضر، والواقع يقول بأنها مباحة؛ والعلم يقول بأن الدخان مضر، والواقع يدعو إلى تشجيع ذلك؛ والعلم يقول بأن الزنا ليس في صالح الجنس البشري، والواقع يقول أنه مباح؛ والعلم يقول بأن المرأة أفضل من الرجل، والواقع يجب أن نجعلها مثل الرجل؛ وعلم النفس وروح الاجتماع يقعان تحت وطأة الأسر واستعمالهما في نشر الأكاذيب على أعمدة الجرائد والمجلات والإذاعات والإشاعات الملفقة بلا رقيب، ومحريف الحقائق لتبرير الجرائم بدون وازع؛ والسياسة وتوابعها أصبحت تمر على مركبات الكذب والخداع.

فأي عقل يبقى بعدما يتغذى بالأخطاء والأضاليل، وأي عقل يبقى بعدما يطلق العنان للقول والفعل من غير تعقل، وللشطط والهوى.

والحاصل من هذا، أثبتت الإحصائيات على أن نسبة الذكاء تتناقص، ونسبة الأمراض العقلية تتزايد. إنه لا يحفظ على الإنسان عقله إلا إذا كان الإسلام حاضرا.

## النفوس

حق الحياة البشرية للإنسان، فالنفس البشرية مقدسة، قال تعالى «إنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا» وقال عز وجل «ولقد كرمنا بني آدم»، غير أنه في غيبة الإسلام يصبح قتل النفس بسيطا سبب أو بغير سبب، وفي عصر العلم والحضارة تأتي بالأرقام التالية : ففي روسيا قتل من أجل تنفيذ الشيوعية وتحقيقها 19.000.000 نسمة وحكم على نحو 2.000.000 نسمة بعقوبات فادحة، ونفي عن البلاد 5.000.000 نسمة فهذه الأرقام تتجلى فيها بأن النفس البشرية لا قيمة لها؛ ثم ماذا يعني اغتيال السود في أمريكا وجنوبي إفريقيا، ثم ماذا تعني القنابل الفتاكة التي لا تبقى ولا تذر، مثل القنابل الذرية والهيدرروجينية، وبالتالي ماذا تعني القصور المبنية من الجماجم والمدابح الجماعية في كل بلد مستعمر، إن هذا كله يعني أن النفس البشرية لا قيمة لها.

## المال

المال أساسي في الحياة، قال تعالى «وتحبون المال حبا جما» لكن حينما يغيب الإسلام يغيب كل شيء.

فهذه ظاهرة حدثت بحمص حين خرج أبو عبيدة بن الجراح منها عاجزا عن حمايتها فرد إلى أهلها النصاري أموال الجزية التي أخذها منهم، فكانت هذه الحالة تعني ميلاد عدالة لم يعرف التاريخ لها مثيلا، وميلاد مجتمع جديد لا مثيل له في العلم. قارن هذه الحالة بما يفعله الاستعمار في أرض يحتلها. أو في المجتمع الشيوعي الذي يهدر حق الفرد وحق التملك، أو في مجتمع الرأسمالية

الذي يحفظ للإنسان ماله ظاهريا ويسرقه منه عن طريق الربا والاحتكار والاستغلال . إن مال الإنسان لا يحفظ له إلا عن طريق الإسلام .

## النسل

ولن يحفظ على الإنسان نسله إلا إذا كان الإسلام قائما ، فمثلا تأتينا الأبناء من «أفينا تقول : إن المرأة في بلدها تكاد تصبح جنسا ثالثا فلا هي بالذكر ولا هي بالأنثى ، ومظهر هذه الحالة هي ظهور حالات عدم الحمل دون سبب من أسباب العقم نتيجة لفقدان خصائص أنوثتها بسبب مشاركتها المطلقة للرجل في أعماله ، وانخفاض نسبة الزواج مستمرة . مع ارتفاع المواليد الغير الشرعيين . أما نسبة الطلاق فهي تعادل نسبة واحد بين كل سبع زيجات . وفي أمريكا يسقط مليون حمل في السنة على الأقل ، ويقتل الآلاف من الأطفال فور ولادتهم نتيجة أمراض تناسلية مختلفة ، وفي عصرنا هذا انتشر مرض «السيدا» من أوروبا إلى أمريكا إلى أفريقيا يهدد العالم أجمع ، أما البنت البكر فإنها في هذه الدول عار عليها أن تبقى بكرا وأدوات منع الحمل موجودة لديها .

إن الإنسان بلا إسلام يقتل نفسه ، ويعيش حياة الألم مهما أخذ حظه من اللذة ، والإنسانية بدون إسلام تدمر نفسها .

ونستعرض آيات بينات لنبين عن منهجية الإسلام وأخلاقياته في تكريم الإنسان وسر خلافته في هذه الدنيا ، ويسر تسخير الكون كله له ، وسر حمله للأمانة ، وقيامه بأمر الله وعبادته . قال تعالى :

«ولقد كرمنا بني آدم»

«لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم»

«إني جاعل في الأرض خليفة»

«هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا» .

«ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأصبح عليكم نعمه ظاهرة وباطنة» .

«وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون»

«إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا» .

«خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين»

«قتل الإنسان ما أكفره» .

«والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا

بالصبر» .

«ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون» .  
من خلال هذه الآيات البيّنات ينقسم الإنسان إلى قسمين : كافر ومسلم .

فالأول خاسر والثاني رابح . أما الأول فقد عطل إنسانيته ، والثاني حققها ، فهما سواء من حيث الأصل ، وغير سواء من حيث القيمة ، قال تعالى : «ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وقال تعالى : «قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث» ،

وقال تعالى : «أفجعل المسلمين كالمجرمين ، مالكم ، كيف تحكمون ؟» .

فالله عز وجل خلق الكون وهو مالكة ، وجعل المسلم الذي أسلم وجهه إليه سبحانه وتعالى له حق السلطان على هذه الأرض ، له حق السيادة والقيادة على خصائصها مع صيانتها . قال تعالى : «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ، إن في هذا لبلاغ لقوم عابدين» ، وقال عز وجل : «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا» ، وقال عز من قائل : «وقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون» .  
وحاصل القول أن الله خلق كل شيء للإنسان ، وهو مقابل ذلك مكلف أمام خالقه ، وفي هذا التكليف مقسم إلى قسمين ، كافر ومؤمن ، فالؤمن يجاهد الكافر من أجل إخضاعه لسلطان رب العالمين ، وهذا الإخضاع الذي يأتي بالسلام الحقيقي على هذه الأرض لا يكون إلا بالإسلام .

## أسلوب القرءان عن الآخرة

إن أسلوب القرءان الذي اختير للاستدلال حول العقيدة باليوم الآخر، والدعوة إلى الإيمان به، هو أولاً دعوة الناس إلى مشاهدة ما في أنفسهم وما حولهم وما في الآفاق من آثار ومعجزات من مظاهر قدرته سبحانه وتعالى، وهو القائل: «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»، وهو القائل: «وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون».

فالخلاصة من الآيتين الكريمتين تعطي هذا المعنى، إنكم يا قوم لستم من القوة والعظمة أن تروا رأي العين ما لا يأتي تحت حواسكم أو تعلموا حقيقته بالاعتماد على تجاربكم، إلا أنه لو فتحت أعينكم ونظرتم إلى آيات الله وآثاره ومظاهر قدرته التي تنظرون بعضها، وتأملتم أيضاً في خلقكم وفي أنفسكم، وبذلتم جهوداً صادقة للوصول إلى الحقيقة في كل هذه المحسوسات والمرئيات، فإنه من الأكيد يتبين لكم ما يقال في هذا القرءان الذي جاء على لسان رسوله الكريم، وهو القول الحق.

فالقرآن يدعو إلى التأمل والتفكير فيما هو أكثر بدهاءة وجلاء من ذلك، إن ما نراه بعيداً عن العقل والقياس هو في الواقع قريب، فالله تبارك وتعالى يقول: «الله الذي رفع السماوات بغير عمد، ترونها، ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمى، يدبر الأمر، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون» فالآية ناطقة باستشهاد على آثار الأجرام السماوية، وعلى أن الله خلق هذا الكون البديع المنسق، وأن قدرته تحرك كل شيء بما فيها السيارات العظيمة، والذي قدرته قد أقامت طبقات الكون على دعائم غير مرئية وغير محسوسة يعجز الخلق عن إدراكها، أليس ذلك بقادر على أن ينشأ الخلق نشأة أخرى. وهو سبحانه حينما يدعونا إلى التفكير في آياته وآثاره وقدرته وحكمته يدعونا أيضاً إلى التفكير في آياته وقدرته وحكمته في عالمنا القريب - أي الأرض - يقول سبحانه: «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة، إن الله على كل شيء قدير»، وقوله تعالى: «وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون»، وقوله عز وجل: «ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت، إن الذي أحيانا لمحيي الموتى، إنه على كل شيء قدير». وهكذا يدعونا بعد هذا إلى التفكير فيما وضع في ذات أنفسنا من آثار قدرته وحكمته، وذلك في قوله تعالى: «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا»، وفي قوله سبحانه وتعالى: «وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون» وقوله عز

وجل : « إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب » ، وقوله جلت قدرته « قال من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » . وقوله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقه ، فخلقنا العلقه مضغه ، فخلقنا المضغه عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ، ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » .

والقرءان يدعونا بعد التفكير في آياته وآثاره الغريبة إلى التفكير أيضا في أوثق ما يكون من العلاقة بعقلنا العام ، فهو يؤكد لنا أن إخراج الأحياء من العدم هو أصعب من خلقها مرة أخرى على صورتها الأولى بعد انتشار أجزائها ، فالذي لم يعجز عن العمل الصعب ، كيف يعجز عن هذا العمل الهين ؟ وهو القائل في محكم التنزيل : « أو لم يروا كيف يبدي الله الخلق ثم يعيده ، إن ذلك على الله يسير » وقوله عز وجل : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه » .

وقد يبادر إلى ذهن الجاهل أنه كيف يمكن للذي فني جسده غرقا و إحراقا أو دسا تحت التراب أو تقطع ربلا ربلا ، أن يعاد جسده الأول وتنفخ في روحه فيتمثل بشرا سويا ، ويأخذ صورته الأولى . إن القرءان يؤكد لنا أن الله عز وجل قادر أن يعيد لها عين جسدها الأولى مهما انعدمت بطريقة أو بأخرى ، وذلك في قوله تعالى : « قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » ، وقوله تعالى : « وعندنا مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر وما تستقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » .

إن الهدف من الآيتين هو رفع كل لبس عن اليوم الآخر ، وأن تصور عقول المنكرين هو تصور ضيق لا يتسع لتصور البعث بعد الموت .

وهناك تأكيد آخر يؤكد القرآن ، وهو أن النظام القائم على الحكمة الإلهية ليس مهما بدون غاية ، قال تعالى : « أفحسبتم أنها خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق » وقال أيضا : « وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ، وما خلقناهما إلا بالحق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ، إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين » . فالآيتان يشيران إلى أن نظام هذا الكون ليس عبثا سيبقى سائرا إلى أجل ثم ينعدم ، وإن كنتم تعتقدون أن الله صنع هذا النظام المتقن ، فعليكم أن تستعينوا بما قد آتاكم الله من قوة العقل والنظر لتعلموا أن ليس شيء في عالم الوجود إلا وله غاية .

وهنا يتجلى السؤال إذا كان هذا العالم الكوني لم يخلق عبثا ، فأى مصير آخر غير العدم ؟ إن القرآن نجد فيه جوابا تفصيليا على ذلك في الآيات التالية :

« ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى » .

« وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » .

ثم أن القرءان يصور لنا أهوال يوم القيامة :

« إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت » .

«إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت» .

«فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرجت ، وإذا الجبال نسفت» .

«فإذا برق البصر وخسفت القمر وجمع الشمس والقمر» .

«وحملت الأرض والجبل فدكتا دكة واحدة»

«يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، وبرزوا لله الواحد القهار» .

فالأيات في حد ذاتها إشارات واضحة على أن نظام العالم الجاري هو ليس بنظام سرمدى ، وإنما هو نظام موقت له أجل معلوم ، فإذا انتهى إليه وخبا ، فليس ذلك معناه العدم ، بل تنتهي سلسلة لتتلوها سلسلة الخلق والإبداع ، فيستبدل الطور الخاص الذي نشاهده الآن ويقوم مقامه نظام آخر .

أما كيف ومن أي نوع سيكون ذلك النظام ؟ فإن القراءان جلي الكلام في ذلك ، إذ أكد أن النظام سيكون صور ارتقائية ، وإتمام لنقائص ، لكن لا للأشياء المادية ، وإنما للمعاني المجردة . والحقائق اللطيفة البسيطة ، فسيوزن الخير والشر ، والبر والإثم ، والفضيلة والرذيلة والإيمان والكفر ، والأخلاق والملكات ، والنيات والإرادات ، والعواطف والهواجس ، والأحاسيس والأفعال . والقانون هناك ليس ماديا ، وإنما معنويا ، وفي ذلك يقول القرآن :

«إن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسؤولا» .

«بومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة

شر يره»

«لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» .

«يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية» .

فنظام الحياة هناك في الآخرة لا ينفع معه المال والجاه والتحالف والأصدقاء والأقرباء وسلطة اللسان والسعي ، بل هناك تلبو كل نفس بما أسلفت . وهذا واضح في القراءان وضوح الشمس ، فهناك آيات بهذا الصدد :

«ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون» .

«واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم

ينصرون» .

«يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم»

«يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ يغنيه» .

ونظام الآخرة مبنى على الجزاء بالعدل والقسط ، فقد ينال فيه كل إنسان ما يستحقه من حسن أو

قبح ، فالقراءان يقول :

«أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار» .  
«أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم  
ومماتهم ، ساء ما يحكمون» .

«وأزلفت الجنة للمتقين ، وبرزت الجحيم للغاوين» .

وخلاصة القول ، فإن القرءان قد عنى عناية خاصة بإرساخ فكرة الاعتقاد بأن الدنيا إنما هي منزل  
مسوقفة ، وأن الآخرة هي دار القرار «من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام  
للعبيد» ، وأن الذي يغتر بمظاهر هذه الدنيا ويفتنن بلذاتها ، فإنها يضيع على نفسه نعيم الحياة الأخرى  
ولذاتها ، فالقرآن يقول : «قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير للمتقين» .

«أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل» .

«بل تؤثرن بالحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى» .

«كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد  
فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» .

«أعلموا أنها الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكار في الأموال والأولاد كمثل غيث  
أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ، وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله  
ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» .

«زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل  
المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من  
ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من  
الله» .

حقا أسلوب قرآني مؤثر بأبلغ أسلوب بياني يؤثر الآخرة على الدنيا ، والتضحية بالمنافع الدنيوية  
للحصول على السعادة الأبدية في الأخرى . إن حكمة الله العادلة يوم القيامة لا تغادر صغيرة ولا  
كبيرة ، لأن الإنسان تسجل عليه أعماله الصغيرة والكبيرة ، فالكتاب الذي يعرض عليه لا يفلت  
صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» وقد توضع  
أعماله في ميزان القسط ، سيئاته في كفة ، وحسناته في كفة «فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة  
راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وما أدراك ما هية ، نار حامية» ، «ووضع الكتاب فترى  
المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ،  
ووجدوا ما عملوا حاضرا» ، والأدهى من هذا أن الإنسان يشهد عليه جلده وتشهد عليه جوارحه ،  
فهو يشهد على نفسه بنفسه ، قال تعالى : «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا  
يعملون» . وقال جلت قدرته : «حتى إذا جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا  
يعلمون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ، وهو خلقكم أول



مرة وإليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون» ، وقال سبحانه : «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا» .

ما أعظم القراءان في أسلوبه عن الآخرة ، «تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم» ، قال صلى الله عليه وسلم «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وقال أيضا «ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده» ما أعظم القراءان في أسلوبه عن دنيانا وعن اليوم الآخر.

## تلاوة القرآن

القرآن كتاب الله «الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد»، عجزت عنه أهل الأفكار بما فيه من القصص والأخبار، فيه سلوك النهج القويم، والطريق إلى صراط مستقيم، فصلت فيه الأحكام، وفرق بين الحلال والحرام، هو الضياء والنور والنجاة، فيه شفاء الصدور، وهو جبل الله المتين، ونوره المبين، لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي غرائبه، أرشد الأولين والآخرين، أقبل عليه البشر، وسمعه الجن فولوا إلى قومهم منذرين «قالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشاد فأما به ولن نشرك بربنا أحدا»، من تمسك به فقد هدي إلى صراط مستقيم، «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» من أسباب رعايته حفظه في المصاحف والصدور، والمواظبة على دراسته مع مراعاة شروطه وآدابه. قال صلى الله عليه وسلم «أقل عبادة أمتي تلاوة القرآن» وقال أيضا «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» وقال أيضا: «يقول الله تبارك وتعالى من شغله قراءة القرآن عن دعائي ومسألتي، أعطيته أفضل ثواب الشاكرين» وعنه صلى الله عليه وسلم «إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، فليل يارسول الله، وما جلاؤها؟ فقال: تلاوة القرآن وذكر الموت». وقال أحمد بن حنبل: رأيت الله عز وجل في المنام فقلت: يارب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك، قال: بكلامي يا أحمد، قال، قلت: يارب بفهم أو بغير فهم؟ قال: بفهم وبغير فهم. وقال الفضيل بن عياض: حامل القرآن حامل رايه الإسلام، فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو تعظيما لحق القرآن.

والحامل لكتاب الله عليه أن لا يغفل عليه، وقد وردت أحاديث في ذم الغافلين، قال صلى الله عليه وسلم «ما آمن بالقرآن من استحل محارمه» وقال أيضا إقرأ القرآن ما نهاك، فإن لم ينهك فلست تقرؤه» وقال أيضا «أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها». وقال أنس بن مالك: رب تال للقرآن والقرآن يلعنه. وقال أبو سليمان السداراني: الربانية أسرع إلى حملة القرءان الذين يعصون الله عز وجل منهم إلى عبادة الأوتان حين عصوا الله تعالى بعد القرآن. وقال ابن مسعود، ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليته إذا الناس ينامون، وبنهاره إذا الناس يفرطون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكاؤه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون. وبخشوعه إذا الناس يختالون، وينبغي لحامل القرآن أن يكون مستكينا لنا وليس له أن يكون جافيا ولا مماريا ولا صياحا ولا سخابا ولا حديدا. وقال بعض

السلف : إن العبد ليفتح سورة فتصلي عليه الملائكة حتى يفرغ منها ، وإن العبد ليفتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها ، فليل له وكيف ذلك ؟ فقال : إذا أحل حلالها وحرم حرامها صلت عليه وإلا لعنته . والقراءان له أدب في قراءته ، فهناك عشرة شروط :

الأول : في حال القاريء ، وهو أن يكون على وضوء في هيئة المتأدب مع السكون جالسا أو قائما . مستقبل القبلة ، جالسا كجلوس التلميذ أمام أستاذه ، وإن كانت القراءة في المسجد فهي أفضل ، ولا بأس إن قرأ مضطجعا ، قال تعالى «الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض» ، قال سيدنا علي كرم الله وجهه : من قرأ القراءان وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة ، ومن قرأه وهو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة ، ومن قرأه في غير صلاة وهو على وضوء فخمس وعشرون حسنة ، ومن قرأه على غير وضوء فعشر حسنات ، وما كان من القيام بالليل فهو أفضل ، لأنه أفرغ للقلب .

الثاني ، في مقدار القراءة ، والقراء عاداتهم مختلفة في الاستكثار أو الاختصار ، فمنهم من يختم القرآن في يوم وليلة ، وبعضهم مرتين ، وبعضهم في شهر ، وقد قال صلى الله عليه وسلم «من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه» ، وقالت عائشة رضي الله عنها لما سمعت رجلا يهذر القرآن هذرا «إن هذا ما قرأ القراءان وما سكت» ، وكان جماعة من الصحابة منهم عثمان وزيد بن ثابت وابن مسعود وابن كعب يختمون القرآن في كل جمعة .

والتفصيل في مقدار القراءة إن كان من العابدين السالكين فلا ينقص عن ختمتين في الأسبوع ، وإن كان من السالكين بأعمال القلب وضروب الفكر ونشر العلم فلا بأس أن يقتصر على أسبوع ، وإن كان نافذ الفكر في معاني القراءان فقد يكتفي في الشهر مرة نظرا لكثرة حاجته إلى كثرة التريد والتأمل .

الثالث ، في وجه القسمة ، روي أن عثمان رضي الله عنه كان يفتح ليل الجمعة بالبقرة إلى المائة ، وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم ، وليلة الإثنين بطه إلى طسم ، موسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمان ، ويختم ليلة الخميس . وقيل أحزاب القراءان سبعة ، فالحزب الأول ثلاث سور ، والحزب الثاني خمس سور ، والحزب الثالث سبع سور ، والرابع تسع سور ، والخامس إحدى عشر سورة ، والسادس ثلاث عشرة سورة ، والسابع المفصل من ق إلى آخره ؛ هكذا حزبه الصحابة رضوان الله عليهم .

الرابع ، في الكتابة ، يستحب تحسين الكتابة وتبينها وتزيينها مع الحذر من الخطأ واللحن في القراءة .

الخامس ، الترتيل ، وهو معين على التفكير في كتاب الله ، والتوعدة فيه تعني التوقير والاحترام ، وذلك أشد تأثيرا في القلب من السرعة والاستعجال ، قال ابن عباس رضي الله عنه : لأن أقرأ إذا زلزلت والقارة وأتدبرهما . أحب إلي من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهديرا .

السادس ، البكاء ، وهو مستحب مع القراءة قال صلى الله عليه وسلم «اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا» .

السابع ، مراعاة الآيات ، هناك آيات السجود تستوجب السجود ، سواء قرأها القاريء أو سمعها من غيره ، وهذا السجود لا يكون إلا عن طهارة ، وفي القرآن أربعة عشر سجدة ، وأقل السجدة وضع الجبهة على الأرض وأكمله أن يكبر ويسجد ، ويدعو في سجوده بما يليق بالآية التي قرأها ، فمثلا قرأ قوله تعالى «خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون» يقول في سجوده : اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك ، المسبحين بحمدك ، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك أو على أوليائك . ويشترط في السجدة شروط الصلاة من ستر العورة واستقبال القبلة وطهارة الثوب والبدن من الحدث والخبث .

الثامن ، التعود عند بدء القراءة ، كأن يقول : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم «رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون» وليقرأ قل أعوذ برب الناس وسورة الفاتحة ، وعند الختم من القراءة يقول : صدق الله العظيم ، وبلغ رسوله المصطفى الكريم ، اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه . الحمد لله رب العالمين ، وأستغفر الله الحي القيوم . وإذا مر بآية تسييح سبح وكبر ، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا استغفر ، وإذا مر بمرجو سأل أو بمخوف استعاذ . قال حذيفة : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فابتدأ بسورة البقرة ، فكان لا يمر بآية إلا سأل ، ولا بآية عذاب إلا استعاذ ، ولا بآية تنزيه إلا سبح ، فإذا فرغ قال ما كان يقوله صلى الله عليه وسلم عند ختم القرآن «اللهم ارحمني بالقرآن ، واجعله لي إماما ونورا وهدى ورحمة ، اللهم ذكرني منه ما نسيت ، وعلمني ما جهلت ، وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار ، واجعله لي حجة يارب العالمين» . التاسع ، الجهر بالقراءة ، جائز إلى حد أن يسمع نفسه على الأقل ، فأما الجهر به لدرجة أن يسمعه غيره فهو محبوب على وجهه ، ومكروه على وجه آخر . قال صلى الله عليه وسلم «فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية» وفي لفظ آخر «الجاهر بالقرآن كالجهر بالصدقة ، والمسر به كالسر بالصدقة» وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة في صلاته - وكان حسن الصوت - فقال لغلامه : اذهب إلى هذا المصلي فمره أن يخفض صوته ، فقال الغلام ، إن المسجد ليس لنا وللرجل فيه نصيب ، فرفع سعيد صوته وقال : يا أيها المصلي ، إن كنت تريد الله عز وجل بصلاتك فاخفض صوتك ، وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، فسكت عمر بن عبد العزيز وخفف ركعته ، فلما سلم أخذ نعليه وانصرف ، وهو يومئذ أمير المدينة . ويدل على استحباب الجهر ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد سمع جماعة من أصحابه يجهرون في صلاة الليل فصوب ذلك . وقال : «إذا قام أحدكم من الليل يصلي فإن بالقراءة ، فأين الملائكة وعمار الدار يستمعون قراءته ويصلون بصلاته» ومر صلى الله عليه وسلم على ثلاثة من أصحابه رضوان الله عليهم مر على أبي بكر رضي الله عنه وهو يخافت ، فسأله عن ذلك فقال : إن الذي أناجيته هو يسمعي . ومر على

عمر رضي الله عنه وهو يجهر، فسأله عن ذلك، فقال أوق الوسنان وأجزر الشيطان. ومضى على بلال وهو يقرأ آيات من هذه السورة وآيات من هذه السورة، فسأله عن ذلك، فقال: أخلط الطيب بالطيب، فقال صلى الله عليه وسلم «كلكم قد أحسن وأصاب».

العاشر، تحسين القراءة وترتيلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفرد يغير النظم، قال صلى الله عليه وسلم «زينوا القرآن بأصواتكم». واستمع صلى الله عليه وسلم ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فوقفوا طويلاً، ثم قال: «من أراد أن يقرأ القرآن غصاً طرياً كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»، وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود «اقرأ علي»، فقال: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أنزل، فقال صلى الله عليه وسلم: إني أحب أن أسمع من غيري، فكان يقرأ وعينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تفيضان. ولكي يكون تأثير تلاوة القرآن على الباطن يجب فهم أصل الكلام وعظمته وعلوه ولطف الله سبحانه وتعالى بخلقه في نزوله على عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه. ثم التعظيم للمتكلم، فالقاريء للقرآن ينبغي أن يحضر قلبه. وأن يحضر فيه عظمة المتكلم، ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر، وأن تلاوته هي كلام الله عز وجل، وأنه سبحانه وتعالى يقول «لا يمسه إلا المطهرون»، فإذا حضر بياله العرش والكرسي والسماوات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار فليعلم أنه ربي سبحانه وتعالى هو خالقها، وأن الكل في قبضته وتحت قدوته، وهذا غاية العظمة والتعالي.

وحضور القلب وترك حديث النفس ضروري، قال تعالى «يا يحيى خذ الكتاب بقوة». أي بجهد واجتهاد، ومنصرف المهمة إليه. كان بعض السلف إذا قرأ آية ولم يكن قلبه معها أعادها ثانية.

أما التدبير، فهو المقصود من القراءة، ولذلك سن الترتيل، قال علي كرم الله وجهه: لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها. ويروى أنه صلى الله عليه وسلم «قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، فرددها عشرين مرة» وإنما ردها صلى الله عليه وسلم لتدبره في معانيها، عن أبي ذر قال. قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة فقام بآية يرددها وهي «إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم» الآية. وحكي عن أبي سليمان الداراني أنه قال: إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس، ولولا أنني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها. ثم التفهم والاستيضاح لكل آية آية، حيث أن القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل وذكر أفعاله، وذكر أحوال الأنبياء، وذكر الأوامر والزواجر، وذكر الجنة والنار. قال ابن مسعود رضي الله عنه: من أراد علم الأولين والآخرين فليوثر القرآن. وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عز وجل وصفاته إذ لم يدركها عدد من خلقه، ومن لا يزال ينظر إلى الصنعة فقد يرى الصانع. ثم هناك التخلي عن موانع الفهم، حيث أن عدداً من الناس منعوا لمعاني القرآن بسبب حجب أسد لها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب القرآن وأسراره، قال صلى الله عليه وسلم «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت» والقرآن هو من جملة معاني الملكوت. وهناك أيضاً التخصيص، يعني أن يعلم أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي صلى الله عليه وسلم وأُمَّته، أما التأثير

- وهو أن يتأثر القلب بآثار مختلفة حسب اختلاف الآيات - فلكل فهم حال ووجد يتص به القلب من الحزن والخوف والرجاء وغيره، ومهما تمت معرفته كانت لخشية، قال الحسن : والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا أكثر حزنه وقل فرحه وأكثر بكاءه وقل ضحكته وأكثر نصبه وشغله وقت راحته وبطالته . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن مسعود اقرأ علي، قال : فافتتحت سورة النساء، فلما بلغت «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيد» رأيت عينيه تدرقان بالدمع فقال لي : حسبك الآن» وهذا لأن تلك المشاهدة استغرقت قلبه كلية .

ثم هناك الترقى ، وهو أن يترقى بسمعه الكلام من الله عز وجل لا من نفسه ، قال جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه : والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون . وسألوه عن لحقته في الصلاة حتى خر مغشيا عليه ، فلما سرى عنه قيل له في ذلك فقال : ما زلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته .

وأخيرا التبري — وهو أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بين الرضا والتزكية ، قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه : وعد ابن ثوبان أخا له أن يفطر عنده فأبطأ عليه حتى طلع الفجر فلقيه أخوه من الغد فقال له : وعدتني أنك تفطر عندي فأخلفت ، فقال : لولا ميعادي معك ما أخبرتك ، الذي حبسني عنك ! إني لما صليت العتمة ، قلت ، أو تر قبل أن أجيئك لأني لا آمن ما يحدث من الموت ، فلما كنت في الدعاء من الوتر رفعت إلى روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة ، فهازلت أنظر إليها حتى أصبحت . إن هذه المكاشفات لا تكون إلا بعد التبري من النفس وعدم الالتفات إليها والي هواها . وعلى أي حال فإن أحوال المكاشفات تكون حسب تلاوة الآية ، فمثلا آية الرجاء يغلب فيها الاستبشار وتنكشف صورة الجنة فكأنه يراها ، وآية الخوف والتحذير فيها الخوف والكشف عن النار فيرى أنواع عذابها ، وقس على هذا المثال في آيات الرحمة واللفظ والانتقام والبطش ، كل ذلك حسب الكلمات والصفات أثناء تلاوة القرآن .

## التوحيد

التوحيد هو الأصل في حقيقة التوكل ، والتوكل فضائله متجلية في آيات كثيرة ، منها قوله عز وجل «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين» وقوله تعالى «إن الله يحب المتوكلين» وقوله جللت قدرته «من يتوكل على الله فهو حسبه» وقوله سبحانه «ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم» .

فالله حكيم عزيز لا يذل من استجار به ، ولا يضيع من لاذ بجانبه ، قال تعالى «إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم» ، إن ما سوى الله عبد مسخر ، حاجته مثل حاجتكم ، فكيف يتوكل عليه وهو في أشد الحاجة إلى الله ، وقال عز وجل «إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه» ، وفي الأخبار عما رواه ابن مسعود قال قال صلى الله عليه وسلم «أرأيت الأمم في الموسم ، فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبنتني كثرتهم وهياتهم ، فقيل لي : أرضيت ؟ قلت : نعم ، قيل ، ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب . قيل : من هم يا رسول الله ؟ قال : الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسرقون ، وعلى ربهم يتوكلون» فقام عكاشة وقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اللهم اجعله منهم» فقام آخر وقال : يا رسول الله ، ادع أن يجعلني منهم ، فقال صلى الله عليه وسلم «سبقك بها عكاشة» ، وقال صلى الله عليه وسلم «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا» . وقرأ الخواص قوله تعالى «وتوكل على الحي الذي لا يموت» إلى آخرها ، فقال : ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى . وقال بعضهم : متى رضيت الله وكيلا ، وجدت إلى كل خير سبيلا .

والتوكل من أبواب الإيمان ، وكل أبواب الإيمان لا تتم إلا بعلم وحال وعمل . والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل ، وعمل هو الثمرة ، وحال هو المراد باسم التوكل .

فالعلم الذي هو الأصل ، والمسمى إيمانا في أصل اللسان ، والإيمان هو التصديق ، والتصديق بالقلب علم ، وإذا أصبح قويا سمي يقينا ، ولليقين أبواب كثيرة ، نأخذ منها ما نبني عليه التوكل ، وهو التوحيد الذي ترجمه «لا إله إلا الله وحده لا شريك له» .

قلنا إن التوحيد هو الأصل ، وهو من علم المكاشفة ، وله أربعة مراتب ، وهو لب ، ولب اللب ، وقشر ، وقشر القشر .

فالرتبة الأولى ، أن يقول الإنسان بلسانه « لا إله إلا الله » وقلبه غافل أو منكسر . والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ كما هو اعتقاد العوام . والثالثة مشاهدة ذلك بطريق الكشف ، وهو مقام المقربين . والرابعة أن لا يرى في الوجود إلا واحد ، وهي مشاهدة الصديقين ، وتسمية الصوفية الفناء في التوحيد ، قال تعالى « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه »

وقد يتبادر إلى الذهن عنه سبحانه وتعالى كيف لا يرى في الوجود إلا وحده ، وقد نرى السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة لا حصر لها ، فكيف يكون الكثير واحدا ؟ إن ذلك هو غاية المكاشفات ، قال أبو حامد الغزالي رحمه الله ، « أسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب ، فقد قال العارفون : إفشاء سر الربوبية كفر » . كم نلاحظ من إنسان يشاهد آخر ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وأعضائه ، والحالة أنه مستغرق بواحد ليس فيه تفريق ، وكأنه عين الجمع ، فكذلك كل ما في الوجود من الخالق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة ، فهو باعتبار واحد . وهذه المشاهدة التي لا يكون فيها إلا الواحد الأحد قد تدوم وقد تكون كالبرق الخاطف وهو الأكثر ، وقد أشار إلى هذا الحسين بن منصور الحلج حيث رأى الخواص يدور في الأسفار فقال له ، فيما إذا أنت ؟ قال أدور في الأسفار لأصحح حالتي في التوكل — وقد كان من المتوكلين — فقال الحسين : قد أفنيت عمرك في عمران باطنك ، فأين الفناء في التوحيد ؟ وكأن الخواص كان في تصحيح المقام الثالث من التوحيد ، فطالبه بالمقام الرابع .

والمقام الثالث الذي يبني عليه التوكل ، وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله ، وأن كل عطاء ومنع وغنى وفقير وحياة وموت إلى غير ذلك ، كل ذلك بيد الله عز وجل ، لا شريك له فيه ، فإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره ، بل كان منه خوفك وإليه رجائك وبه ثقتك وعليه توكلتك ، وانفتحت إليك أبواب المكاشفة واتضح لك ذلك أتم من المشاهدة بالبصر ، وقد يصدق الشيطان عن هذا التوحيد صدودا في مقام يرجو به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك ، كأن يجعلك تلتفت إلى اعتمادك على المطر في خروج الزرع ، وعلى الغيم في نزول المطر ، وعلى البرد في اجتماع الغيم ، وهذا شرك في التوحيد وجهل بحقائق الأمور . قال تعالى : « فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم البر إذا هم يشركون » قيل معناه ، أنهم يقولون لولا استواء الرياح لما نجونا . فإذا انكشف لك أن جميع ما في السموات والأرض مسخرات بإذن الله ، انصرف عنك الشيطان خائبا وأيس بسبب عدم مزج توحيدك بهذا الشرك .

إن أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السماوات والأرض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى سمعوا تقديسها وتسييحها وشهادتها على نفسها ، لا يسمعها الذين هم عن السمع معزولون ، والعجيب كيف تتكلم وتنطق وبماذا تنطق هذه الذرات التي خلقها الله في الأرض والسماوات وهي تسبح بحمده ؟ فعليك أن تعلم كل ذرة مع أرباب القلوب مناجاة في السر ، وذلك مما لا ينحصر ولا يتناهى ، وأنها كلمات تستمد من بحر كلمات الله التي لا نهاية لها ، قال تعالى « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر » إنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت ، وإفشاء



السر في ذلك لؤم، إن صدور الأحرار قبور الأسرار، قال صلى الله عليه وسلم «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» .

نعود إلى أبواب الإيمان التي ذكرنا منها العلم الذي هو الأصل، ونذكر الثاني فيها الذي هو الحال، وتتفاوت درجته في شدة الثقة والطمأنينة حسب تفاوت قوة اعتقاده، والاعتقادات والظنون في القوة والضعف تتفاوت تفاوتاً لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه، فتعلم أنه ليس وراء منتهى قدرته، ولا وراء منتهى علمه علم، ولا وراء منتهى غايته بك ورحمته لك عناية ورحمة، فاتكل لا محالة قلبك عليه ولم يلتفت إلى غيره، قائلاً لا حول ولا قوة إلا بالله .

أما إن ضعف الحال فقد يكون ذلك إما بضعف القلب أو ضعف اليقين، فالتوكل إذن لا يتم إلا بقوة القلب وقوة اليقين، إذ بهما تحصل السكينة والطمأنينة .

وسئل سهل عن التوكل : ما أدناه ؟ قال : ترك الأمانى . قيل : وأوسطه ؟ قال ترك الاختيار، وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال : لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه . وسئل ذو النون المصري عن التوكل فقال : خلع الأرباب وقطع الأسباب . فخلع الأرباب إشارة إلى علم التوحيد، وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال . وقال إمام مسجد لبعض المصلين : من أين تأكل ؟ فقال : يا شيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليت بها خلفك ثم أجيبك . وقد روي أن ابن عمر سرقت ناقته فطلبها حتى أعيأ، ثم قال : في سبيل الله تعالى، فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين، فجاءه رجل وقال : يا أبا عبد الرحمن، إن ناقتك في مكان كذا، فلبس نعله وقام ثم قال : استغفر الله وجلس، فقيل له : ألا تذهب فتأخذها ؟

فقال : إني كنب قلت في سبيل الله . وقيل لآخر، ادع الله على ظالمك، فقال : ما ظلمني أحد، ثم قال : إنما ظلم نفسه، ألا يكفيه المسكين ظلم نفسه حتى أزيده شراً وسرق من علي بن الفضيل دنانير وهو يطوف بالبيت، فرآه أبوه وهو يبكي ويحزن، فقال : أعلى الدنانير تبكي ؟ فقال : لا، ولكن على المسكين إن سئل يوم القيامة ولا تكون له حجة . تلکم أخلاق السلف رضي الله عنهم أجمعين .

## تقوية الإيمان

قال تعالى « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » وقال أيضا « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ». إن المؤمن إذا أنار الله قلبه نطق لسانه بتوحيده، وعرف ربه، وصدق وعده، وذهب عنه الشك. وابتعد عن الشرك والغفلة، وتيقظ وأيقن وأخلص، وبدل الغفلة باليقظة، والشك باليقين، والشرك بالإخلاص. فتبقى الشهوة والرغبة والرغبة والغضب، حتى إذا ما ازداد إيمانا نقصت الشهوة ونقص الغضب ونقصت الرغبة والرغبة. واستنارت معرفته كالشمس تشرق في قلبه بالأسحار فتبدو له الأشياء معنيه فيتخلص القلب حينئذ من الأسباب إلى ولي الأسباب، قال صلى الله عليه وسلم « من أحب لله، وأبغض لله، ومنع لله، وأعطى لله، ونصح لله، فقد استكمل الإيمان »، وقال صلى الله عليه وسلم لسلمان رضي الله عنه « قل اللهم إني أسألك صحة الإيمان، وإيمانا في حسن خلق، ونجاحا يتبعه فلاح، ومغفرة منك ورحمة ورضوانا ». وقال الحسن البصري رحمه الله في تفسير قوله تعالى : « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه » قال : غير مستكمل الإيمان : « فأولئك لهم الدرجات العلى، جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها، وذلك جزاء من تزكى » أي تطهر من الأسباب، وتلك درجة الصديقين وهم رفقاء الأنبياء، ومن هنا قالوا بزيادة الإيمان، وأن النور الذي يزيده العبد بربه معرفة به إيمانا كالشمس.

والمؤمن إذا آمن ودخل في ولاية الله وحزبه صار سعيدا فحرم على نفسه الدماء والأعراض والغيبة والبهتان والزور والتجسس وسوء الظن وهتك الستر وطلب العورات والجهر بالسوء والأذى، وحرم على نفسه الزنا والخمر والربا إلى غير ذلك من الموبقات، فأدى الصلوات الخمس والجمعة، وأدى الزكاة والحج ودعا إلى صلة الرحم والجهاد والبر بالوالدين والإحسان إلى الجار وإلى ذوي القربى، والصاحب بالجنب إلى غير ذلك.

والعبد قلبه أغلف، فإذا كان ممن خلقه الله للرحمة وسبقت له منه الحسنى جعل له نورا وصدق عليه قوله تعالى « أو من كان ميتا فأحييناه » أي بذلك النور، وهو قوله تعالى « وجعلنا له نورا يمشي به في الناس »، فصار القلب بلا غلاف وأذن له ربه بالإيمان فقال : « وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله » فذكر سبحانه وتعالى الإذن للنفس، ثم ذكر القلب فقال : « حب إليكم الإيمان وزينة في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان » فذكر تعالى فعله بالقلب ماذا فعل، وذكر فعل النفس

أنها قد آمنت وبهاذا آمنت ، فخرج القلب من الغلاف كسحابة انشقت عن شمس فاستنار، وسمع عن الله تعالى وأبصر الغيب فصار مجتبي ، وذلك قوله تعالى «هو اجتباكم» فصار موسوما بسمه الله ، وهو ذلك النور الذي أصابه ، فأسلم وجهه لله ، ومن أسلم وجهه لله فقد أسلم إليه بكليته ، قال تعالى «هو سماكم المسلمين» أي في اللوح المحفوظ وفي هذا» يعني القرءان : «ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس» . وقال جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث سأله عن الإحسان . فقال : أن تعبد الله كأنك تراه» وقال في حديث آخر «إن أقواما أيقنت قلوبهم ، حتى كأنهم عبدوا الله على رؤية . قال تعالى «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» .

والمؤمن يبني إيمانه على أربعة أركان .

فالأول معرفة ذات الله ، ومدارها على عشرة ، وهي العلم والقدم والبقاء ، وأنه سبحانه وتعالى ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض ، وأنه سبحانه ليس مختصا بجهة ولا مستقرا على مكان ، وهو سبحانه واحد فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

والثاني صفاته وتشتمل على عشرة أصول ، وهي العلم بكونه حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكلمي ، منزها عن الحوادث ، وأنه قديم الكلام والعلم والإرادة .

والثالث أفعاله تعالى ومدارها عشرة أصول ، فهي أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وأنها مكتسبة للعباد ، وهو سبحانه متفضل بالخلق والاختراع ، وله تعالى تكليف مالا يطاق ، وأن له الرعاية ، وأن بعثه الأنبياء جائز ، وأن نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ثابتة ومؤيدة بالمعجزة .

والرابع السمعيات ومدارها على عشرة أصول ، وهي إثبات الحشر والنشر والسؤال وعذاب القبر والميزان والصراط والجنة والنار وأحكام الإمامة وشروطها وفضل الصحابة حسب ترتيبهم .

فأما الأول وهو معرفة ذات الله سبحانه وتعالى ، وقد قلنا مدارها عشرة أصول ، وهي :

الأصل الأول معرفة وجوده سبحانه وتعالى : وهو القائل في محكم كتابه «ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أو تادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا وبنينا فوقكم سبعا شدادا وجعلنا سراجا وهاجا وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا» وقوله تعالى «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون» ، وقوله تعالى «ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا» . إنه من خلال هذه الآيات ومضمونها يتجلى العجب والترتيب المحكم فيما ورد ، وأنه لا يستغني عن صانع هو مدبره وفاعله يحكمه بقدرته ، وأن فطرة النفس تجد نفسها مقهورة أمام هذا الخلق والتسخير .

والأصل الثاني العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل ، وأزلي ليس لوجوده أول ، هو صانع العالم ومحدثه ومبدعه .

والأصل الثالث ليس لوجوده آخر ، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وما ثبت قدمه استحالة عدمه .

الأصل الرابع ، وهو سبحانه ليس بجوهر يتحيز ، بل يتعالى ويتقدس .

الأصل الخامس ، وهو سبحانه ليس بجسم مؤلف من جوهر .

الأصل السادس ، وهو سبحانه ليس بعرض قائم بجسم . أو حال في محل ، لأن العرض ما يجل في الجسم ، فهو ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض ، وأن العالم كله جواهر وأعراض وأجسام ، فهو سبحانه لا يشبه شيء ، بل هو الحي القيوم الذي ليس كمثله شيء .

الأصل السابع ، وهو سبحانه وتعالى منزه الذات من الاختصاص بالجهات ، فهو فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء .

الأصل الثامن ، وهو سبحانه وتعالى مستو على عرشه بالمعنى الذي أراده بالإستواء ، ولا يتطرق إلى ذلك سمات الحدوث والفناء ، وهو الذي أريد بالإستواء إلى السماء حيث قال «ثم استوى إلى السماء وهي دخان» وليس ذلك إلا بطريق القهر والاستيلاء ، واضطر أهل الحق إلى هذا التأويل ، كما اضطر أهل الباطن إلى تأويل قوله تعالى «وهو معكم أينما كنتم» حمل ذلك بالاتفاق على الإحاطة والعلم ، وليس الاستواء بمعنى الاستقرار .

الأصل التاسع ، وهو سبحانه وتعالى مع كونه منزه عن الصورة والمقدار ، مقدس عن الجهات والأقطار مرئي بالأعين والأبصار في الدار الآخرة ، بدليل قوله : «وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة» ، ولا يرى في الدنيا تصديق لقوله «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار» .

الأصل العاشر ، وهو سبحانه وتعالى واحد لا شريك له ، انفرد بالخلق والإبداع ، وهو المختص بالإيجاد والاختراع ، وهو القائل «لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا» .

وأما الثاني وهو العلم بصفاته سبحانه وتعالى ، وقد قلنا أن مدارها عشرة أصول هي : الأصل الأول ، أنه سبحانه وتعالى صانع العالم قادر ، وهو القائل في محكم كتابه «وهو على كل شيء قدير» .

الأصل الثاني ، أنه سبحانه وتعالى عالم بجميع الموجودات ومحيط بكل المخلوقات ، وهو القائل في محكم كتابه «لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء» .

الأصل الثالث ، أنه سبحانه وتعالى حي ، حيث أن من ثبتت قدرته وثبت علمه ثبتت بالضرورة حياته .

الأصل الرابع ، أنه سبحانه مرد لأفعاله ، فهو المبدئي المعيد ، والفعال لما يريد .

الأصل الخامس ، أنه سبحانه وتعالى سميع بصير لا يعزب عنه شيء ، فهو يعلم خفايا الأمور والتفكير ولا يشد عن سمعه ديبب نملة .

الأصل السادس ، أنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام ، وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف ، وكلامه لا يشبه كلام غيره ، كما لا يشبه وجوده وجد غيره .

الأصل السابع ، أنه سبحانه وتعالى قائم بنفسه قديم ، وكذا جميع صفاته ، لا تعتريه التغيرات ولا تحله الحوادث ، بل لم يزل في قدمه موصوفاً بمحامد الصفات ولا يزال في أبده .

الأصل الثامن ، أنه سبحانه وتعالى قديم لم يزل عالماً بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته . ومهما حدثت المخلوقات فقد حصلت مكشوفة له بعلم أزلي .

الأصل التاسع ، أنه سبحانه وتعالى إرادته قديمة ، وهي في القدم تعلقت بإحداث الحوادث في أوقاتها اللاتقة بها على وفق العلم الأزلي .

الأصل العاشر ، أنه سبحانه وتعالى عالم بعلم ، حي بحياة ، قادر بقدره ، مريد بإرادة ، متكلم بكلام ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة .

وأما الثالث وهو العلم بأفعاله سبحانه وتعالى ، وقد قلنا أن مدارها عشرة أصول هي :

الأصل الأول ، أن كل حادث في العالم هو فعله وخلقه واختراعه ، وأن جميع أفعال عباده مخلوقة له ومتعلقة بقدرته . تصديقا لقوله تعالى « وأسروا قولكم أو اجهروا به ، إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » .

الأصل الثاني ، أن انفراد سبحانه وتعالى باختراع حركات العباد لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على سبيل الاكتساب ، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا وخلق الاختيار والمختار جميعا ، فأما القدرة فوصف للعبد ، وخلق للخلاق ، وليست بكسب له . وأما الحركة فخلق للخلاق ووصف للعبد وكسب له ، فإنها خلقت مقدورة بقدره هي وصفه ، وكانت للحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة ، فتسمى باعتبار تلك النسبة كسبا .

الأصل الثالث ، أن فعل العبد وإن كان كسبا للعبد فلا يخرج عن كونه مرادا لله سبحانه ، فلا يجري في الملك والملكوت شيء طرفه عين إلا بقضاء الله وقدره وإرادته الإرادة لقضائه وقدره ولا معقب لحكمه ، يفضل من يشاء ويهدي من يشاء ، « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

الأصل الرابع ، هو أن الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع وتكليف العباد ، ولم يكن الخلق والتكليف واجبا عليه ، إذ هو الموجب والأمر والناهي .

الأصل الخامس ، أنه يجوز على الله سبحانه وتعالى أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه كقوله تعالى في محكم الكتاب « ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » .

الأصل السادس ، أن لله إيلام الخلق وتعذيبهم .

الأصل السابع ، أنه سبحانه وتعالى يفعل بعباده ما يشاء ، فهو القائل « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون» .

الأصل الثامن ، أن معرفة الله وطاعته واجبة بإيجاب الله سبحانه وتعالى وشرعه .

الأصل التاسع ، أنه ليس يستحيل بعثة الأنبياء عليهم السلام .

الأصل العاشر، أنه سبحانه وتعالى قد أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وناسخا لما قبله من الشرائع ، وأيده بالمعجزات الباهرة كانشقاق القمر وتسييح الحصى وانطاق العجماء وتفجير الماء بين أصابعه ، وإعجاز القرآن .

وأما الرابع وهو السمعيات وقلنا أن مدارها عشر، وهي :

الأصل الأول ، وهو الحشر والنشر، وقد أوردتهما الشرع والتصديق بهما واجب ، قال تعالى «ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحد» .

الأصل الثاني ، سواء منكر ونكير، وقد وردت به الأخبار، فيجب التصديق به ، لأنه ممكن .

الأصل الثالث ، عذاب القبر، وقد ورد الشرع به ، فقال تعالى «النار يعرضون عليها غدوا وعشيا، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب» .

الأصل الرابع ، الميزان وهو حق ، قال تعالى «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة» وقال تعالى «فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، و من خفت موازينه فأولئك الذين خسرو أنفسهم . . . الآية» .

الأصل الخامس ، الصراط ، وهو جسر ممدود على متن جهنم ، أرق من الشعرة وأحد من السيف ، قال تعالى «فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسؤولون» .

الأصل السادس ، أن الجنة والنار حق ، قال تعالى «سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين» .

الأصل السابع ، أن الإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم .

الأصل الثامن ، أن فضل الصحابة رضي الله عنهم على ترتيبهم في الخلافة ، إذ حقيقة الفضل ما هو فضل عند الله عز وجل ، وذلك لا يطلع عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الأصل التاسع ، أن شرائط الإمامة بعد الإسلام والتكليف خمسة : الذكورة والورع والعلم والكفاية والإمامة من قريش نسبة لقوله صلى الله عليه وسلم «الأئمة من قريش» . وإذا اجتمع عدد الموصوفين بهذه الصفات فالإمام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق .

الأصل العاشر، أنه لو تعذر الورع والعلم فيمن يتصدى للإمامة ، وكان في صرفه إثارة فتنة لا تطاق ، حكمنا بانعقاد إمامته .

فهذه الأركان الأربعة الحاوية للأصول الأربعين، هي من قواعد عقائد المؤمن، وبها يقتضي أهل السنة، قال صلى الله عليه وسلم عندما سئل « قيل أي الأعمال أفضل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: الإسلام، فقيل أي الإسلام أفضل؟ فقال صلى الله عليه وسلم الإيمان»، وقال صلى الله عليه وسلم «الإيمان بضع وسبعون بابا، أدناها إمطة الأذى عن الطريق».

## النية

النية لغة النهوض ، يقال ناء ينزء - أي نهض ينهض .

فالقلب يرتحل إلى الله عز وجل حتى يصل إلى المنتهى إن كان له طريق ، فإن حبس في الطريق فلتهمة وسوء أدب منع وانسد الطريق ، فعلى أي حال نهض من مكانه إن وجد الطريق أم لم يجد ، ونخاطب الجارحة التي تعمل ذلك العمل بأن تتحرك بحركاتها قائلًا إني واقف على الباب أبتغي من ربي عز وجل مرضاته . تلك هي النية .

والناس في نياتهم على درجات حسب تفاوت عقولهم ، روي عن الله عز وجل قال : «يا موسى ، إنما أجزى الناس على قدر عقولهم» ، وقال قائل ، صف لنا كيف التفاوت على قدر العقول ؟ قال : مثل رجل دخل المسجد فوجد الصف الأول قد قام ، فوقف في الصف الثاني ، فقد سقط من درجة الصف الأول . والصف الأول درجته كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول» ، ومن وقف في الصف الثاني عن غفلة لم ينل من صلاة المولى شيئا ، اللهم إن نوى أنه لو وجد مكانا لدخل في الصف الأول ، فبهذه النية استوى بالصف الأول ، وله مثل أجورهم لما نوى أنه مقيم فيهم ، أو تمنى أن يدخل في الصفوف ليصل إلى الصف الأول ، لكنه امتنع وتخرج مخافة أن يؤذي الناس أو يضيق عليهم ، فإنه يأخذ ما لأجر الصف الأول وزيادة . وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن النية والتقوى فقال «أحدثكم حديثا فاحفظوه ، إنما الدنيا أربعة نفر . عبد رزقه الله عز وجل فيها مالا وعلما ، فهو يتقي الله عز وجل ، ويصل رحمه فيه ، ويعطي لله عز وجل منه حقه ، فهو بأفضل المنازل . وعبد رزقه الله عز وجل علما ولم يرزقه مالا ، فهو صادق النية ، يقول لو أن لي ما لا عملت بعمل فلان ، فأجرهما سواء . وعبد رزقه الله عز وجل مالا ، ولم يرزقه علما فهو يتخبط في ماله بغير علم ، فلا يتقي فيه ربا ولا يصل فيه رحما ، ولا يعلم لله فيه حقا ، فهذا بأخبث المنازل . وعبد لم يرزقه الله عز وجل مالا ولا علما فهو يقول : لو أن لي ما لا عملت به بعمل فلان ، فهو بنيته ، فوزرهما سواء» وقال صلى الله عليه وسلم «من ترك الصلاة في الصف الأول مخافة أن يؤذي مسلما أو يزاحم أحدا ، فصلى في الصف الثاني أو الثالث . أضعف الله عز وجل أجره على من في الصف الأول» .

أوردنا هذا من أجل تفسير الحديث «إنما أجزى الناس على قدر عقولهم» ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «لا يعجبكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقدة عقله» ، وفي حديث عنه صلى الله عليه



وسلم «فالصادقون المخلصون قلوبهم محجوبة بالشهوات» فنيتهم النهوض بالقلب ، إذا نهضوا لم يجدوا منفذاً ، فيقفون حيث بلغوا من الجوى ، وأما الذين فتح لهم في الغيب ، فإن قلوبهم تنهض إلى العلا حتى تبلغ مقامه ، فهناك يبتغي مرضاة ربه تعالى ، وحركات الجوارح عند فراغه من العمل تلحقه بأثره ، فذلك النهوض هو النية ، والسابقون الذين وصلوا إلى الله عز وجل في مقامه ، يترضى ربه عز وجل ، ثم يلحقه العمل على الأثر ، فالنيات متفاوتة .

وابن آدم مطبوع على سبعة ، وهي الغفلة والشك والرغبة والرغبة والشهوة والغضب ، هذه أخلاقه السبعة ، فإذا جاء نور الهداية عرف ربه ووحده ، فنذهب الغفلة ويذهب الشك والشرك ، فهو يعلم الله يقينا بنية صادقة ، وينفي عنه الشرك ويزول الشك ، ثم لما جاءت الشهوة أملت الصدر بدخانها وفورانها ذهبت بضوء علمه واستنارته ، وتحير في أمر ربه كالشاك ، وظهر شرك الأسباب . والعبد كلما ازداد معرفة وعلماً بربه استنار قلبه وصدره ونقصت عنه الغفلة وكل الخصال السبع ، بعدها يمتلىء صدره بجلال الله وعظمته ، فعندها تحسن النية أكثر وينكشف الغطاء ، فيصير يقينا ويزول شرك الأسباب وتموت الشهوة ، ويذهب الغضب ، وتذهب الرغبة والرغبة ، فلا يرغب إلا في الله عز وجل ، ولا يرهب إلا منه ، ولا يغضب إلا في ذات الله عز وجل ولله ، ولا يشتغل بشهوة إلا بذكر الله عز وجل .

وقد يتبين لنا الآن مما سلف ، أن الذهاب إلى الله عليه بعقد النية الصادقة من غير التواء ، لقوله صلى الله عليه وسلم «وإنما لكل امرئ ما نوى» وإن علامة النية الصادقة ، عدم تغييرها بأعراض الشهوة وبأقية ، فاعقد العمل للحق ولا تترك العزم للخلق ، واعمل من غير شريك ولا اشتراك ، قال صلى الله عليه وسلم «اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» فلا ترضى بغير الحق ولا ترى ما سواه ، واجتنب سعيك للخلق ، لقوله صلى الله عليه وسلم «تعس عبد الدينار» فأثمر النية بالقربى ، وكن صورة في الدنيا ومعنى في العقبى ، وعلى قدر همتك وتركك تحظى من الحديث المشهور «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعد نفسك من أصحاب القبور» ، ووافق الحق بالإتفاق والوفاق ، وخالق النفس بالصبر على الفراق والمشاق ، والملاذ إلى من يشد له الوثاق «إلى عالم الغيب والشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون» .

## التوبة

- قال تعالى « والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » .  
وقال أيضا « وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » .  
وقال أيضا « إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم » .  
وقالوا أيضا « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم » .  
وقال أيضا « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه » .  
وقال أيضا « ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا » .  
وقال أيضا « واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إن ربى رحيم ودود » .  
والآيات في باب التوبة كثيرة نكتفي بهذا القدر .  
وقال صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس توبوا إلى الله ، فإنى أتوب إليه في اليوم مائة مرة » .  
وقال أيضا « كل بني آدم خطاء ، وخير الخطابين التوابون » .  
وقال أيضا « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » أي إذا جاءت الغرغرة بلغت روحه الحلقوم ، ولم يكن عقله تابئا ، فلا تقبل توبة العاصي ولا إيمان الكافر .  
وقال أيضا « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » .  
وقال أيضا فيما يحكي عن ربه عز وجل « أذنب عبد ذنبا ، فقال : اللهم اغفر لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب ، فقال : أي رب اغفر لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالى : عبدي أذنب ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، ثم عاد فأذنب ، فقال : أي رب اغفر لي ذنبي ، فقال تبارك وتعالى : أذنب عبدي ذنبا فعلم أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب ، اعمل ما شئت فقد غفرت لك .  
وقال أيضا « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا ، فسأل الله عن أعلم أهل الأرض ، فدل على راهب فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من من توبة ؟ فقال : لا ،

فقتله فكمّل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على رجل عالم ، فأثاه فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى كذا وكذا فإن فيها أناس يعبدون الله ، فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سواء . فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقال ملائكة الرحمة : جاء تائها مقبلا بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرا قط ، فأثاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيهما كان أدنى فهو له ، ففاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة .

وعن زر بن حبيش رضي الله عنه قال : أتيت صفوان بن عسال المرادي فقلت : هل حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهوى شيئا ؟ قال : نعم ، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره فناداه رجل أعرابي جاف جلف كان في آخر القوم بصوت جهوري : يا محمد يا محمد ، فقال له القوم : مه إنك قد نهيت عن هذا ، فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم نحواً من صوته : هاؤم ، فقال : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : المرء مع من أحب . قال زر : فما برح صفوان يحدثني حتى حدثني أن الله جعل بالمغرب بابا عرضه مسيرة سبعين عاما للتوبة ، لا يغلق ما لم تطلع الشمس من قبله ، وذلك قول الله عز وجل «يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا» .

والأحاديث في باب التوبة كثيرة نكتفي بهذا القدر .

إن التوبة من الذنوب تعني الرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، وهي مبدأ طريق السالكين ورصيد الفائزين ، ومفتاح الاستقامة ومطلع المقربين ، فالتجرد للخير قرب من الملك الديان ، والنزوح إلى الشر قرب للشيطان ، والمجتنب للشر بالرجوع إلى الخير إنسان ، فكل عبد يصحح وضعه إما إلى ملك أو إلى آدم أو إلى شيطان ، فالتائب قد أقام البرهان على صحة انتباهه إلى آدم بملازمة حد الإنسان ، والمصر على الطغيان قد سجل نفسه مع الشيطان ، فأما من صحح مساره نحو الخير فقد قارب ملائكة الرحمن ، والشر معجون مع الخير في طينة آدم لا تخلصه إلا نار الندم أو نار جهنم ، فالإحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الإنسان من خبائث الشيطان ، فما على الإنسان إلا أن يختار أهون النارين قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار القرار ، إما إلى الجنة وإما إلى النار .

فأفضل مبادرة هي التوبة إلى الله الذي يقبل التوبة عن عباده جميعا ، وهي تنتظم في ثلاثة أمور : علم وحال وفعل . فالعلم هو الأول ، والحال هو الثاني والفعل هو الثالث ، والعلم موجب للحال ، والحال موجب للفعل .

والعلم هو معرفة عظم ضرر الذنوب ، وهي الحجاب بين العبد وكل محبوب ، فإن عرف ذلك معرفة حقة ثار قلبه وتألّم بسبب فوات المحبوب وتأسف ، فيكون سبب فعله هذا ندما ، فإذا غلب هذا الألم على القلب انبعث منه في القلب حالة تسمى الإرادة والقصد إلى فعل له تعلق بالحال والماضي والمستقبل . فأما تعلقه بالحال فهو ترك الذنب الذي كان ملاسما له ، وأما بالاستقبال فهو العزم على

ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر، وأما الماضي فتلافي ما فات . وكثيرا ما تعني كلمة التوبة الندم ، قال صلى الله عليه وسلم «الندم توبة» وتعني أيضا ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ، وتعني أيضا خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء، وقال سهل بن عبدالله التستري : التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال . والأقاويل في معنى التوبة لا تنحسر.

ووجوب التوبة وارد في آيات وأحاديث كثيرة أوردنا بعضها، وواضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته، وشرح الله صدره بنور الإيمان، فسعى بنور الله بين يديه من ظلمات الجهل والضلالة .

والسالك إما أعمى لا يستغني عن القائد في خطوه، وإما بصير يهدى إلى أول الطريق ثم يهتدي بنفسه . ولاشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب الوصول إلى القرب، وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم، فإنه لو لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم، ولم يتوجع بسبب سلوكه في طريق البعد، وما لم يتوجع فلا يرجع، ومعنى الرجوع الترك والعزم، فلاشك أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب، فيكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة، وأما من يكن مرشحا بهذه الطريقة ففي التقليد والاتباع له مجال رحب يتوصل به إلى النجاة، بذلك يختار التائب الطريق، ويندرج تحت قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا» والنصوح الخالص لله تعالى، الخالي من الشوائب، وفضل التوبة عند الله ما ذكرها في محكم كتابه «إن الله يحب التوابين ويجب المتطهرين»، وقال عليه الصلاة والسلام «التائب حبيب الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له». والندم روح التوبة وبه تمام التلاقي، قد يحصل لا محالة عقب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله .

وبحكم ما هو مكتوب على الإنسان، ولن تتبدل سنة الله فيه، فإن كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره، وإن بلغ مسلما تبعا لأبويه غافلا عن حقيقة إسلامه، فعليه التوبة من غفلته بتفهم معنى الإسلام، فإنه لا يغني عنه إسلام أبويه شيئا ما لم يسلم نفسه، فإن فهم ذلك فعليه الرجوع عن عاداته للاسترسال وراء الشهوات بالرجوع إلى حدود الله في المنع والانفكاك والاسترسال، وهو من أشق أبواب التوبة، وفيه هلك الكثيرون، فدل ذلك على أن التوبة فرض عين في حق كل عبد قبل فوات الأوان، وقبل أن ينكشف الغطاء .

قال بعض العارفين، إن ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمره ساعة وأنت لا تتأخر عنها طرفة عين، فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا بحدافيرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعقب فيها ويتدارك تفريطه فلا يجد إليه سبيلا، وهذا ما يظهر من معاني قوله تعالى «من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين، ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها» والمعنى أنه يقول عند انكشاف الغطاء يا ملك الموت أخرني يوما اعتذر فيه إلى ربي وأتوب لنفسي، فيقول له، فنيت الأيام فلا يوم،

فيقول العبد، أخرنى ساعة، فيقول له : فنيت الساعات فلا ساعة، فيخلق عليه باب التوبة فيغرغر بروحه وتتردد أنفاسه في شراسفه ويتجرع اليأس والحسرة والندامة على ما ضاع من العمر، فيضرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال، فإذا زهقت نفسه وكان سبقت له من الحسنى خرجت روحه على التوحيد، فذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقاء والعياذ بالله، خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة، وصدق سبحانه وتعالى حين قال «وليس التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن» وقوله جلت قدرته «إنما التوبة على الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب» ومعناه عن قرب عهد الخطيئة بأن يندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن تتراكم فيرين القلب فلا يقبل المحو، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «أتبع السيئة الحسنة التي تمحها». وإن ترك مبادرة التوبة بالتسوية - يعني ظلمة القلب بالمعاصي - حتى إذا ما عاجلته المرض أو الموت لا يجد لنفسه مهلة للاشتغال بالمحو، وقد ورد في الخبر أن أكثر صياح أهل النار من التسوية، قال بعض العارفين : إن لله تعالى إلى عبده سرين يسرهما إليه على سبيل الإلهام. أحدهما : إذا خرج من بطن أمه يقول له : عبدي قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا، واستودعتك عمرك، واثمنتك عليه، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلى كيف تلقاني.

والثاني : عند خروج روحه يقول : عبدي ماذا صنعت في أماني عندك، هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء، أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب، وهذا إشارة إلى قوله تعالى «أوفوا بعهدي أوف بعهدكم» وإلى قوله تعالى «والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون».

إن القلب خلق في الأصل سليما، وكل مولود يولد على الفطرة، وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غير الذنوب وظلمتها. ثم أن نار الندم تحرق تلك الغيرة، ونور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة، وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات، والقلب المظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون بجواره، فاستعمال القلب في الشهوات يوسخه، وغسله بماء الدموع وحرقة الندم ينظفه ويطهره ويزكيه، وكل قلب زكي طاهر فهو مقبول، فالتوبة النصوح هي تزكية وتطهير القلب، قال صلى الله عليه وسلم «كفارة الذنب الندامة»، وسأل رجل ابن مسعود عن ذنب ألم به، هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرغان، فقال له : لا يغلق، فاعمل ولا تيأس. وقال عبد الله بن سلام : لا أحدثكم إلا عن بني مرسل أو كتاب منزل، إن العبد إذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفة عين. وقال عمر رضي الله عنه : اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة. وقال بعضهم : أنا أعلم متى يغفر الله لي. قيل متى؟ قال : إذا تاب علي. ويروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرأة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك، فقال : إلهي أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعت إليك أتقبلني؟ فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا : احببتنا فأحبيناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قبلناك. وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى : إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب رواق القلوب، وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندما وحزنا. فجنوا من غير جنون، وتبلدوا من غير عي ولا بكم، وإنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله، ثم شربوا

بكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء، ثم توهت قلوبهم في الملكوت، وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت، واستظلوا تحت رواق الندم، وقرأوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا علو الزهد بسلم الورع، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا، واستلأنوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاة وعروة السلامة، وسرحت أرواحهم في العلا حتى أناخوا في رياض النعيم، وخاضوا في بحر الحياة وردموا خنادق الجزع وعبروا جسور الهدى حتى نزلوا بفناء العلم، واستقوا من غدير الحكمة، وركبوا سفينة الفطنة، وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعدن العز والكرامة.

وصفات أخلاق الإنسان كثيرة، ولكنها تنحصر في أربع صفات من مشارات ذنوبه: صفات ربوبية، وصفات شيطانية، وصفات بهيمية، وصفات سبعية، وذلك لأن طينة الإنسان عجت من أخلاط مختلفة.

فصفات الربوبية يتشعب عنها الكبر والفخر والجبرية والمدح والثناء والعز والغنى ودوام البقاء وطلب الاستعلاء، ومن هنا تشعب كبائر الذنوب والمهلكات. وأما الصفات الشيطانية، فيتشعب عنها الحسد والبغي والحيلة والخداع والفساد والمنكر والغش والنفاق والبدع والضلال.

وأما الصفات البهيمية فيتشعب عنها الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج من زنا ولواط وسرقة وأكل أيتام وجمع حطام.

وأما الصفات السبعية فيتشعب عنها الغضب والحقد والتجهم والتهمج والشر والقتل واستهلاك الأموال.

وهذه الصفات الأربعة لها تدرج فطري، فقد تكون الصفة البهيمية أولا فتتلوها السبعية ثانيا، فإذا اجتمعنا معا اندرجتا نحو الصفة الشيطانية، فإذا اجتمعت الثلاثة دفعت نحو صفة الربوبية. فهذه أمهات الذنوب ومنها تنفجر على الجوارح، فبعضها في القلب كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار السوء وبعضها في العين والسمع، وبعضها في اللسان، وبعضها في البطن والفرج، وبعضها في اليدين والرجلين، وبعضها موزع على باقي البدن.

والذنوب تنقسم إلى ثلاثة، بين العبد، وبين الله، وبين حقوق العباد. فما يتعلق بالعبد كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به.

وما يتعلق بين العبد وبين ربه إذا لم يكن شركا فالعفو فيه أرجى وأقرب، وقد جاء في الخبر «الدواوين ثلاثة: ديوان يغفر، وديوان لا يغفر، وديوان لا يترك. فالديوان الذي يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى: وأما الديوان الذي لا يغفر فالشرك بالله تعالى، وأما الديوان الذي لا يترك فظالم العباد» وأما ما يتعلق بحقوق العباد فهو تركه الزكاة، وقتل النفس، وغصب الأموال وشتم الأعراض، والإغواء، والدعوة إلى البدعة، والترغيب في المعاصي وتهميج أسبابها، والذنوب منها الصغائر والكبائر، قال تعالى «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم»، وقال صلى الله عليه

وسلم «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرون ما بينهن إن اجتنبت الكبائر»، وقال صلى الله عليه وسلم «الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس»، وقد اختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر، من أربع إلى إحدى عشر أو يزيد، وقال بعضهم، كل ما أوجب الله عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة، وقال ابن مسعود لما سئل عنها: اقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله تعالى «إن تجنّبوا كبائر ما تنهون عنه» فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة.

ويظهر أنها حسب الأخبار أربعة في القلب هي الشرك، والإصرار على المعصية والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكره. وأربعة في اللسان هي شهادة الزور، وقذف المحصن، واليمين الغموس - أي الحق باطلاً وباطناً حقاً - والسحر. وثلاث في البطن هي شرب كل مسكر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا. واثنان في الفرج وهما الزنا، واللواط. واثنان في اليدين وهما القتل والسرقة. وواحد في الرجلين، وهي الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين. وواحدة في جميع الجسد وهي عقوق الوالدين.

وفي الخبر «من الكبائر السبتان بالسب، ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه المسلم». وقال أبو سعيد الخدري وغيره من الصحابة، إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، كنا نعتها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر.

والخلاصة أن كل ما يسد باب معرفة الله تعالى فهو من أكبر الكبائر، قال صلى الله عليه وسلم «الدنيا مزرعة الآخرة».

وأما الصغائر فإنها تكبر إذا كان الإصرار والمواظبة، ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار، قال صلى الله عليه وسلم «خير الأعمال أدومها وإن قل» وجاء في الخبر المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره.

والتائب عن ذنوبه إذا عزم عليه أن يراجع نفسه فيما مضى من حياته منذ بلوغه إلى الوقوف على سنه الحالي، فيحاسب نفسه عما مضى من عمره فيما أفناه سنة وشهراً ويوماً، فينظر إلى ما قصر فيه وإلى المعاصي التي اقترفها. فإن ترك صلاة عليه أن يقضيها، وإن بقي عليه صوم أو زكاة فعليه أداء ذلك، وإن كانت استطاعته للحج ولم يتفق له فعليه بأدائه.

وأما المعصي فعليه أن يفتش عليها أيضاً منذ بلوغه كانت سمعية أو بصرية أو لسانية أو بطنية أو بإحدى جوارحه حتى يحاول أن يطلع عليها جميعها صغائرها وكبائرها، ثم ينظر فيها، ويقسمها إلى قسمين، ما بينه وبين الله، وما بينه وبين الناس.

فأما التي بينه وبين الله فالندم والحسرة على ما فات أفضل، ويختار الحسنة التي تلائم ضحده تلك المعصية، فيكفر مثلاً سماع الملاهي بسماع القرآن ومجالس الذكر، ويكفر السكر بالتصدق، وهكذا يعالج كل شيء بضده.

وأما مظالم العباد فيتدارك ذلك أيضا بالندم والحسرة ، ويأتي بالحسنات التي ضدها ، مثلا يقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم ، وغضب الأموال بالتصدق ، ويكفر تناول أعراضهم من غيبة وقبح بالثناء على أهل الدين والطهارة : وإظهار ما يعرف من الخصال ، ويكفر القتل بإعتاق الرقاب . وروي أن معز بن مالك أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إني قد ظلمت نفسي وزنيت ، وإني أريد أن تطهرني ! فرده ، فلما كان من الغد أتاه فقال : يا رسول الله ، إني قد زنيت ! فرد الثانية ، فلما كان في الثالثة أمر به ، فحفر له حفرة ثم أمر به ، فرجم ، فكان الناس فيه فريقين : قائل يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته ، وقائل يقول ، ما توبة أصدق من توبته . فقال صلى الله عليه وسلم «لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم» . وجاءت الغامدية فقالت : يا رسول الله ، إني قد زنيت فطهرني ! فردها ، فلما كان من الغد قالت : يا رسول الله ، لم تردني ؟ لعلك تريد أن تردني كما رددت معزا . فوالله إني لحبلى : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما الآن فاذهبي حتى تضعي ، فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت : هذا قد ولدته ، قال : اذهبي فارضعيه حتى تفطميه ، فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز ، فقالت : يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام ! فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ، ثم أمر بها ، فحفر إلى صدرها وأمر الناس فرجموها ، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها ، فنضح الدم على وجهه فسبها ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال «مهلا يا خالد ، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكث لغفر له» ثم أمر بها ، فصلى عليها ودفنت .

قد يتبادر إلى الذهن سؤال ، فما قولك في تائبين ، أحدهما نسي الذنب ولم يشتغل بالتفكير فيه ، بينما الآخر جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندما عليه ، فأيهما أفضل ؟

البعض قال : حقيقة التوبة أن تجعل ذنبك بين عينيك ، والبعض قال : حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك ، لكل منهما صوابه مع إضافة .

إن تصور الذنب والتفجع عليه كمال في حق المبتدئ ، لأنه إذا نسيه لم يكتر احتراقه ، وبذلك لا تقوى إرادته نحو السلوك المستقيم . أما إلى سالك الطريق نقصان ، فإنه شغل مانع عن سلوك الطريق ، فإن ظهرت له مبادئ الوصول وانكشفت له أنوار المعرفة ولوامع الغيب استغرقه ذلك ولم يبق متسع للالتفات إلى ما سبق من أحواله وهو الكمال .

فالتائب عليه أن يشغل فكره بالآخرة ونعيمها لتزيد رغبته ، بل عليه أن يفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى .

والتائبون أربعة . تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، فيتدارك ما فاتته ولا يخطر بباله أنه سيعود إلى معاصيه وزلاته ، فهذه هي التوبة على الاستقامة ، وصاحبها سابق بالخيرات ، وهذه هي التوبة النصوح ، وصاحبها النفس مطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية ، وفيها إشارة قوله صلى الله عليه وسلم «سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى ، وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا» ، وفي هذا الحديث إشارة إلى الأوزار التي وضعها الذكر ؛ هذه طبقة .



طبقة ثانية ، وهي تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك الكبائر والفواحش كلها ، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه عن قصد ، فيبتلي بها في مجازي أحواله من غير أن يقدم عزما ، لكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وتأسف ، وشمر على الاحتراز منها ، وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة ، إذ تلوم صاحبها على ما يستدف إليه من أحوال ذميمة ، وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى ، وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله عز وجل إذ قال «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ، إن ربك واسع المغفرة» ، وقال أيضا «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم» ، فأثنى سبحانه وتعالى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لندمهم ولومهم أنفسهم ، وفي هذا إشارة منه صلى الله عليه وسلم في قوله «خياركم كل مفتن تواب» .

أما الطبقة الثالثة ، أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه الشهوات في بعض الذنوب ، فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوات لعجزه عن قهرها ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة ، ومع ذلك يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفها شرها ، تلك أمنيته في حال قضاء الشهوة عند الفراغ ، فيندم قائلا ، ليتني لم أفعل ، وسأتوب وأجاهد نفسي وأقهرها عن ذلك ، لكنه يسوف توبته مرة بعد المرة ، فهذه هي النفس المسؤولة ، وصاحبها يجري عليه قوله تعالى «وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا» وهذا ، على الله أن يتوب عليه ، وربما تختطفه المنية قبل التوبة ، فإن تدارك الله بلطفه جبر كسره ومن عليه بالتوبة ، والتحق بالسابقين ، قال تعالى «ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها» ، وقال صلى الله عليه وسلم «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها ، ولا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» .

وأخيرا الطبقة الرابعة ، أن يتوب العبد ويجري مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى اقتراف الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة أو يتأسف على فعله ، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته ، فهو من المصرين ، وهذه هي النفس الأمارة بالسوء ، وقد يخاف هذا سوء العافية عند الخاتمة ، فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها ، وإن ختم له بالحسن حتى مات على التوحيد ، فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ، قال تعالى « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» ، وقال أيضا «ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا نعمل صالحا» .

فالتائب من الذنب عليه أن يبادر بالتضرع إلى الله ويسأله العفو والمغفرة ويتذلل تذلل العبد الأبق ، وذلك يتجلى لكل العباد بنقصان كبره بينهم ، ويعترف لسانه بمظالم الناس لهم ويلهج بالاستغفار ، وجوارحه تسير نحو الطاعات والصدقات وأنواع العبادات والمناجاة والموالات والأذكار ، حتى يكفر عن السيئات ويصير كمن لا ذنب له ، منها ينطلق نحو الدرجات حتى يصير حبيبا .

## من مناقب أبي مدين شعيب

هو الشيخ سيدي أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي، ولد ونشأ بقرية قطيانة قريبة من اشبيلية» وذلك ما بين 1120 م و 1130 م من عائلة أنصار فاتحين. لما بلغ أشده ذهب إلى إشبيلية ليأخذ علومه ومعارفه، بعدها ذهب إلى فاس، واستقر في إحدى قرأها يشتغل نساجا «درازا» ليسد رمق حاجته، ويقطع ليله في العبادة والتفكير والدرس، وقد أتم دراسته على جهابذة العلماء المعروفين بالعلم والورع، فدرس كتاب الرعاية، وإحياء علوم الدين، وجامع الترميذي في الحديث، والموطأ، إلى غير ذلك، وحضر حلقات العلم بفاس، وشرب من معارفها. ويروي هو نفسه قائلا «كنت في أول أمري وقراءتي على الشيوخ إذا سمعت تفسير آية أو معنى حديث فنعت به وانصرفت لموضع خال خارج فاس أتخذة مأوى للعمل بما فتح الله به علي، فإذا خلوت فيه تأتيني غزالة تأوي إلي وتؤنسني، وكنت أمر في طريقي بكلاب القرى المتصلة بفاس فيدورون حولي ويصبصون لي، فبينما أنا ذات يوم بفاس وإذا برجل من معارفي بالأندلس سلم علي، فقلت وجبت ضيافته، فبعث ثوبا بعشرة دراهم، فطلبت الرجل لدفعها له، فلم أجده هنالك فجلبتها معي وخرجت لخلوتي على عادتي، فمررت بقريتي فتعرضت الكلاب ومنعتني الجواز حتى خرج من القرية من حال بيني وبينهم، ولما وصلت لخلوتي جاءني الغزالة على عاداتها، فلما شممتني نفرت عني وأنكرت علي، فقلت ما أتى علي إلا من أجل هذه الدراهم التي معي، فرميتها عني، فسكنت الغزالة وعادت لحالها معي، ولما رجعت لفاس أخذت الدراهم معي، فلقيت الأندلسي فدفعتها له، ثم مررت بالقرية في خروجي للخلوة، فدار بي كلابها وبصبصوا على عاداتهم، وجاءني الغزالة على عاداتها، فشممتني من مرفقي إلى قدمي، وأنست بي، وبقيت كذلك مدة وأخبار سيدي أبي يعزى ترد علي، وكراماته يتداولها الناس وتنقل إليّ فملاً قلبي حبه فقصدته مع جماعة الفقراء، فلما وصلنا إليه أقبل على الجماعة دوني، وإذا حضر الطعام منعني من الأكل معهم، وبقيت كذلك ثلاثة أيام، أجهدي الجوع وتحيرت من خواطر ترد علي، فقلت في نفسي إذا قام الشيخ من مكانه أمرغ وجهي في المكان، فقام ومرغت وجهي وقمت، فإذا أنا لا أبصر شيئاً، وبقيت طول ليلتي باكياً، فلما أصبح الصباح دعاني وقربني، فقلت له: يا سيدي قد عميت فلا أبصر شيئاً، فمسح بيده على عيني فعاد بصري، ثم مسح على صدري فزالت تلك الخواطر وفقدت ألم الجوع، وشاهدت في الوقت عجائب من بركاته، ثم استأذنته في الانصراف بنية أداء فريضة الحج فأذن لي، وقال: ستلقى في طريقك الأسد فلا يرعك، فإن غلب عليك خوفه، فقل له، بحرمة أهل النور إلا انصرفت عني . . . فكان الأمر كذلك».

وفي الحج تعرف علي كثير من العلماء والأولياء ، وفيه تعرف على الشيخ عبدالقادر الجيلاني رحمه الله تعالى وقرأ عليه في الحرم الشريف كثيرا من الحديث وأودعه كثيرا من أسراره ، فكان أستاذه .

ويروي بعض مؤرخيه أنه لما رجع من الحج مر ببلاد المغرب فرآى أسدا افترس حمارا وهو يأكله وصاحبه جالس بالبعد على غاية الحاجة والفاقة ، فجاء أبو مدين وأخذ بناصية الأسد ، وقال للشيخ ، امسك الأسد واذهب به واستعمله في الخدمة موضع حمارك ، فقال له ياسيدي أخاف منه ، فقال له لا تخف ، إنه لا يستطيع أن يؤدبك ، فمر الرجل بالأسد يقوده والناس ينظرون إليه . فلما كان آخر النهار جاء الرجل ومعه الأسد للشيخ ، وقال : يا سيدي هذا الأسد يتبعني أينما ذهبت ، وأنا شديد الخوف منه لا طاقة لي بعشرته ، فقال الشيخ للأسد اذهب ولا تعد .

وكان له رضي الله عنه مجلس في الوعظ بعد صلاة الصبح بمسجد ببجاية بالجزائر فكان يجتمع عليه جم غفير من الناس ، وكان في مجلسه كثيرا ما يتكلم عن أهل التصوف ومناقبتهم وأخبارهم وزهدهم وورعهم واشتغالهم بالله سبحانه وتعالى وانقطاعهم إليه ، ويحثهم على اتباع نهجهم ، وتخرج على يديه جماعة كثيرة من العلماء والمحدثين وأرباب الأحوال .

ويروى أن نزاعا وقع بين الطلبة والفقهاء والعلماء في شأن الحديث الشريف «إذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة . . .» فساروا إلى مجلس الشيخ أبي مدين ليعطي رأيه ، فلما استقروا في مجلسه ، وكان حديثه في ذلك المجلس حول رسالة الإمام القشيري رحمه الله تعالى . ترك كلامه قائلا : قال صاحب البستان . . . وكاشفهم في الحال بلا سؤال . . . نزيل عن أصحابنا الإشكال ، ثم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة . . .» أراد صلى الله عليه وسلم نصف جنته ، وإذا كان بعد الحشر يعطى النصف الآخر ، فبعد البعث تكمل له جنته ، وفي القبر يعطى نصف جنته ، وبين أنه في القبر يكشف له عن مقعده من الجنة ، وأنه يتنعم برؤيته ، وأن أرواح المؤمنين تسرح في الجنة ، ويوم القيامة يجتمع الجميع في الجنة . ولما عمت شهرته الآفاق أوشى به أحد علماء الظاهر ليعقوب المنصور أحد ملوك الدولة الموحدية بأن شوكته قويت ، فيجب أن يحسب له حسابه ، فأرسل في طلبه موصيا به خيرا في حله وترحاله ، فشق على أصحابه أن يسافروا معه ، فأخبرهم قائلا : إن منيتي قربت ، إلا أنها بغير هذا المكان ، والآن وقد كبرت ، وضعفت مني الحركة ، فبعث الله من يحملني إلى ذلك المكان برفق ، ويسوقني إليه في أحسن حال ، وأنا لا أرى السلطان ولا يراني ، فطابت نفوسهم ، وعلموا أن ذلك من كراماته ، فرحلوا معه حتى وصلوا حوز تلمسان ، فبدأ رباط العباد ، فقال لأصحابه : ماهذا الرباط ؟ فقالوا : هذا رباط العباد ، فقال لأصحابه : ما أحلاه للرقاد ، فمرض به ، ولما وصل وادي يسرا إشتد مرضه ، ونزلوا به وكان آخر كلامه : الله الحق ! فتوفي رحمه الله تعالى ، وذلك سنة 1198م ، وحمل إلى رباط العباد مدفون الأولياء .

ومن مكاشفاته رحمه الله أن أحد تلامذته غاظته زوجته ليلا فكسر أواني داره وقرر فراقها ، ولما كان أمام مجلس الشيخ ، أمسك بيده بعد الانتهاء قائلا له : امسك عليك زوجتك ، واتق الله في

نفسك ، قال ما حدثت أحدا بذلك ، فقال له الشيخ ، إنك دخلت المسجد ، وذلك القلق مكتوب عليك فعلت نيتك ، ثم ما بال الأواني التي أتلفتها وكسرتها ، كفر عن نفسك ولا تعد .

ومن مناقبه ومكاشفاته أيضا ، أن رجلا جاءه ليعترض عليه ، فجلس في الحلقة ، وما أن فتح الدرس حتى التفت إلى الرجل وقال له لم جئت ، قال : أقتبس من نورك . فقال له : ما الذي في كملك . قال : مصحف . فقال : افتحه واقرا أول سطر يخرج لك ، ففتح وقرأ أول سطر فإذا فيه «الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين» فقال الشيخ : أما يكفيك هذا ؟ فاعترف الرجل وتاب وصلاح حاله .

وسمعا قاضيان به فذهبا لزيارته ، فدخلوا المسجد وسلموا عليه ورد عليها السلام ، وما أن فرغ من الدرس وانصرف الناس حتى انفردبها قائلا : هذا هو الفقيه أبو محمد عبدالحق ، وهذا هو الفقيه أبو علي المسيلي ، فأجاباه نعم .

ومن كراماته أيضا أنه كان ماشيا على الساحل فأسره العدو ، وجعلوه في سفينة فيها جماعة من الأسرى المسلمين ، فلما استقروا في السفينة توقفت عن السير ولم تتحرك من مكانها مع قوة الريح لمساعدتها ، فأيقن الروم أنهم لا يقدرون على السير ، فقال بعضهم ، أنزلوا هذا المسلم فإنه قسيس ، ولعله من أصحاب السرائر عند الله ، فأشاروا له بالنزول ، فقال لا أفعل إلا إذا أطلتكم جميع من في السفينة ، فلما رأوا أن لا بد لهم من ذلك ، أنزلوهم كلهم وسارت السفينة في الحال .

كان رحمه الله من الأبدال أصحاب الخطوة والكرامات والتصريف . سمع به رهبان دير يعرف بدير الملك ، وكانوا سبعة عشر ، فجاءه من أكابرهم عشرة قصد الامتحان ، فتنكروا ولبسوا زي المسلمين ، ودخلوا المسجد ، فجلسوا مع الناس ، ولم يعلم بهم أحد ، فلما أراد الشيخ أن يتكلم ، سكت حتى دخل رجل خياط ، فقال له الشيخ : ما أبطأك ؟ فقال له : يا سيدي ، حتى فرغت العشرة أطواق التي أوصيتني بها البارحة ، فأخذها الشيخ ونهض قائما ، فألبس كل واحد من الرهبان طاقية ، فتعجب الناس من ذلك ، ولم يعلموا الخبر ، ثم شرع الشيخ في الكلام ، فكان من جملة قوله ، يا فقراء ، إذا هبت نسائم التوفيق من جنات الحق تعالى على القلوب المشرقة ، أطفأت كل نور ، ثم تنفس الشيخ فأطفأت القناديل ، وكانت أكثر من ثلاثين ، ثم سكت الشيخ وأطرق ، فلم يجسر أحد أن يتكلم أو يتحرك لعظم الهيبة ، ثم رفع رأسه وقال : لا إله إلا الله يا فقراء ، إذا أشرقت أنوار العناية على القلوب الميتة عاشت وأضاء لها كل ظلمة ، ثم تنفس الشيخ فاشتعلت القناديل وعاد إليها نورها ، واضطربت اضطرابا شديدا حتى كاد يلحق بعضها بعضا ، ثم تكلم الشيخ في تفسير آية سجدة في سجوده : اللهم إنك تعلم بتدبير خلقك ومصالح عبادك ، وإن هؤلاء الرهبان قد وافقوا المسلمين في لباسهم والسجود لك ، وأنا قد غيرت ظواهرهم ولا يقدر على تغيير بواطنهم غيرك ، وقد أجلستهم على مائدة كرمك ، فأنقذهم من الشرك والطغيان ، وأخرجهم من ظلام الكفر إلى نور الإيمان . فما رفع الرهبان رؤوسهم من السجود إلا وقد مضى عنهم الهجران والصدود ودخلوا في دين الله ، فأسلموا وبلغوا المقصود ، فأتوا إلى الشيخ وتسابوا على يده ، وبكوا وندموا على ما كان منهم ، فكثر الصراخ والبكاء في المسجد ، وكان يوما مشهودا . وبلغ الملك خبرهم فأحسن إليهم .

كان رحمه الله نجماً ثاقباً، وصدراً قويا من صدور الأولياء الأبدال، جمع بين الشريعة والحقيقة، وكان هادياً وداعياً، يقصد بالزيارة من كل مكان، فهو كبير مشايخ وقته، عارف بالله، خاض بحار الأحوال، ونال أسرار المعارف خصوصاً مقام التوكل، وهو سابع أبدال زمانه، قال عنه الشيخ العارف محيي الدين أبو بكر بن العربي: إن الشيخ أبا مدين رحمه الله تعالى، لم يمت حتى تقطب قبل أن يغرغر بثلاث ساعات. والقضية للمعارف منتهى مناله.

## أخلاق الصوفية

إن المتصوفة أوفر الناس اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم والتخلق بأخلاقه وإحياء سنته ، وقد أوصى صلى الله عليه وسلم أمته إلى أحسن الخلق فقال «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجالسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجالسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون المتفيقهون . قالوا : يا رسول الله علمنا الثرثارون المتشدقون فما المتفيقهون ؟ قال «المتكبرون» . قال الواسطي : الخلق العظيم أن لا يخاصم ولا يخاصم ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول «مكارم الأخلاق عشرة تكون في الرجل ولا تكون في ابنه ، وتكون في الابن ولا تكون في أبيه ، وتكون في العبد ولا تكون في سيده ، يقسمها الله تعالى لمن أراد به السعادة : صدق الحديث ، وصدق البأس ، وأن لا يشبع وجاره وصاحبه جائعان ، وإعطاء السائل ، والمكافأة بالصانع ، وحفظ الأمانة ، وصلة الرحم ، والتذم للصاحب ، وإقراء الضيف ، ورأسهن الحياء» ، وسئل صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل الناس الجنة ، قال «تقوى الله وحسن الخلق» ، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ، فقال : الغم والفرح» ، وبسط عبدالله بن مبارك حسن الخلق فقال : هو بسط الوجه ، وبذل المعروف ، وكف الأذى .

والمتصوفة راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى استجابت إلى تحسين الأخلاق ، فكم من نفوس تجيب إلى الأعمال ولا تجيب إلى الأخلاق ، فنفس العباد أجابت إلى الأعمال وجمحت عن الأخلاق ، ونفوس الزهاد أجابت إلى بعض الأخلاق دون البعض ، ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها .

يقول الإمام الغزالي في كتاب الإحياء الجزء الخامس : «فلما باشر بواطن أهل القرب والصوفية نور اليقين وتأصل في بواطنهم ذلك ، انصلح القلب بكل أرجائه وجوانبه ، لأن القلب يبيض بعضه بنور الإسلام ، وبعضه بنور الإيثار . وكله بنور الإحسان والإيقان . فإذا ابيض القلب وتنور انعكس نوره على النفس ، وللقب وجه إلى النفس ووجه إلى الروح . وللنفس وجه إلى القلب ، ووجه إلى الطبع والغريزة ، والقلب إذا لم يبيض كله لم يتوجه إلى الروح بكله ، ويكون ذا وجهين ، وجه إلى الروح ، ووجه إلى النفس ، فإذا ابيض كله وجه الروح بكله ، فيتداركه مدد الروح ، ويزداد إشراقا وتنورا ، وكلما انجذب القلب إلى الروح انجذبت النفس إلى القلب ، وكلما انجذبت توجهت إلى القلب توجهها الذي يليه ، وتنور النفس لتوجهها إلى القلب بوجهها الذي يلي القلب ، وعلامة تنورها طمأنينتها ، قال

الله تعالى «يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية»، وتنور وجهها الذي يلي القلب بمشابة نورانية أحد وجهي الصدف لاكتساب النورانية من اللؤلؤ، وبقاء شيء من الظلمة على النفس لنسبة وجهها الذي يلي الغريزة والطبع، كبقاء ظاهرة الصدف على ضرب من الكدر والنقصان مخالفا لنورانية باطنه، وإذا تنور أحد وجهي النفس لجأت إلى تحسين الأخلاق وتبديل النعوت، ولذلك سمي الأبدال أبدالاً. والسر الأكبر في ذلك أن قلب الصوفي بدوام الإقبال على الله ودوام الذكر بالقلب واللسان يرتقي إلى ذكر الذات، ويصير حينئذ بمثابة العرش. فالعرش قلب الكائنات في عالم الحق، والحكمة والقلب عرش في عالم الأمر والقدرة.

وقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم معاذاً بوصيته جامعة لمحاسن الأخلاق فقال له «يامعاذ أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجوار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبذل السلام وحسن العمل وقصر الأمل ولزوم الإيثار والتفقه في القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وخفض الجناح، وإياك أن تسب حليماً أو تكذب صادقاً أو تطمع أثماً أو تعصي إماماً عادلاً أو تفسد أرضاً، أوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر، وأن تحدث لكل ذنب توبة، السر بالسر والعلانية بالعلانية، بذلك أدب الله عباده ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب»، وقال صلى الله عليه وسلم «حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الآداب».

فمن حسن أخلاق الصوفية التواضع، قال لقمان عليه السلام: لكل شيء مطية، ومطية العمل التواضع. وقال النوري رحمه الله: خمسة أنفس أعز الخلق في الدنيا: عالم زاهد، وفقه صوفي، وغني متواضع، وفقير شاكراً، وشريف سني. وسئل يوسف بن أسباط عن غاية التواضع فقال: أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحداً إلا رأيتك خيراً منك. وسمعت الحريري يقول: صح عند أهل المعرفة أن للدين رأسمال: خمسة في الظاهر، وخمسة في الباطن، فأما اللواتي في الظاهر، فصديق في اللسان، وسخاوة في الملك، وتواضع في الأبدان، وكف الأذى، واحتماله بلا إياء. وأما اللواتي في الباطن، فحب وجود سيده، وخوف الفراق من سيده، ورجاء الوصول إلى سيده، والندم على فعله، والحياء من ربه، وقال يحيى بن معاذ: التواضع في الخلق حسن، ولكن في الأغنياء أحسن، والتكبر سمج في الخلق، ولكن في الفقير أسمج. وعن أنس قال: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي أف قط، وما قال لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقاً، وما مسست خزاً قط ولا حريراً ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شممت مسكاً ولا عطراً من عرق رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال صلى الله عليه وسلم «المؤمن الذي يعاشر الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم» وفي الخبر: أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم قيل، ماذا كان يصنع أبو ضمضم؟ قال: كان إذا أصبح قال: اللهم إني تصدقت اليوم بعرضي على من ظلمني، فمن ضربني لا أضربه، ومن شتمني لا أشتمه، ومن ظلمني لا أظلمه، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «اتق الله حيثما كنت. وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن، وقد ورد: من كظم غيظاً وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور

شاء ، وقال عبدالله بن بكر عن رجل من العرب قال : زحمت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، وفي رجلي نعل كثيفة ، فوطئت بها على رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنفحني نفحة بسوط في يده وقال «بسم الله أوجعتني» قال فبت لنفسي لائها أقول : أوجعت رسول الله ، قال : فبت بليلة يعلم الله ، فلما أصبحنا إذا رجل يقول : أين فلان ؟ قلت : هذا والله الذي كان مني بالأمس . قال : فانطلقت وأنا متخوف ، فقال لي : «إنك وطئت بنعلك على رجلي بالأمس ، فأوجعتني ، فنفحتك نفحة بالسوط ، فهذه ثمانون نعجة فخذها بها» .

والصوفية أيضا من أخلاقهم الإيثار والمواساة بسبب الشفقة والرحمة وقوة اليقين ، فهم يؤثرون بالموجود ، ويصبرون على المفقود . قال أبو زيد البسطامي : ما غلبني أحد مثلما غلبني شاب من أهل بلخ قدم علينا حاجا فقال لي : يا أبا يزيد ، ما حد الزهد عندكم ؟ قلت : إذا وجدنا أكلنا ، وإذا فقدنا صبرنا . فقال : هكذا عندنا كلاب بلخ ، فقلت له ، وما حد الزهد عندكم ؟ قال : إذا فقدنا شكرنا ، وإذا وجدنا آثرنا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النصير للأنصار «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم تقسم لكم شيئا من الغنيمة» فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها ، فأنزل الله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» .

ومن أخلاق الصوفية العفو ومقابلة السيئة بالحسنة ، قال صلى الله عليه وسلم «رأيت قصورا مشرقة على الجنة ، فقلت : يا جبريل ، لمن هذه ؟ قال : للكاذمين الغيظ والعافين عن الناس» .  
ومن أخلاق الصوفية طلاقة الوجه والبشر ، فالصوفي بكاؤه في خلوته وبشره وطلاقة مع الناس ، على وجهه من آثار أنوار قلبه .

ومن أخلاق الصوفية لين الجانب والنزول إلى طبائع الناس وترك التعسف والتكلف والإنفاق من غير إقتار وترك الأدخار ، والقناعة باليسير ، قوام على نفسه بالقسط ، يتميز بروح التودد والألفة .

وأدب الصوفي يعني تهذيب ظاهره وباطنه بحيث لا يتكامل الأدب إلا بمكارم الأخلاق ، ومكارم الأخلاق مجموعها من تحسين الخلق ، فالخلق صورة الإنسان والخلق معناه ، وقد ورد : فرغ ربكم من الخلق والخلق والرزق والأجل . وقال تعالى « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها» ، وقال الجنيد : من أعان نفسه على هواها فقد أشرك في قتل نفسه ، لأن العبودية ملازمة الأدب . والطغيان سوء الأدب ، وقال الجلال البصري : التوحيد يوجب الإيمان ، فمن لا إيمان له لا توحيد له ، والإيمان يوجب الشريعة ، فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له ، والشريعة توجب الأدب فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له .

وعلى الجملة ، فمن قدر على تصفية باطنه من الأدناس فقد دخل باب الولاية الكبرى وتمسك بأوثق أسبابها ، لأنه قد خلص من أعم موانعها ، وصار باطنه قابلا لأنوار التوفيق ، مستعدا للظفر بال منازل العليا ، والمزايا الجميلة التي هي أساس الولاية والهداية وركن الإيمان القوي ، وعماد الإخلاص السوي .



## كسر الشهوة

إن أعم المهلكات لابن آدم شهوة البطن ، بها أخرج آدم عليه السلام وحواء من دار القرار إلى دار الافتقار، إذ نهيا عن الشجرة فطغت عليهما شهواتهما حتى أكلا منها فبدت لهما سواتهما ؟ والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات ومصدر الآفات ، يتبعه في ذلك شهوة الفرج والشبق ، ثم يتبع شهوة الطعام والنكاح الرغبة في المال والجاه ، وهما وسيلة التوسع في المنكوحات والمطعومات ، ثم يتبع المال والجاه أنواع الرعونات والمنافسات ولمحاسدات ، فتتولد آفة الرياء وغائلة التفاخر والكبرياء ، فيتداعى ذلك إلى الحقد والعداوة والحسد ، فيفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء ؛ كل ذلك ثمرة شهوة البطن وشبع المعدة وامتلاؤها . والعبد لو دلت نفسه بالجوع وضيق الخناق عليها من الشهوات لأدعت لطاعة الله عز وجل ولم تسلك الطغيان وتفضل العاجلة على الآجلة .

لذا فإن فضيلة الجوع أساس المجاهدة عند السالكين ، وقد قال صلى الله عليه وسلم «جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش ، فإن الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله ، وإنه ليس من عمل أحب إلى الله من جوع وعطش» وفي حديث آخر «لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه» ، وقال أيضا «البسوا واكلوا واشربوا في أنصاف البطون ، فإنه جزء من النبوة» .

والجوع هو للراغبين منبهة وللنائمين تجربة وللمجتهدين كرامة وللصابرين سياسة وللزاهدين حكمة . وسئل حكيم بأي قيد أقيد نفسي ؟ قال : قيدها بالجوع والعطش ، وذلكها بإخمال الذكر وترك العز ، وصغرها بوضعها تحت أرجل أبناء الآخرة ، واكسها بترك زي الفراء عن ظاهرها ، وانج من آفاتها بدوام سوء الظن بها ، واصحبها بخلاف هواها .

وللجوع عشر فوائد ، الأولى صفاء القلب وإيقاد القريحة وإنفاذ البصير . والثانية رقة القلب وشفائه الذي به يتهيأ السالك لإدراك لذة المثابرة والتأثر بالذكر . والثالثة الانكسار والذل وزوال البطر والفرح الذي هو مبدأ الغفلة والطغيان . والرابعة أن لا ينسى بلاء الله وعذابه ، ولا ينسى أهل البلاء . والخامسة كسر شهوة المعاصي كلها والاستيلاء على النفس الأمانة بالسوء . السادسة دفع النوم ودوام السهر . السابعة تيسر المواظبة على العبادة . الثامنة صحة البدن ودفع الأمراض . التاسعة خفة المؤونة . والعاشرة أن يتمكن من الإيثار والتصدق من الأطعمة على اليتامى والمساكين ، فيكون يوم القيامة في ظل صدقته .

هذه عشر فوائد للجوع يتشعب عن كل فائدة فوائد لا حصر لها، فالجوع خزانة عظيمة لفوائد الآخرة، وقد قال أحد السلف: الجوع مفتاح الآخرة وباب الزهد، والشبع مفتاح الدنيا وباب الرغبة. وعلى المرید في أكله أن لا يأكل إلا الحلال، فالعبادة التي معها أكل الحرام كمن يبني بيتا على أمواج البحر. وعليه بتقدير الطعام في القلة والكثرة، وتقدير وقته في الإبطاء والسرعة، وتعيين جنس المأكول في تناولها أو تركها.

ولكي يتدرب المرید على ذلك لابد له من الرياضة، وأعني بالرياضة هنا التدرج، فمن اعتاد أن يأكل كثيرا لاداعي بأن ينتقل دفعة واحدة، فذلك لا يحتمله مزاجه، بل ينبغي أن يتدرج قليلا قليلا في النقصان البطيء، فيرجع مثلا من أكل رغيفتين في اليوم إلى واحدة في ظرف شهر، كل يوم ينقص جزءا من الرغبة المحذوفة. وهكذا يحاول أن يتدرج بنفسه إلى أن يصل قدر القوام الذي لا يبقى دونه، وهو عادة الصديقين، وكانت عادة عمر رضي الله عنه أنه يأكل سبع لقمات إلى تسع في اليوم. وهناك درجة عليا من الجوع عند بعض المریدين منهم من وصل إلى طي ثلاثة أيام ومنهم من طوى ستا ومنهم من طوى سبعا ومنهم من طوى ثلاثين يوما ومنهم من طوى أربعين، وقال بعض العلماء: من طوى أربعين يوما ظهرت له قدرة من الملكوت - أي كوشف ببعض الأسرار الإلهية.

وعلى أي حال إذا اقتصر الإنسان على يوم فمن الأفضل له أن لا يتناول الوجبة إلا وقت السحر، حتى يكون له النهار صياما والليل قياما، وإن كان يلتفت قلب الصائم إلى الأكل لا بأس أن يفطر بعد المغرب حتى لا يشغله عن حضور قلبه في التهجد. فيقسم طعامه إلى وقتين - عند الإفطار وعند السحر.

والسالكون عاداتهم يتعدون عن شهوات الطعام، لأن ذلك يورث في القلب قسوة وأنسا بملذات الدنيا فيألفها ويكره الموت.

فبعد هذه النظرة الخاطفة عن الجوع، لابد أن نقول للمبتدئ بأن يسلك الوسط، فما أوردناه عن فضائل الجوع ربما يوميء إلى الإفراط، ولكن الشريعة قد ضبطت لنا الأمور في كل شيء، فمثلا إذا طلب الطبع غاية الشبع فالشرع يحث على الجوع حتى يكون الطبع باعثا والشرع مانعا فيحصل الاعتدال، والرسول صلى الله عليه وسلم علم بحال بعضهم أنه يصوم الدهر كله ويقوم الليل كله. فنهى عن ذلك.

والطبع المعتدل أن يأكل الإنسان بحيث لا يحس بثقل المعدة ولا يحس بألم الجوع، والمقصود من الأكل بقاء الحياة وقوة العبادة، لأن ثقل المعدة يمنع من العبادة وألم الجوع أيضا يشغل القلب ويمنع منها، فما دام الإنسان لاخلاص له من الشبع والجوع فأفضل الأحوال الوسط والاعتدال، وإلى ذلك يشير قول الله عز وجل: «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا». ومهما لم يشعر الإنسان لا بالجوع ولا بالشبع فقد تيسرت له العبادة والفكر، وقوي على العمل مع خفته، لكن هذا بعد اعتدال الطبع.

ومن باب كسر الشهوة أيضا شهوة الفرج، وهذه الشهوة سلطت على الإنسان لفائدتين اثنتين، أحدهما، إدراك اللذة لتقاس بها لذة الآخرة. والثانية بقاء النسل ودوام الوجود.

لكن فيها من الآفة ما تهلك الدين والدنيا إن لم تضبط ولم تقهر ولم تعد إلى حد الاعتدال، فالإفراط فيها يقهر العقل حتى يصرفه عن سلوك طريق الآخرة، ويدفع المرء إلى البحث عن الأدوية التي تعين عليه، فينتهي به الأمر إلى ضلال العشق والمجازة في البهيمية إلى حد البهائم، فيتوقف العقل عند خدمة الشهوة محتالا وخادما، بدل أن يكون مطاعا، ويمرض القلب ويصبح فارغا لا هم له إلا الشهوة. قال بعضهم، إن الشيطان يقول للمرأة أنت نصف جندي وأنت سهمي الذي أرمي به فلا أخطيء، وأنت موضع سري وأنت رسولي في حاجتي.

والشهوة أيضا في المال والجاه والعقار والأولاد وأنواع اللعب من نرد وشطرنج ولعب الورق «الكارثة والضامة» وغير ذلك، كلها أمور تستولى على الإنسان فلا يصبر عليها حتى يفوت الفوت. وعليه، فقد يجب الاحتياط في بداية الأمور قبل أواخرها، فإن تأخرت لا تقبل العلاج إلا بجهد جهيد.

والشهوة في الإنسان تتفاوت قوة وضعفا، وتنصرف إلى حال من أحوال الدنيا، فتغمس فيه قلة أو كثرة، لكن شيوعها في الفرج أكثر من غيرها، قال صلى الله عليه وسلم «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء» وقال أيضا «اتقوا فتنة النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من قبل النساء» وقال أيضا «لكل ابن آدم حظ من الزنا، فالعينان تزنيان وزناهما النظر، واليدان تزنيان، وزناهما البطش، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والفم يزني وزناه القبلة، والقلب بهم أو يتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه».

فالمريد إذا غلبت عليه الشهوة، وجب أن يكسرها بالجوع والصوم، فإن فعل ولم يستطع، دخل تحت طاعة الزواج. قيل عن شاب: غلبت علي شهوتي مما لا أطيق، فأكثر الضجيج إلى الله، فرأيت شخصا في المنام يقول لي: ما بك؟ فشكوت إليه، فطلبني أن أتقدم إليه، فتقدمت، فوضع يده على صدري، فوجدت بردها عم فؤادي وجميع جسدي، فلما أصبحت زال ما بي، فبقيت معافي سنة؛ ثم عاودتني الشهوة الجامحة فأكثر الاستغاثة بالله، فجاءني شخص في المنام وقال: أتحب أن تذهب عنك الشهوة وأضرب عنقك بهذا السيف؟ فقلت نعم، فقال هات عنقك، فمددت فجرد سيفاً من نور وضرب به عنقي. فأصبحت وقد زال ما بي، فبقيت معافي سنة، ثم عاودتني الشهوة، فرأيت شخصا في المنام يقول: ويحك كم تسأل الله تعالى رفع ما لا يجب رفعه؟ فتزوجت وولدت.

وروي أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً، فدخلت عليه امرأة فسألته نفسه فامتنع عليها وخرج هاربا من منزله وتركها فيه. وفي تلك الليلة رأى في المنام يوسف عليه السلام قائلاً له: أنت يوسف؟ نعم أنا يوسف هممت، وأنت سليمان الذي لم تهتم. إشارة إلى قوله تعالى «ولقد هممت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه». إن كسر الشهوة شرط صحة للمريد، فحاول أن تتغلب عليها أولاً بالجوع، فهو مفتاح للحد من باقي الشهوات، وهو سر الوصول، وبالله التوفيق.

## التوفيق

التوفيق مفتاح السعادة الأبدية ، والهادي بالعبد إلى سلوك الآثار النبوية ، والقائد له إلى التخلق بالأخلاق الإلهية ، وهو نور يضعه الله في قلب من اصطفاه ، فتحصل به النجاة ، ويصل به صاحبه إلى أعلى الدرجات .

وإن إرادة العبد وعزمه على السير نحو التوفيق وجعل أسباب لذلك ، في الواقع ما هي إلا دوافع من العلي الرحمن نحو ذلك العبد الذي أراد به خيرا ، وقد يصاحبه في جميع أحواله وخواطره وأسراره ومكاشفاته . قال تعالى «وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم» تلك هي الرحمة التي كتبها عز وجل على نفسه قبل إيجاد ذلك العبد ، فلما أوجده في الوجود تولاه بلطفه وتوفيقه ، وبين له الطريق الموصل إليه .

والتوفيق بينه الله لأنبيائه ورسله بواسطة ملائكته ، ولأوليائه بواسطة أنبيائه ورسله ، والملائكة بالجبل التي أوجدتهم الله عليها ، فاهتدوا على أوضح منهاج ، فما زال التوفيق يحالفهم ويصاحبهم في كل حال ، ويقودهم إلى كل عمل مقرب إلى الله من أعمال القلوب والنفوس حتى انتهى بهم فوق الهمم ، وأنزلهم في حضرة الجود والكرم ، فغرقوا في بحار المنن من نعيم وجنان ، وعلى قدر ما أرادته سبحانه وتعالى لهم من نعمائه ، قال تعالى «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» ، وقيل : العجز عن درك الإدراك إدراك .

والتوفيق يقود لكل فضيلة ، ويهدي إلى كل صفة منجية ، ويجلب كل خلق رضي ، ويجلو البصائر ، ويصلح السرائر ، ويخلص الضمائر ، ويفتح أقفال القلوب ، ويهبها أسرار الوجود ، ويعرفها بما تجهل من جلال معبودها .

وللتوفيق مبدأ ومتوسط وغاية ، فمبدؤه يعطيك الإسلام ، ومتوسطه يعطيك الإيمان ، وغايته يعطيك الإحسان .

فالإسلام يحفظ الدماء والأموال ، والإيمان يحفظ النفوس من التضليل والضلال ، والإحسان يحفظ الأرواح ويهبها المراقبة والحياء ، فالنفس تتنعم بشهواتها في الجنان ، والعين تتنعم بلذة مشاهدة الرحمن ، والروح تتنعم بحقائق الامتنان .

التوفيق مبدؤه يعطيك العلم والعمل ، ووسطه يظهر ذاتك من دنس الأعراض والعلل ، وغايته تمنحك أسرار الوجود والأزل .

التوفيق مبدؤه يفنيك عن حسك ، ووسطه يفنيك عن نفسك ، وغايته تجود عليك بشمسك .

التوفيق مبدؤه يعطيك الكرامات ، ووسطه يفنيك عن الصفات ، وغايته تنعمك بالذات .

التوفيق مبدؤه يشهد لك بالجنان ، ووسطه يشهد لك بالعيان ، وغايته تشهد لك بفناء الأعيان ، فسبحان الله المنان ، إنه بعباده رؤوف رحيم .

والتوفيق قسمان ، عام وخاص .

فالعام يشترك فيه جميع الناس كافة ، وهو ضارين ، منه ما يوافق الحكمة ، ومنه ما يوافق الأغراض . فالتوفيق الذي يوافق الأغراض كرجل حفر بئرا على قارعة الطريق بأرض لا ماء فيها ، فهذا وافق غرض كل مار بذلك الموضع ؛ والتوفيق الذي يوافق الحكمة كرجل رأى شخصا يشرب ماء في منخل ، ويحاول تصفية الدقيق بالقدح ، فيأخذ الدقيق ويلقيه في المنخل ، ويأخذ الماء ويجعله في القدح ، ويقول إنما جعل هذا لهذا وهذا لهذا ، وهكذا في جميع الأشياء العلمية والعملية ، فهذه موافقة الحكمة . أما الخاص فهو الذي يخرجك من الظلمات إلى النور وينتهي بك إلى السعادة الأبدية على مراتبها ، وهذا أيضا عام وخاص ، فالعام كالإيمان بالله ورسوله وما جاء به . والخاص كالعمل بالعلم المشروع ، وهو أيضا عام وخاص . فالعام كأداء الفرائض كما قال ضمام بن ثعلبة السعدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين سأله عن الواجبات ، فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال هل علي غيرها ؟ قال لا ، إلا أن تطوع . فقال : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه ، ولم تكن غير الفرائض الخمس . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أفلح إن صدق . والخاص هو الذي يؤديك إلى تصفية القلب وتعريفه وتفرغته للرياضيات والمجاهدات . وهذا الضرب أيضا من التوفيق فيه عام وخاص . فالعام هو الذي يثمر لك جميع الأخلاق العلوية والأوصاف الربانية القدسية ، والخاص هو الذي يثمر لك أسرار الخلق ومعنى التحقيق . وكلاهما على ضارين ، عام وخاص . فالعام ما أعطاك جميع ما تتخلق به وبأسراره . والخاص ما أعطاك الغنا عن ملاحظة الغنا .

فالتوفيق يصحب العبد في حركاته وسكناته الظاهرية والباطنية ، وهو توفيق العارفين . وكل توفيق يصحب العبد في البعض دون البعض فهو منسوب لذلك البعض في مراتب الصوفي ، فيقال هذا توفيق العارفين أو الزاهدين أو العابدين إلى غير ذلك من أصحاب المقامات وأرباب السلوك .

وحصول التوفيق عند المحققين على نوعين ، توفيق أوجده الحق سبحانه فيك ومنك ، وتوفيق أوجده فيك على يد غيرك . فالتوفيق الذي فيك من غيرك كالإسلام الذي ألقاه عليك أبواك فتربيت عليه ، أو شخص وعظك من غير قصد منك إليه فانتبهت من غفلة ، فقدف الله عند انتباهك نور التوفيق فقبلتها ونظرت في تخليص نفسك من عيوبك ، حتى إذا ما هاجت عليك هذه الخواطر ، نهضت بك إلى طريق النجاح والصلاح والفلاح . وأول مقامات التوفيق الاختصاصي ، اشتغالك بالعلم المشروع الذي نذبك الشارع إلى الاشتغال به وتحصيله ، بعده إلى توحيد الأحد الفرد الصمد .

والتوفيق إذا صح تصحيحه بتحصيل العلم أنتج الإنابة، والإنابة تنتج التوبة، والتوبة تنتج الحزن، والحزن ينتج الخوف، والخوف ينتج الاستيحاش من الخلق، والاستيحاش من الخلق ينتج الخلوة، والخلوة تنتج الفكرة، والفكرة تنتج الحضور، والحضور ينتج المراقبة، والمراقبة تنتج الحياء، والحياء ينتج الأدب، والأدب ينتج مراعاة الحدود، ومراعاة الحدود تنتج القرب، والقرب ينتج الوصال، والوصال ينتج الأُنس، والأُنس ينتج الإدلال، والإدلال ينتج السؤال، والسؤال ينتج الإجابة، كل هذه المقامات تدخل في باب المعرفة، ولا يحصل منها شيء إلا بعد تحصيل العلم الرسمي والذوقي.

فالرسمي كعلوم النظر - وهو ما يتعلق باصطلاح العقائد، وكعلوم الخبر وما يتعلق بك من الأحكام الشرعية.

والذوقي هو علم نتائج المعاملات والأسرار، وهو نور يقذفه الله تعالى في قلبك تقف به على حقائق المعاني وأسرار الحق في عبادته والحكم المودوعة في الأشياء، وهذا هو علم الحال وفقك الله، وألهمك من معين توفيقه.

## الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قطب عظيم من الدين، إن طوى بساطه فشت الضلالة وشاعت الجهالة وخربت البلاد وهلك العباد. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب بإجماع الأمة. يقول عز وجل «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون».

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يدعو له إلا مثبت، قلبه مفعم بالحب والوفاء لله والعباد، قال تعالى «ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخير، وأولئك من الصالحين»، وقال تعالى «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة» فالله عز وجل نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، بينما الذين هجروا ذلك نعتهم سبحانه وتعالى بقوله «لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتنهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون» فغاية التشديد هنا أن لعنهم الله بترك المنكر والابتعاد عنه، وقال تعالى «كتتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر» وهنا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال تعالى «فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئس بما كانوا يفسقون» وهنا استفادة النجاة بالنهي عن السوء، وقال تعالى «الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر» وهنا قرن عز وجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصلاة والزكاة في وصف المؤمنين الصالحين، وقال تعالى «وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» وهنا جزم وحث عليه مع فتح طرق الخير وسد سبل الشر، وقال تعالى «لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما».

قال صلى الله عليه وسلم «إياكم والجلوس على الطرقات، قالوا ما لنا بد إنما هي مجالسنا نحدث فيها، قال : فإذا أبيتم إلا ذلك فاعطوا الطريق حقه، قالوا : وما حق الطريق ؟ قال : غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، وقال عليه السلام «إن الله لا يعذب الخاصة بذنوب العامة حتى يرى المنكر بين أظهرهم وهم قادروق على أن ينكروه فلا ينكروه». وقد قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : ما ساح السواح واخلوا دورهم وأولادهم بمثل ما نزل بنا حين رأوا

الشر قد ظهر والخير قد اندرس ، ورأوا أنه لا يقبل ممن تكلم ورأوا الفتن ولم يأمنوا أن تعترتهم وأن ينزل العذاب بأولئك القوم فلا يسلمون منه ، فرأوا أن مجاورة السباع وأكل البقول خير من مجاورة هؤلاء في نعيمهم ، ثم قرأ قول الله عز وجل « ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين » .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما لا يحل كبيركم ولا يرحم صغيركم ويدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم وتتنصرون فلا تنصرون وتستغفرون فلا يغفر لكم . وسئل حذيفة رضي الله عنه عن ميت الأحياء ، فقال : الذي لا ينكر المنكر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه . وقال حذيفة : يأتي على الناس زمان لأن تكون فيهم جيفة حمار أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم . وأوحى الله تعالى إلى يوشع بن نون عليه السلام : إني مهلك من قومك أربعين ألفا من خيرهم وستين ألفا من شرارهم ، فقال : يارب هؤلاء الأشرار، فما بل الأحيار، قال إنهم لم يغضبوا لغضبي وواكلوهم وشاربوهم . وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : أول ما تغلبون عليه من الجهاد بأيديكم ، ثم الجهاد بألسنتكم ، ثم الجهاد بقلوبكم ، فإذا لم يعرف القلب المعروف ولم ينكر المنكر نكس فجعل أعلاه أسفله .



## الإخلاص والأمانة

الإخلاص باب كل عمل ، وهو شرط فيها ، من حاد عنه حاد عن كل جاد ، ومن تمسك به أخذ المفتاح ، فعلى العبد أن يلتزمه مع حضور النية في جميع أعماله وأقواله وأحواله البارزة والخفية ، قال تعالى «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الذين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة» وقال سبحانه «قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله» . وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم» . والإخلاص مصدره النية الخالصة ، كما قال صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه» ، أو كما قال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر فيما رواه عن ربه عز وجل «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة» .

إن الإخلاص المصحوب بالنية الخالصة هو منجاة العبد ، ودليل المروءة والاستقامة والمثالية التي يحتدى بها ، فعن عمر رضي الله عنه قال ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أوامهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله تعالى بصالح أعمالكم . قال رجل منهم : اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق - أي لا أقدم في الشرب - أهلا ولا مالا ، فنأى بي طلب الشجر يوما فلم أرح - أي ارجع - عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهم فوجدتها نائمين ، فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهم أهلا أو مالا ، فلبث والقدرح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، والصبية يتضاغون - يصيحون جوعا - عند قدمي ، فاستيقظا فشربا غبوقهما : اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة . فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه . قال الآخر : اللهم إنه كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إلي - وفي رواية - كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء ، فأردتها على نفسها فامتنعت مني حتى أملت بها سنة من السنين ، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها

ف فعلت ، حتى إذا قدرت عليها — وفي رواية — فلما قعدت بين رجلها قالت : اتق الله ولا تفضّ الخاتم إلا بحقه ، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إلي ، وتركت الذهب الذي أعطيتها . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها . وقال الثالث : اللهم استأجرت أجراءً وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءني بعد حين فقال : يا عبد الله أد إليّ أجري ، فقلت : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق . فقال : يا عبد الله لا تستهزئ بي ! فقلت : لا أستهزئ بك ، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً : اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون .

أما الأمانة فإنها توأمة الإخلاص ، فيها تطهير النفس وزكاتها ، وهي سمة الخلق الرفيع ، وعلو الهمة ، قال تعالى «إن الله يامرکم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها» وقلل تعالى «إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوماً جهولاً» .

إنه ليس من السهل أن يتحمل كل إنسان حفظ الأمانة ، وإنما يتحملها من فتح الله له السمع والبصر والفؤاد ، وعن بي هريرة رضي الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يجمع الله تبارك وتعالى الناس ، فيقوم المؤمنون حتى تزلف لهم الجنة ، فيأتون آدم صلوات الله عليه فيقولون : يا أبانا استفتح لنا الجنة ، فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ، لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى ابني إبراهيم خليل الله ، قال : فيأتون إبراهيم فيقول : لست بصاحب ذلك ، إنما كنت خليلاً من وراء وراء — أي لست بتلك الدرجة — اعمدوا إلى موسى الذي كلمه الله تكليماً ، فيأتون موسى ، فيقول : لست بصاحب ذلك ، اذهبوا إلى عيسى كلمة الله وروحه ، فيقول عيسى لست بصاحب ذلك ، فيأتون محمداً صلى الله عليه وسلم فيقوم فيؤذن له وترسل الأمانة والرحم ، فيقومان جنبتي الصراط يمينا وشمالا ، فيمر أولكم كالبرق ، قلت : بأبي وأمي أي شيء كمر البرق ؟ قال : ألم تروا كيف يمر ويرجع في طرفة عين ثم كمر الريح ثم كمر الطير ، وأشد الرجال تجري بهم أعمالهم ونبيلكم قائم على الصراط يقول : رب سلم سلم حتى تعجز أعمال العبادو حتى يجيء الرجل لا يستطيع السير إلا زحفا ، وفي حافتي الصراط كلايب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به ، فمخدوش ناج ، ومكردس في النار ، ولذي نفس أبي هريرة بيده إن قعر جهنم لسبعون خريفاً ، وقال صلى الله عليه وسلم «آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان» .

إن الإخلاص والأمان صنوان في النفس الأمانة المطمئنة التي أخذ شعاع نورها من معين الإيمان ، وفي هذا القدر كفاية خشية الإطالة .

## الحياء والورع

الحياء شيممة المؤمن الصالح ، وعربونه الواضح ، تندرج تحت ستاره محاسن الأعمال والأقوال والأفعال ، مر رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «دعه فإن الحياء من الإيمان» ، والحياء قد يجلب على صاحبه الخير والبركة والاحترام ، قال صلى الله عليه وسلم «الحياء لا يأتي إلا بخير» ، وهو شعبة من الإيمان كما أثبتته رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان» ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء - أي البكر - في خدرها - أي في سترها - فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه . وقال العلماء : حقيقة الحياء خلق يبعث على ترك القبيح ويمنع من التقصير في حق ذي الحق ، وقال الجنيد : الحياء رؤية الآلاء - ورؤية التقصير ، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء .

أما الورع فهو رتبة عالية في النفس ، من تمسك به تمسك بالحبل المتين ، والقول المبين ، والحجة المثلى ، فشرف صاحبه وعظم ، قال تعالى «وتحسبه هينا وهو عند الله عظيم» قال النعمان بن بشير ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب» . ومر صلى الله عليه وسلم فوجد تمر في الطريق فقال «لولا أني خاف أن تكون من الصدقة لأكلتها» ، وجاء أحدهم إليه عليه الصلاة والسلام فقال له «جئت تسأل عن البر ؟ قلت نعم ، فقال : استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد الصدر ، وإن افتاك الناس وفأتوك» ، وقال أيضا «البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس» ، وتزوج عقبة بن الحارث ابنة أبي إهاب بن عزيز . فأتته امرأة وقالت : إني قد أرضعت عقبة والتي قد تزوج بها ، فقال لها عقبة ، ما أعلم أنك أرضعتني ولا خبرتني ، فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فسأله ، فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم «كيف وقد قيل ؟» ففارقها عقبة ونكحت زوجا غيره . وقال الحسن بن علي رضي الله

عنهما، حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»، وقالت عائشة رضي الله عنها : كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه، فجاء يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام : أتدري ما هذا؟ فقال أبو بكر : وما هو؟ فقال : كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، وما أحسن الكهانة إلا أني خدعتك، فلقيني وأعطاني لذلك - هذا الذي أكلت منه - فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شيء في بطنه . وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد فرض للمهاجرين الأولين أربعة آلاف، وفرض لابنه ثلاثة آلاف وخمسمائة، فقيل له : هو من المهاجرين فلم نقصته؟ فقال : إنما هاجر به أبوه، ليس هو كمن هاجر بنفسه، وقال صلى الله عليه وسلم «لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به، حذرا مما به بأس» .  
فيا سعد من جعل الورع لباسه والحياء زينته .

## الألفة والمحبة والعشق

الألفة من حسن الخلق، وحسن الخلق لا تخفى فضيلته في الإسلام، قال تعالى مخاطبا نبيه «وإنك لعلی خلق عظیم». وقال صلى الله عليه وسلم «بعثت لأتم مكارم الأخلاق». وما أحسن الألفة إذا كانت رابطة التقوى وحب الله، قال تعالى «لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم»، وقال صلى الله عليه وسلم «إن أقربكم مني مجلسا أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون» وقال أيضا «المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»، قال مجاهد: المتحابون في الله إذا التقوا ألفوا بعضهم إلى أن تتحات عنهم الخطايا كما يتحات ورق الشجر في الشتاء إذا يبس.

وأما المحبة فهي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، وهي لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى «والذين آمنوا أشد حبا لله». وقال صلى الله عليه وسلم «لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين» وفي رواية «ومن نفسه»، وقيل عن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاء لقبض روحه: هل رأيت خليلا يميت خليله؟ فأوحى الله تعالى إليه: هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه؟ فقال: يا ملك الموت الآن فاقبض. ومن دعائه صلى الله عليه وسلم «اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك، واجعل حبك أحب لي من الماء البارد»، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: من ذاق من خالص محبة الله تعالى، شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر. وقال أبو سليمان الداراني: إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه، فكيف يشغلون عنه في الدنيا؟. ويروى أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا: الخوف من النار. فقال: حق على الله أن يؤمن الخائف. ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فإذا هم أشد نحولا وتغيرا فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الشوق إلى الجنة، فقال: حق على الله أن يعطيكم ما ترجون. ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين، فإذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن وجوههم من نور، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: نحب الله عز وجل، فقال: أنتم المقربون أنتم المقربون. وقال يحيى بن معاذ: عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه؟ ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه؟ وحب يدهش العقول فكيف وده؟ ووده ينسي ما دونه فكيف لطفه؟ ومحبة الله

تعالى لا تتصور إلا بعد معرفة وإدراك، إذ لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه، ومادام الحب بالإدراك فهو مقسم على مدركات الحواس، ولكل حاسة لذة، فلذة العين في الإبصار وإدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة، ولذة الأذن في النغمات الطيبة الموزونة، ولذة الشم في الروائح الطيبة، ولذة الذوق في الطعام وأصنافه، ولذة اللمس في اللين والنعومة. ولما كانت هذه المدركات بالحواس لذة كانت محبوبة - أي كان الطبع السليم يميل إليها - وقال صلى الله عليه وسلم «حُب إلي من دنياكم ثلاث. الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة» وقد سمي صلى الله عليه وسلم. الصلاة قرة عين - فجعلها أبلغ المحبوبات، وهي حس سادس مسكنه القلب لا يدرك ذلك إلا أصحاب القلوب المبصرة، فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر، والقلب أشد إدراكا من العين، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار، لذلك تكون لذة القلب بما يدركه من المعاني الإلهية الشريفة أقوى بكثير مما تدركه الحواس.

ومن أحوال المحبة و الأُنس البسط والقبض والمراقبة والهيبة والفناء والبقاء والمشاهدة إلى غير ذلك، فمقام المحبة تدخل فيه هذه الأحوال، ولدقة معنى هذا المقام عن الأفهام، فإني أفضل أن لا أخوض فيه أكثر، وإنما ألمح إليه بأقوال عارفيه.

فالحلاج يقول: المحبة الأُنس قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك، لأن كلية المحب تطابق كلية المحبوب، فغيبته غيبة محبوبة ووجوده وجوده. وقيل: المحبة محو المحب بصفاته، وإثبات المحبوب بذاته. وقيل: المحبة أن تهب كليتك لمحبوبك، فلا يبقى لك منك شيء. وقيل: المحبة معنى من المحبوب، قاهرا للغلب، تعجز العقول عن إدراكه، وتمتنع الألسنة عن العبارة عنه.

وأما العشق فهو أقصى درجات المحبة ومجاوزه الحد فيها، وقيل «كل عاشق محب، وليس كل محب عاشقا»، وحد هذا المقام يعجز اللسان عن وصفه، كما عجز عن حد المحبة، وسئل عنه الحكماء فقيل: دق عن الأفهام مسلكه، وخفي عن الإدراك موقعه، وحارت العقول في كيفية تمكنه. وقال بعض العلماء حد العشق امتزاج ظل الجمال بملكوتية الأوصال. وقالوا أيضا «العشق شدة الشوق إلى الاتحاد، وقيل «العشق جنون إلهي» - أي لا يدبر بعقل ولا تجري فيه أمور العشق - والعشق مصدر جميع النسب العلوية والسفلية، فكل جوهر نوراني في العالم العلوي إما عاشق أو معشوق، وكذا مقابله في جميع الكائنات حتى الأحجار فقد تجدها إلى بعضها.

والعشق مغناطيس النفوس وشعاع نور الجمال، فالأرواح تنجذب إلى بعضها حتى تتحد وتمتزج أجزاؤها حتى يستحيل تمييزها كامتزاج الماء أو النور بالنور عند أصحاب الذوق.

ومقام العشق هو أقصى مقامات الذهول والغيبة عن الحس والاتصال بالعالم الروحاني، فإذا وصل العبد إلى هذا المقام اطلع على أسرار الغيب وأخبر معانيه وانكشف له الغطاء، وهذا الاتصال يختلف، فإن كان بالأنوار القدسية كان الإخبار بالغيب الكلي، وإن كان بالنفوس الجزئية كان الإخبار عن الغيب الجزئي، وهو غيب المحبوب لاتصال النفس.

والنفس إذا صفت ارتقت ونقشت فيها أمثلة الكائنات، واطلعت على الغيبات، وأثرت في السلفيات على قدر تشبهها بالعالم العلوي حسب حظوتها الربانية. وعند هذا الحد يعاين الجمال الكلي الذي هو معدن كل جمال، فيتلاشى في مشاهداته إلى أن يصير من جملة المقربين، ويتولى عليه إشراق نورالحق وتستعد ذاته لتقبلها، وبذلك تزداد صفاء إلى أن ترفع لها حجب الرحمن، فترى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فتفنى عن رؤية فنائها، وتصل إلى بقائها السرمدي الذي هو البقاء بربها لا بذاتها، وتسمع نداء الحق لها «ياأيتهالنفسمطمئنةارجعيإلىربكراضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي»، وفي نفس السياق تسمع أيضا نداء الحق قائلا «سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين».

## قيام الليل

قال تعالى «إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل»، وقوله عز وجل «والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما»، وقال صلى الله عليه وسلم «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب مكان كل عقدة، عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلانا»، وقال أيضا: إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرا إلا أعطاه إياه». وكان صلى الله عليه وسلم يقوم الله حتى تتفطر قدماه، فقيل له: أما قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال «أفلا أكون عبدا شكورا»، وقال جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم: نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل، فأخبره صلى الله عليه وسلم بذلك، فكان يداوم بعده على قيام الليل، وقال نافع: كان يصلي الليل ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ فأقول: لا، فيقوم لصلاته ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ فأقول: نعم، فيقعد، فيستغفر الله تعالى حتى يطلع الفجر. وقال علي بن أبي طالب: شبع يحيى بن زكرياء عليها السلام من خبز شعير فنام عن ورده حتى أصبح، فأوحى الله تعالى إليه؛ يا يحيى، أوجدت دارا خيرا لك من داري؟ أم وجدت جوارا خيرا لك من جوارى؟ فوعزتي وجلالي يا يحيى لو اطلعت إلى الفردوس إطلاعة لذاب شحمك ولزهقت نفسك اشتياقا، ولو اطلعت إلى جهنم إطلاعة لذاب شحمك ولبكيت الصديد بعد الدموع، ولبست الجلد بعد المسوح. وقال صلى الله عليه وسلم «من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات»، وقال أيضا «أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل». وقدم بعض الصالحين من سفره، فمهد له فراش فنام عليه حتى فاته ورده، فحلف أن لا ينام بعدها على فراش أبدا. وكان ابن أبي رواد إذا جن عليه الليل يأتي فراشه فيمريده عليه ويقول: إنك للين، ووالله إن في الجنة لألين منك، ولا يزال يصلي الليل كله. وقال الفضيل: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم، وقد كثرت خطيئتك، وقال الربيع: بت في منزل الشافعي رضي الله عنه ليل كثيرة فلم يكن ينام من الليل إلا يسيرا. وقال أبو الجويرية: لقد صحبت أبا حنيفة رضي الله عنه ستة أشهر فما فيها ليلة وضع جنبه على الأرض، وكان أبو حنيفة يحيى نصف الليل فمر يقوم فقالوا: إن هذا يحيى الليل كله، فقال: إني استحي أن أوصف بما لا أفعل، فكان بعد ذلك يحيى الليل كله، ويروى أنه ما كان له فراش بالليل. ولقيام الليل شروط أربعة:



- أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب ، فيغلبه النوم ، ومن خلاله يثقل عليه القيام .
- أن لا يتعب نفسه بالنهار حتى لا تضعف الجوارح والأعصاب لتكون سببا في جلب النوم .
- أن لا يترك القيلولة بالنهار، فإنها حسنة تساعد على قيام الليل .
- أن لا يرتكب الأوزار بالنهار حتى يقسى القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة . فيبتعد عن قيام الليل .

دخل بعضهم على كرز بن وبرة وهو يبكي ، فقلت : أتاك نعي بعض أهلك ؟ فقال : أشد ، فقلت : وجع يؤلمك ؟ فقال : أشد ، قلت فما ذاك ؟ قال : بابي مغلق وستري مسبل ولم اقرأ حزبي البارحة ، وما ذاك إلا بذنب أحدثته ، وهذا لأن الخير يدعو إلى الخير والشر يدعو إلى الشر ، والقليل من كل واحد منهما يجبر إلى الكثير. إن الذنوب تقسي القلب ، فتمنعه عن قيام الليل ، خاصة إذا كانت فيه لقمة حرام ، بينما لقمة الحلال تصفي القلب وتحركه إلى الخير.

وهناك مسيرات باطنة تساعد على قيام الليل يمكن حصرها في أربعة :

- سلامة القلب من الحقد وهموم الدنيا من مال وغيره .
- خوف يلزم القلب من أهوال الآخرة ودركات جهنم .
- السماع إلى الآيات والأخبار والآثار التي يستحکم به رجاؤه وشوقه إلى الثواب .
- حب الله وقوة الإيمان ، وذلك ما يدفعه إلى حب الخلوة ، وفي الخلوة لا محالة يتلذذ بالمناجاة ، فتسره المناجاة إلى حب الحبيب بطول القيام .

قال الفضيل بن عياض : إذا غربت الشمس فرحت بالظلام لخلوتي بربي ، وإذا طلعت حزنت لدخول الناس علي . وقال ابن المنكدر : ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث : قيام الليل ، ولقاء الإخوان ، والصلاة في الجماعة . وقال بعض العارفين : إن الله تعالى ينظر بالأسحار إلى قلوب المتيقظين فيملؤها أنوارا ، فترد الفوائد على قلوبهم فتستنير ثم تنتشر من قلوبهم العوافي إلى قلوب الغافلين . وقال بعض العلماء : إن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين ، إن لي عبادا من عبادي أحبهم ويحبونني ويشتاقون إلي وأشتاق إليهم ، ويذكرونني وأذكركم ، وينظرون إلي وأنظر إليهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك ، وإن عدلت عنهم مقتك ، قال يارب وما علامتهم ؟ قال : يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي غنمة ، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها ، فإذا جنهم الليل واختلط الظلام وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلي أقدامهم وأفرشوا إلي وجوههم ، وناجونني بكلامي وتملقوا إلي بإنعامي ، فبين صارخ وباكي وبين متأوه وشاكي بعيني ما يتحملون من أجلي وبسمعي ما يشتكون من حبي ، أول ما أعطيتهم أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم ، والثانية لو كانت السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهما في موازينهم لاستقللتها لهم ، والثالثة أقبل بوجهي عليهم ، أفترى من أقبلت بوجهي عليه ، أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه ؟ . وقال

صلى الله عليه وسلم «إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرا إلا أعطاه إياه». ولقد ار قيام الليل مراتب سبعة :

- إحياء كل الليل ، وهذا شأن الأقوياء الذين تجردوا لعبادة الله ، فصار ذلك حياة لقلوبهم ، ورددوا النوم إلى النهار.

- القيام نصف الليل ، وأحسن طريق فيه ، نوم الثلث الأول من الليل والسدس الأخير منه ليتمكن من القيام في جوف الليل ووسطه .

- أن يقوم ثلث الليل ، وينبغي أن ينام النصف الأول والسدس الأخير .

- أن يقوم سدس الليل أو خمسة ، وأفضله النصف الأخير ، وقبل السدس الأخير منه .

- أن لا يراعي التقدير ، وتلك طريقة أولي العزم من الصحابة والتابعين ، وقيام الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن على ترتيب واحد ، ربما قام نصف الليل أو ثلثه أو سدسه ، قال تعالى «إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه» .

- أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين ، وهذا أقل قيام الليل .

هذه مقادير القسمة لقيام الليل ، فإن تعذر على المرید ، فليختر ما هو أيسر ، فإن تعذر قيام وسط الليل مثلا فلا ينبغي أن يهمل إحياء ما بين العشاءين والورد الذي بعد العشاء ، والقيام وقت السحر قبل أن يدركه الصبح نائما ، وهذه هي المرتبة السابعة .

وهناك ليالي مخصوصة عن غيرها بمزيد الفضل يستحب إحيائها ولا ينبغي إغفالها . خمس ليال من أوتار العشر الأواخر من رمضان ، وفيها تطلب ليلة القدر . وليلة السابع عشر من رمضان وفي صبيحتها يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، فيها كانت وقعة بدر ، وقيل عن الزبير إنها ليلة القدر . وليلة المحرم وليلة عاشوراء . وأول ليلة من رجب ، وليلة النصف منه ، وليلة السبع والعشرين منه . وليلة المعراج ، وليلة النصف من شعبان . وليلة عرفة ، وليلة العيدين .

ثم هناك أيام فاضلة يستحب فيها مواصلة الأوراد ، وهي :

يوم عرفة ، ويوم عاشوراء ، ويوم السابع والعشرين من رجب . ويوم السابع عشر من رمضان . ويوم النصف من شعبان . ويوم الجمعة ، ويوما العيدين . والأيام العشر من ذي الحجة . والأيام المعدودات - وهي أيام التشريق - . ومن فواضل أيام الأسبوع ، يوم الخميس ويوم الاثنين ، فيهما ترفع الأعمال إلى الله تعالى .

## الصوم

الصوم حصن الأولياء ، ومفتاح الجنة ، به تصبح النفس مطمئنة ، وهو كما قال صلى الله عليه وسلم «الصوم نصف الصبر» والصبر نصف ثاب كما قال صلى الله عليه وسلم «الصبر نصف الإيمان» ، وقد ميز الله الصوم من بين سائر الأركان ، إذ قال فيه سبحانه فيما حكاه عنه النبي صلى الله عليه وسلم «كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به» ، وما دام الصوم نصف الصبر فقد جاوز ثوابه ، وعنه يقول صلى الله عليه وسلم «والذي نفسي بيده ، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك» ، وقال صلى الله عليه وسلم «للجنة باب يقال له الريان لا يدخله إلا الصائمون ، وهو موعود بلقاء الله تعالى في جزاء صومه» ، وقال صلى الله عليه وسلم «للصائم فرحتان ، فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه» ، وقال صلى الله عليه وسلم «يقول الله عز وجل انظروا يا ملائكتي إلى عبدي ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلي» .

والصوم سر ليس فيه عمل يشاهد ، لذا لا يراه إلا الله عز وجل ، لأنه عمل في الباطن بالصبر المجرد ، ثم هو قهر لعدو الله الشيطان ، لأن الشيطان يتسرب عن طريق الشهوات ، والشهوات تقوى عن طريق الأكل والشرب ، قال صلى الله عليه وسلم «إن الشيطان لي يجري من ابن آدم مجرى الدم» . فالصوم يقمع الشيطان ويسد مسالكه ويضيق عليه الخناق ، ومن ضيق الخناق على عدو الله نصره الله ، قال تعالى «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» ، فالبداية بالجهد من العبد ، والجراء بالهداية من الله عز وجل ، قال سبحانه وتعالى «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» ، وقد قال صلى الله عليه وسلم «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات» ، فمن هذا الوجه كان الصوم باب العبادة ، وجنة من الشيطان .

وللصوم ست واجبات ظاهرة هي :

- رؤية الهلال أو استكمال الثلاثين من شهر شعبان .

- النية لكل ليلة ، ومصدرها القلب .

- الإمساك عن إيصال الطعام إلى الجوف عمدا . من الفجر إلى غروب الشمس .

- الإمساك عن الجماع من الفجر إلى غروب الشمس .

- الإمساك عن الاستمناء ، وهو إخراج المنى قصدا بجماع أو بغير جماع .

- الإمساك عن إخراج القيء .

وسننه ستة وهي :

تأخير السحور، وتعجيل الفطور بتمر أو ماء قبل الصلاة، وترك السواك بعد الزوال، والجود في شهر رمضان، ومدارسة القرآن، والاعتكاف في المسجد لا سيما في العشر الأخيرة.

والصوم ثلاث درجات كما قسمها الإمام الغزالي في الإحياء، صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص.

فأما صوم العموم فهو كف البطن والفرج .

وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وكل الجوارح عن الآثام .

وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن كل دنية وديونية وكفه عما سوى الله عز وجل، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر في الدنيا التي يراد بها الدين باعتبار أن ذلك من زاد الآخرة .

بينما صوم الخصوص الذي هو صوم الصالحين، فيه كف الجوارح كغض البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذم ويكره ويلهي عن ذكر الله، كما قال صلى الله عليه وسلم «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنة الله، فمن تركها خوفا من الله آتاه الله عز وجل إيمانا يجد حلاوته في قلبه»، وكذلك حفظ اللسان من الكذب والغيبة والنميمة والفحشاء والمراء والخصومة إلى غير ذلك، وإشغاله بذكر الله عز وجل، قال صلى الله عليه وسلم «إنما الصوم جنة، فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث، ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم إني صائم»، وكذلك السمع عن كل مكروه وحرام، وكف بقية الجوارح عن الآثام من يد ورجل وبطن، قال صلى الله عليه وسلم «كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش»، وعلى الصائم أن لا يكثر من الطعام وقت الإفطار، علما بأن الصوم هدفه كسر الهوى لتقوى النفس على تقوى الله، وكسر الشهوة التي هي من وسائل الشيطان للعود إلى الشرور، ومن الآداب أن لا يكثر الصائم النوم بالنهار حتى يحس بالجوع والعطش ويستشعر ضعف القوى فيصفو قلبه وينظر إلى ملكوت السماء، فخلو المعدة يدفعه لرفع الحجاب إذا استمر في تهجده وورده، خاصة إذا كان قلبه معلقا بالله وهو بين الخوف والرجاء في صومه أو بعد إفطاره .

والصوفية يفهمون من مقصود الصوم التخلص بخلق من أخلاق الله عز وجل، والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بمجاهدته، فكلمة انهمك الإنسان في الشهوات انحط إلى أسفل والتحق بغمار البهائم، وكلمة قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق الملائكة، والملائكة مقربون من الله، فالذي يقتدي بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله عز وجل كقربهم .

وقد رأى بعضهم من يصوم الدهر كله، مع أنه سبحانه يجب أن تؤتى رخصه كما يجب أن تؤتى عزائمه، فالإنسان إذا رأى صلاح نفسه في صوم الدهر فليفعل إذا لم يكن فيه مجلبة ضرر كما فعل

جماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم، كما قال صلى الله عليه وسلم «من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم . . . وعقد تسعين» معناه لم يكن له فيها موضع .

وقد كره بعض السالكين صيام الدهر، والغزالي يقول في الإحياء : والصحيح أنه إنما يكره لشيئين : أحدهما : أن لا يفطر في العيدين وأيام التشريق فهو الدهر كله . ومن الأحاديث الدالة على كراهة صيام الدهر قوله صلى الله عليه وسلم «لا صام من صام الأبد» ، وفي حديث أبي قتادة «قيل يارسول الله كيف بمن صام الدهر؟ قال : لا صام ولا أفطر» .

وهناك درجة أخرى من الصوم وهو نصف الدهر، بأن يصوم يوما ويفطر يوما، وهذا أشد على النفس وأقوى في قهرها، والعبد فيه بين صوم يوم وشكر يوم، وفيه قال صلى الله عليه وسلم «أفضل الصيام صوم أخي داود، كان يصوم يوما ويفطر يوما» وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم ما صام شهرا كاملا قط إلا رمضان .

ومن لم يقدر على صوم نصف الدهر فليصم يوما ويفطر يومين، ومن لم يقدر فليصم الثلث - أي صيام ثلاثة من أول الشهر وثلاثة من وسطه، وثلاثة من آخره، أو أن يصوم الاثنين والخميس والجمعة، فذلك قريب من الثلث .

وبصفة عامة أن يفهم الإنسان معنى الصوم، فإن مقصوده تصفية القلب من الشوائب وتفريغ المهمة لله تعالى، والمتفطن لدقائق الباطن ينظر إلى أحواله، فقد يقتضي حاله دوام الصوم، أو دوام الفطر، أو مزج الإفطار بالصوم، فإذا فهم المعنى وتحقق وحده بالسلوك السوي في مراقبة القلب، فإن ذلك لا يوجب ترتيبا .

## الرياضة والاعتكاف والخلوة

إن الإنسان مطبوع على سبعة :

الغفلة والشك والشرك والرغبة والرغبة والشهوة والغضب ، فإن حلت به عناية الرحمن عرف ربه ، فتصرف عنه الغفلة والشك والشرك ، حيث يعلم ربه يقينا ، وكلما ازداد معرفة وعلماً بربه استنار قلبه ونقصت باقي الخصال ، إلى أن يمتلىء صدره بعظمة الله فعندها ينكشف الغطاء .  
فيجب رياضة النفس التي اعتادت الشهوة والهوى في كل شيء ، ويجب فطمها حتى يصير القلب حرا .

وأصحاب الفهم راضوا أنفسهم وتدبروا أمرهم ، وقطعوا أسباب الشهوات فخدمت نيران شهواتهم وفاقوا الهوى بمجاهتهم إياه وسلموا أنفسهم لربهم وانقادوا لحكمته فعاشوا في الدنيا بأرفع درجة وأكرم منزلة عند أنفسهم وقرؤا عينا بهذا الدين الأحمدي وفي الآخرة قربهم ربهم «أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون» وأولئك «أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» ، وكلما حل بهم أمر كان عسرا أو يسرا أو ذلا أو عزا أو بلاء أو نعمة تلقوا ذلك بهشاشة وطلاقة نفس وبشر .

والرياضة مشتقة من الرضّ - بمعنى الكسر - بحيث أن النفس اعتادت اللذة والشهوة والهوى ، فهي متحيرة ، لذلك محتاجة إلى انقطاعها وكسرها ومنازعتها في أمور شتى حتى تأخذ طريقها نحو الله عز وجل وتصل إلى اليقين ، واليقين نبعه الطهارة ، والطهارة مسكنها القلب ، فالقلب إذن يتطهر من الشهوات ، فيصقل ويصير كالمرآة ، حتى إذا تأملت شيئا من الآخرة تجلى لك ذلك في مرآتك معاينة ، وتجلي لك أمر السموات ، تبصر ذلك بعيني قلبك كأنك تنظر إليه .

والعبد إذا اشتاقت نفسه إلى التطهير فعليه أن يبتديء أولا بالرياضة ، وذلك أن يصوم شهرين متتابعين من الله عز وجل ، بعدها ينتقل من الصوم إلى الإفطار ، فيأكل اليسير من قوته ، وإن كان في اليوم مرارا كسرة كسرة فهو أجود ، بدل أن يملأ بطنه في وقت معين ، ومن المعلوم أن سالك هذا الطريق لا يأكل حتى يتخم ، إنما أشرنا إليه بأن يأكل كسرة كسرة ليداري نفسه على ذلك ، وبين الأيام دسا قليلا حتى لا تهيج عليه الأرياح ويضطرب الجسم ، وعليه أن يقطع كل الشهوات المغرية من أكل وملبس وما يدفع إلى فرح ولذة ومجالسة الإخوان . وباختصار أن يتفقد حال نفسه حتى أنه يجرمها من شربة ماء بارد إن تشوفت إليه ، لكونه لذتها ، فينغص على النفس حتى تسكن فورتها وثورتها ، بعد

أن نغصها هما وأشبعها غما وجعلها في سجن ، يسارب إلى السز رجل بسبب غمها وشمها وسجنها ، فيجعل الله ثوابه نورا على القلب ، فيزداد القلب نورا وقوة على منع النفس لشهوتها ويستولى عليها إلى أن يصل القلب إلى الأنس بالله والطمأنينة إليه وشفاء الحب إليه . فيمتلأ فرحا وسرورا ويقينا ، فحينذاك إذا مد يده إلى الدنيا أو الآخرة لم يضره ، لأنه حافظ للحدود ومعتصم بخوف الله عز وجل ، ولسانه ذاكر ، وبدنه شاكر صابر ، فلم تجد أفراح الدنيا فيه مسكنا ، مثله مثل من شرب ترياقا فامتلات عروقه منه إذا مد يده إلى حية لم يضره سمها ، لأن السم لم يجد مسلكا إلى عروقه ، فيكون إذا أخذ أخذ بحق ، وإذا أعطى أعطى بحق .

ويقال أن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام ، بعد أن ملك خزائن الأرض ، وقعدت له على رابية الطريق في يوم موكبه ، وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفا من عظماء مملكته : سبحان من جعل الملوك عبيدا بالمعصية ، وجعل العبيد ملوكا بطاعتهم له ، وقد قال يوسف عليه السلام - كما أخبر الله بذلك في القرآن «إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين» .

وأما الاعتكاف فهو شرط للسالك تتوقف مدته حسب ما يراه ، وفيه قال تعالى «وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود» ، وقال عز وجل «ولا تبashروهن وأنتم عاكفون في المساجد» . وقالت عائشة رضي الله عنها : كان صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ، ثم اعتكف أزواجه من بعده . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف في كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوما . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يعتكف صلى الفجر ثم دخل معتكفه ، وأنه أمر بخبائه ، فضرب . أراد الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان ، فأمرت زينب بخبائها ، فضرب وأمر غيرها من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بخبائه ، فضرب ، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر نظر ، فإذا الأخبية ، فقال : «البرّ تردن ؟» فأمر بخبائه . فقوض وترك الاعتكاف في رمضان حتى اعتكف في العشر الأول من شوال .

والخباء ما يعمل من صوف أو شعر أو وبر وينصب على عمودين أو ثلاثة ، فلما نصب الخباء للنبي صلى الله عليه وسلم اقتدى به الزوجات الطاهرات رغبة في المسجد وقربهن من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنه خاف تضيق المسجد فأنكر عليهن بقوله «البرّ تردن ؟» بالاستفهام الإنكاري - أي أترغبن في الطاعة بهذا - وأمر بحل خبائه وترك الاعتكاف حتى اعتكف العشر الأولى من شوال . وأما الاعتكاف فأوله قبيل الغروب لأن الليل سابق النهار ، ويجوز للمعتكف أن يخرج لحاجته كبول أو غائط أو حجامه أو غسل وطهارة . وقالت عائشة رضي الله عنها : السنة على المعتكف ألا يعود مريضا ولا يشهد جنازة ولا يمسن امرأة ولا يباشرها ولا يخرج حاجة إلا لما لا بد منه ، ولا اعتكاف إلا بصوم ، ولا اعتكاف إلا في مسجد جامع . وقال صلى الله عليه وسلم في المعتكف «هو يعكف الذنوب ويجري له من الحسنات كعامل الحسنات كلها» فالاعتكاف يحفظ المعتكف من الشرور ، ويكتب له كثواب فاعل الطاعات كلها ، لأنه حبس نفسه في بيت الله تعالى طلبا لرضاه . وقال صلى الله عليه وسلم «من اعتكف عشرا في رمضان كان كحجتين وعمرتين» .

وأما الخلوة ففائدتها دفع الشواغل وضبط السمع والبصر، لأنهما دهليز القلب، والقلب كحوض تنصب إليه مياه كدرة من أنهار الحواس، لذلك كانت الرياضة سبب إفراغ تلك المياه ليتفجر أصل الحوض فيخرج منه الماء النظيف الطاهر عن طريق ضبط الحواس بسبب الخلوة في بيت مظلم، وإن لم يكن مظلماً فليلف رأسه، وبعد مدة يشاهد جلال الحق. وهذا التجرد لا يحصل إلا بصدق إرادة واستيلاء حب الله على القلب حتى يكون في صورة عاشق، حيث يشغل لسانه وقلبه بأذكار مثل: الله، الله. أو سبحان الله، وهكذا ولا يزال يواظب على ذلك الذكر حتى يسقط من حركة اللسان وتبقى صورة اللفظ في القلب، ثم لا تزال كذلك حتى تمحى عن القلب حروف اللفظ وصورته وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب، حاضرة معه، غالبية عليه. وبذلك يخلو قلبه من كل شيء ولا يبقى إلا ذكر الله، فعند ذلك يلزمه أن يراقب وساوس القلب والخواطر التي تتعلق بالدنيا وما مضى من أحواله وأحوال غيره، فلا يدع فرصة لذلك، لأنه كلما اشتغل بها في تلك اللحظة إلا خلا قلبه من الذكر، فليجتهد في دفع ذلك، وإذا ما أحاطت به فلبفزع إلى ذكر الله ويبتهل إليه بدفع ذلك، قال تعالى «وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعد بالله إنه سميع عليم» وقال تعالى «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون».

والخلوة لها عدد من الأيام وعدد من الأورد، فهي إما ثلاثة أيام أو سبعة أو أكثر إلى أربعين أو إلى سبعين، وداخلها يصلي ركعتين ويقرأ سورة يس وآية الكرسي ثم يجلس جلسة الصلاة مستقبلاً القبلة مغمضاً عينيه ثم يأخذ في ورده، وإن شق عليه في هيئة الجلوس فليروح نفسه على هيئة أخرى، ويلزم الطهارة المائية، وإن كان له عذر فليتيمم، ولا يكون نومه إلا غلبة، ويلزم خلو البطن من الطعام لأن ذلك مدعاة إلى النوم، والجلوس للذكر على هيئة الخضوع لعظمة الله جل جلاله، وإغماض العينين وكف السمع ما أمكن، إذ بذلك يمكن الاستعانة على جمع الفكر، لأن الفكر يتشعب بتشعب الشواغل الواردة عليه من الحواس، كما ينبغي الالتزام بأعداد الورد، وهنا لا بأس من استعمال السبحة لخصر العدد وعدم انشغال الفكر مع العد والعدد، وأن لا يقطع ورده بكلام أو غيره.

فلزم أيها الراغب إلى ما ذكرناه، واعلم بأن دقائق علوم الصوفية منح إلهية، ومواهب اختصاصية : فشمّر عن ساعد الجد نحو العمل قدر الاستطاعة، والجا إلى الله في كل فتح على قدر الهمة. قال الجنيد : ما أخذنا التصوف عن القليل والقال، والمرء والجدال، وإنما أخذناه عن الجوع والسهر وملازمة الأعمال.



## الذكر والدعاء والورد

روي عن أبي هريرة أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ذهب أهل الدثور - أي أصحاب المال - بالدرجات والنعيم المقيم ، فقال وماذاك ؟ قالوا : يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة » قال أبو صالح : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال فعلنا ، ففعلوا مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » . وزاد أبو داود : وتختمها بلا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . ولفظ الترميذي : قولوا سبحان الله ثلاثاً وثلاثين ، والحمد لله ثلاثاً وثلاثين ، والله أكبر أربعاً وثلاثين ، ولا إله إلا الله عشر مرات . ولمسلم : من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين ، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين ، وكبر الله ثلاثاً وثلاثين ، فتلك تسعة وتسعون ، وقال تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، غفرت خطاياها وإن كانت مثل زبد البحر . هذا فيما يرجع للدعاء والذكر عقب الصلاة .

أما صلاة الاستخارة كما روي عن جابر قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول « إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم يقول : اللهم إني استخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال - عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ، ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال - في عاجل أمري وآجله ، فاصرفه عني واصرفني عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به ، قال : ويسمى حاجته » ، وصلاة الاستخارة مستحبة عند كل أمر هام كالاستشارة ، غير أنها لا تصلي وقت الكراهية . وأما صلاة التسييح فهي كما رواها ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال للعباس بن عبد المطلب : « يا عباس يا عمه ، ألا أعطيك ، ألا أمنحك ، ألا أحبوك ، ألا أفعل بك عشر خصال

إذا فسر ذلك غفر الله لك ذنبك أوله وآخره، قديمه وحديثه، خطأه وعمده، صغيره وبيريه، سره  
 وعلايته، عشر خصال أن تصلي أربع ركعات، تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغت  
 من القراءة في أول ركعة وأنت قائم قلت : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، خمس  
 عشرة سجدة، ثم تركع فتقولها وأنت راكع عشرا، ثم ترفع رأسك من الركوع فتقولها عشرا، ثم تهوي  
 ساجدا فتقولها وأنت ساجد عشرا، ثم ترفع رأسك من السجود فتقولها عشرا، ثم تسجد فتقولها عشرا،  
 ثم ترفع رأسك فتقولها عشرا، فذلك خمس وسبعون في كل ركعة، ثم تفعل ذلك في أربع ركعات، إن  
 استطعت أن تصليها في كل يوم مرة فافعل، فإن لم تفعل ففي كل جمعة مرة، فإن لم تفعل ففي كل  
 شهر مرة، فإن لم تفعل، ففي كل سنة مرة، فإن لم تفعل ففي عمرك مرة. وزيد في رواية : فإنك لو  
 كنت أسلم أهل الأرض ذنبا غفر لك بذلك.

وأما صلاة التوبة، كما قيل عن علي كرم الله وجهه : كنت رجلا إذا سمعت من رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم حديثا نفعتني الله منه بما شاء أن ينفعتني، وإذا حدثني رجل من الصحابة  
 استحلقتني. فإذا حلف لي صدقته، وإنه حدثني أبو بكر وهو صادق قال : سمعت رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم يقول «ما من رجل يذنب ذنبا ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي، ثم يستغفر الله إلا غفر الله  
 له، ثم قرأ هذه الآية - والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم -  
 الآية».

وفي صلاة الحج كما روي عن عبدالله بن أوفى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال  
 «من كانت له إلى الله حاجة أو إلى أحد من بني آدم فليتوضأ، فليحسن الوضوء، ثم يصلي ركعتين  
 وليثن على الله وليصل على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يقول : لا إله إلا الله الحليم الكريم،  
 سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك،  
 والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، لا تدع لي ذنبا إلا غفرته، ولا هما إلا فرجته، ولا حاجة  
 لك رضا إلا قضيتها، يا أرحم الراحمين».

وقال صلى الله عليه وسلم «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة، هو الله  
 الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق  
 البارئ المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرفع المعز المذل  
 السميع البصير الحكيم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ  
 المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق  
 الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدي المعيد المحي المميت الحي القيوم الواجد الماجد  
 الواحد الصمد القادر المقدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم  
 العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور  
 الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور».

وفي التسبيح قال صلى الله عليه وسلم «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أمسى قال «أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير، رب أسألك خير ما في هذه الليلة ، وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر ما بعدها ، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب النار وعذاب القبر. وإذا أصبح قال ذلك أيضا : وأصبح الملك لله» ، وكان صلى الله عليه وسلم أكثر دعائه «اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» .

والذكر أو رده الله تعالى في آيات ، منها قوله تعالى «فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم» ، وفيها قوله تعالى «الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم» ، وقوله تعالى «واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين» ، وقال «ولذكر الله أكبر» ، وقال صلى الله عليه وسلم «يقول الله عز وجل أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت شفته بي» ، وقال صلى الله عليه وسلم «ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل : قالوا يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ثم تضرب به حتى ينقطع ، ثم تضرب به حتى ينقطع» ، وقال صلى الله عليه وسلم «يقول الله تبارك وتعالى إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي ، وإذا ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير من ملاءه ، وإذا تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا ، وإذا تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا ، وإذا مشى إلي هرولت إليه» . والذكر له سبع درج في الإنسان ، إذا انتهى إليها كان أقصى الكمال ، وكلها ناشئة عن الذكر باللسان ، أولها الذكر باللسان ، وثانيها الذكر بالقلب ، وثالثها الذكر بالروح ، ورابعها الذكر بالسر ، وخامسها بالعقل ، وسادسها الذكر بالشعور ، وسابعها الذكر بالله وهو الكمال عند المشايخ ، إذا وصل المرء إلى هذا المقام صار من أرباب المشاهدة . والذكر المطلوب من العبد أن يذكر الله باللسان وهو حاضر القلب والروح وجيع القوى متوجها إلى ربه تاركا كل الخواطر وأحاديث النفس عنه ، فإذا داوم على ذلك انتقل الذكر من اللسان إلى القلب ، ثم لا يزال كذلك حتى يتجلى له الحق من وراء الأستار فيشرق الباطن وتظهر التجليات ، فيفنى العبد في الحق .

وكان أحد المشايخ من أصحاب القلوب إذا أمر واحدا من مريديه بالخلوة والذكر ، فكان بعد الأربعين يوما عند استكمال مدة الخلوة وحصول التصفية التامة يقرأ عليه الأسماء التسعة والتسعين ، ويقول للمريد اعتبر حال قلبك عند سماع هذه الأسماء ، فكل اسم وجدت قلبك عند سماعه قد قوي وتأثر وعظم شوقه إليه فاعرف أن الله يفتح أبواب رحمته عليك بواسطة المواظبة على ذكر ذلك الاسم .

والمتصوفة يقولون : إن للذكر بداية ، وهي التوجه الصادق ، وله وسط وهو النور الخارق ، وله نهاية وهو الحال الخارق ، وله أصل وهو الصفاء ، وفرع وهو الوفاء ، وشرط وهو الحضور ، وبساط وهو العمل الصالح ، وخاصية وهو الفتح المبين . وقال أبو سعيد الخراز رضي الله عنه : إذا أراد الله أن

يوالي عبدا فتح له باب الذكر، فإذا استلذ بالذكر فتح عليه باب القرب، ثم رفعه إلى مجالس الأنس، ثم أجلسه على كرسي التوحيد، ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردانية وكشف عنه الجلال والعظمة، فإذا نظر الجلال والعظمة بقي بلا هو، فيصير فانيا محفوظا لله. وقال غيره: الذكر ترياق المذنبين وأنس المنقطعين وكنز المتوكلين وغذاء الموقنين وحلية الواصلين ومبدأ العارفين وبساط المقربين وشراب المحبين. وقال بعض المفسرين لقوله تعالى « فمنهم ظالم لنفسه » هو الذاكر بلسانه « ومنهم مقتصد » هو الذاكر بقلبه « ومنهم سابق بالخيرات » هو الذي لا ينسى ربه.

وفضيلة الدعاء يكفي ما قاله عز وجل « وقال ربكم أدعوني أستجب لكم، إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » وقال عز وجل « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى »، وقال صلى الله عليه وسلم « إن الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: « ادعوني استجب لكم ». وقال أيضا « ليس شيء أكرم على الله عز وجل من الدعاء ».

وللدعاء آداب، منها أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة كعرفة ورمضان والجمعة ووقت السحر من الليل. وأن يغتنم الأحوال الشريفة كالزحف عن الصف وعند إقامة الصلاة وعند أول الغيث وبين الأذان والإقامة وعند السجود، وأن يستقبل القبلة وقت الدعاء مع رفع اليدين من غير أن ترفع بصرك نحو السماء. وخفض الصوت بين الجهر والخافتة. وعدم تكلف السجع في الدعاء. فعلى الداعي أن يكون حاله حال متضرع. والتضرع والخشوع والرغبة والرغبة. وأن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق الرجاء. وأن يلح في الدعاء ويكرره ثلاثا. وأن يفتح الدعاء بذكر الله فلا يبدأ بالسؤال. وأدب الباطن وهو الأصل في الإجابة كالتوبة ورد المظالم والإقبال على الله. والطريق إلى الله تعالى مراقبة الأوقات، وعمارتها بالأوراد على سبيل الدوام، قال تعالى « إن لك في النهار سبحا طويلا، واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتلا »، وقال عز وجل « واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا »، وقال عز من قائل « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود »، وقال تعالى « أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون »، وقال صلى الله عليه وسلم « أحب عباد الله الذين يراعون الشمس والقمر والأهلة لذكر الله تعالى » والأوراد في مجموعها أحد عشر وردا، منها ستة بالنهار وأربعة بالليل:

فأما أوراد النهار السبعة فهي ورد ما بين طلوع الصبح إلى طلوع قرص الشمس، ووردان ما بين طلوع الشمس إلى الزوال، ووردان ما بين الزوال إلى وقت العصر، ووردان ما بين العصر إلى المغرب.

وأما أوراد الليل الأربعة فهي: وردان بين المغرب إلى وقت نوم الناس، ووردان من النصف الأخير من الليل إلى طلوع الفجر.

فأما الورد الأول ما بين طلوع الصبح إلى طلوع قرص الشمس، فهو ما كان أوفق بحاله وأخف على لسانه، وأقل ما ينبغي أن يكرر بعد أدعيته الخاصة أن يكرر ورده ثلاثا أو سبعا أو مائة أو أقل أو أكثر بقدر فراغه وسعة وقته كثر ديدنه: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي

ويميت وهو حي لا يموت ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير . أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . أو لا إله إلا الله الملك الحق المبين . . . وهكذا ، أو قراءة آيات مثل سورة الفاتحة أو آية الكرسي أو لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخرها . . . وهكذا .

والورد الثاني ما بين طلوع الشمس إلى صحوه النهار - أي بعد مضي ثلاث ساعات من النهار - وفيه وظيفتان ، الأولى بعد صلاة الضحى ، والثانية من منتصف النهار إلى قبيل الظهر . والورد الرابع ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر ، وراتبه أقصر أوقات النهار . والورد الخامس ما بعد ذلك إلى العصر ، ويستحب أن يكون فيه الاعتكاف في المسجد مشغلا بالذكر والصلاة ، وإن كان في بيته فهو أسلم لاقتداء أهل بيته .

الورد السادس وقت دخول العصر إلى اصفرار الشمس . والورد السابع من اصفرار الشمس إلى أن تقرب من الأرض وقت غروبها ، وفي هذا الوقت يستحب الاستغفار ، كأن تقول «أستغفر الله إنه كان غفارا» أو «رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين» ، كما يستحب قراءة سور الشمس والضحى والليل والمعوذتين ؛ وبغروب الشمس انتهت أوراد النهار التي أشرنا إلى اتخاذها حسب الطاقة والاستطاعة من غير أن يغفل طريقة معاشه اليومية التي يجب أن تكون من الحلال الطيب .

وأما أوراد الليل ، فأولها إذا غربت الشمس إلى غيبوبة الشفق - أعني الحمرة ودخول العتمة . والورد الثاني بدخول وقت العشاء إلى حد نوم الناس - وهو وقت استحكام الظلام ، ووقت النوم ينام أيضا على ورده وأذكاره مع الطهارة . والورد الثالث يدخل بمضي النصف الأول من الليل إلى أن يبقى من الليل سدسه ، فعندها يقوم للتهجد . والورد الرابع من السدس الأخير إلى وقت السحر .

والأوراد تختلف باختلاف الأحوال عند المرید ، فهو إما عابد أو عالم أو متعلم أو محترف أو موحد مستغرق في حب الله .

فالعابد قد تجرد للعبادة لا شغل له غيرها ، فترتيبه لأوراده كما ذكرنا لا بأس بذلك ، فقد تختلف وظائفه بين القلة والكثرة وبين النوافل والتسبيح ، فكان من ورده ثلاثون ألفا أوصلاته ثلاثمائة ركعة بين الليل والنهار ، وكان بعضهم ورده القرآن فيختمه بين الليل والنهار ، وللمريد أن يختار ما هو أشد تأثيرا على قلبه فيواظبه . فإذا أحس بملل رُوح بالآخر ، والأنسب أن يوزع الخيرات على أوقاته .

وأما العالم من ينفع الناس بعلمه ، فترتيبه للأوراد يخالف العابد لا محالة ، فهو يحتاج إلى مطالعة كتب وإلي تصنيف وإفادة ، وعمله هذا يدخل أيضا في باب العبادة ، إذا كان هذا العلم يعين على سلوك طريق الآخرة ، وله الاختيار في تقسيم أوقاته حسب ما ذكرنا وما يراه ملائما .

وأما المتعلم فالأفضل له الاشتغال بالعلم أفضل من اشتغاله بالأذكار والنوافل ، فحكمه حكم العالم في ترتيب الأوراد .

وأما المحترف الذي يتوقف على كسب عياله ، فلا يمكن أن يستغرق في أوقات العبادة ، بل يكون حضور قلبه كمواظبته على الذكر والتسبيح وقراءة القرآن إن لم يكن ذلك يسبب له عجزاً ، وفي وقت فراغه يمكنه ترتيب أوراده حسب استطاعته وما يراه ملائماً بالإضافة إلى تصدقه .

وأما إن كان والياً كإمام أو قاض إلى غير ذلك ، ينظر في شؤون المسلمين وفق الشرع ، فذلك أفضل من الأوراد المذكورة ، فحقه أن يشتغل بحقوق الناس نهاراً ويقتصر على المكتوبة ويقيم أوراده بالليل .

وأما الموحد المستغرق قلبه في حب الله الذي أصبح همه ، لا يحب غيره ولا يخاف إلا منه ولا ينظر إلى شيء إلا يراه فيه ، فالذي ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة لم يفتقر إلى تنويع الأولاد واختلافها ، بل كان ورده واحد ، وهو حضور القلب معه سبحانه في كل حال ، لا يقرع سمعه قارع ، بل فر إلى الله بكليته وقال «إني ذاهب إلى ربي سيهدين» وتلك هي درجة الصديقين ، ولا وصول إليها إلا بعد ترتيب أوراد ومواظبة وصبر طويل .

فما ذكرناه كله طرق إلى الله تعالى ، وصدق وهو أصدق القائلين «قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً» .

## المعاش

الناس في الدنيا ثلاث : رجل شغله معاده عن معاشه ، فهو من الفائزين ، ورجل شغله معاشه عن معاده ، فهو من الخاسرين . ورجل شغله معاشه لمعاده ، فهو من المقصدين .

قال تعالى «فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله» وقال تعالى «وجعلنا لكم فيها معاش قليلا ما تشكرون» . وقال صلى الله عليه وسلم «أحل ما أكل العبد كسب يد الصانع إذا نصح» ، وروي عن عيسى عليه السلام . أنه رأى رجلا ، فقال : ما تصنع ؟ قال : أتعبدُ . قال : من يعولك ؟ قال : أخي . قال : أخوك أعبد منك ، وقال صلى الله عليه وسلم «لأن يأخذ أحدكم حبله فيحطب على ظهره خير من يأتي رجلا أعطاه الله من فضله فيسأله أعطاه أو منعه» . وقال لقمان لابنه : يا بني ، استعن بالكسب الحلال عن الفقر ، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال : رقة في دينه ، وضعف في عقله ، وذهاب مروءته ، وأعظم من هذه الثلاث استخفاف الناس به . وقال عمر رضي الله عنه : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ، ويقول اللهم ارزقني ، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة . وقيل لأحمد : ما تقول فيمن جلس في بيته أو مسجده وقال لا أعمل شيئا حتى يأتي رزقي ؟ فقال أحمد : هذا رجل جهل العلم ، أما سمع قول النبي صلى الله عليه وسلم «إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي» .

والمؤمن الحق عليه أن يحترس ببوائق الربا والاحتكار ، فالربا حرام والاحتكار ظلم وإثم ، فعن بعض السلف أنه كان قد جهز سفينة حنطة إلى البصرة ، وكتب إلى وكيله : بع هذا الطعام يوم يدخل البصرة ولا تؤخره إلى غد . فوافق سعة في السعر فقال له التجار : لو أخرته جمعة ربحت فيه أضعافه ، فأخره جمعة فربح فيه أضعافه ، وكتب إلى صاحبه بذلك . فكتب إليه صاحب الطعام : يا هذا ، إنا كنا قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا ، وإنك قد خالفت ، وما نحب أن نربح أضعافه بذهاب شيء من الدين ، فقد جنيت علينا جناية ، فإذا أتاك كتابي هذا فخذ المال كله وتصدق به على فقراء البصرة ، وليتني أنجو من إثم الاحتكار كفافا لا علي ولا لي .

وبقدر ما يحترس من الربا والاحتكار يحترس أيضا من الغش والكذب والاحتيايل في المكيال والميزان إلى غير ذلك من البوائق ، والإحسان في التجارة والصناعة والمعاملة يجري مجرى الربح ، فلا ينبغي للمتدين أن يقتصر في عمله على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان . قال تعالى

«وأحسن كما أحسن الله إليك» وقال تعالى «إن رحمة الله قريب من المحسنين». ومما يروى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان، ضرب قيمة كل حلة منها أربعمئة، وضرب كل حلة قيمتها مائتان، فمر إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان، فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعمئة، فعرض عليه من حلل المائتين، فاستحسنها ورضيها، فاشتراها ومضى بها وهي على يديه، فاستقبله يونس فعرف حلته، فقال للأعرابي، بكم اشتريتها؟ فقال: بأربعمئة. فقال: لا تساوي أكثر من مائتين، فارجع حتى تردها فقال: هذه تساوي في بلدنا خمسمئة وأنا أرتضيها، فقال له يونس: انصرف فإن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيها، ثم رده إلى الدكان ورد عليه مائتي درهم، وخاصم ابن أخيه في ذلك.

وعن سري السقطي أنه اشترى بضع كيل من اللوز بستين دينار، وكتب عليه ثلاثة ذنانير ربحه، فصار اللوز بتسعين، فأتاه دلال وطلب اللوز، فقال خذه، قال: بكم؟ فقال: بثلاثة وستين. فقال الدلال: وكان من الصالحين - فقد صار اللوز بتسعين. فقال السقطي، قد عقدت عقدا لا أحله، لست أبيعته إلا بثلاثة وستين. فقال الدلال: وأنا عقدت بيني وبين الله أن لا أغش مسلما، لست آخذة منك إلا بتسعين. قال: فلا الدلال اشتراه ولا السقطي باعه. فهذا محض إحسان بين الطرفين.



## الزهد

الزهد من مقامات السالكين، وهو انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، وعبارة أصح، هو بيع الدنيا بالأخرة، وحب الله، والانصراف عما سواه، فالتوبة عبارة عن ترك المحظورات، والزهد عبارة عن ترك المباحة، قيل يوما لابن مبارك: يا زاهد، فقال، الزاهد هو عمر بن عبد العزيز الذي جاءته الدنيا راغمة فتركها!، وأما أنا، ففيما زهدت؟. قال تعالى «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة» وأكد للصالحين الزاهدين ربهم في قوله عز وجل «فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به» وهي الدار الآخرة التي هي خير وأبقى، وقد يعلم هذا من لا يقدر على ترك الدنيا إما لضعف يقينه أو استيلاء الشهوة عليه التي أوقعته في حبل الشيطان فتصرف تحت قهره وغره، حتى إذا اختطفته المنية لا يبقى في جعبته إلا الحسرة والفوت، قال تعالى «إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها . . . ثم أيهم أحسن عملا» قيل، معناه أيهم أزهدها فيها، ووصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال، وقال تعالى «من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب»، وقيل أن من زهد في الدنيا أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وانطلق بها لسانه، وعن بعض الصحابة قال: قلنا يا رسول الله، أي الناس خير؟ قال «كل مؤمن محموم القلب صدوق اللسان» قلنا يا رسول الله، وما محموم القلب؟ قال «التقي النقي الذي لا غل فيه ولا غش ولا بغى ولا حسد»، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أذكر الحال التي فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا عليها، والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في اليوم، وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم أنه قال: تابعنا الأعمال كلها فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زهد الدنيا، وقيل عن عمر رضي الله عنه: الزهد في الدنيا راحة القلب والجسد، وقال رجل لسفيان: أشتهي أن أرى عالما زاهدا، فقال: ويحك، تلك ضالة لا توجد، وروي أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجوائز فقبلوها، وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها، فقال له بنوه، قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه؟ فبكى الفضيل وقال: أتدرون ما مثلي ومثلكم؟ كم مثل قوم كانت لهم بقرة يحرثون عليها، فلما هرمت ذبحوها لأجل أن ينتفعوا بجلدها، كذلك أنتم أردتم ذبحي على كبر سني، موتوا يا أهلي جوعا خير لكم من أن تذبحوا فضيلا! وقيل أن المسيح عليه السلام كان يلبس الشعر ويأكل الشجر وليس له ولد يموت ولا بيت يخرب ولا يدخر لغد أينما أدركه المساء نام.

وقال إبراهيم بن أدهم : قد حجت قلوبنا بثلاثة أعطية ، فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب : الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح ، فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص ، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط ، والساخط معذب ، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب ، والعجب يحبط العمل . وقال الثوري : الدنيا دار التواء لا دار استواء ، ودار ترح لا دار فرح ، من عرفها لم يفرح برخاء ولم يحزن على شقاء .

والزهد يتفاوت بحسب تفاوت قوته إلى ثلاث درجات :

الأولى وهي السفلى ، أن يزهد في الدنيا وهو لها مشته وقلبه إليها مائل ، ولكنه مع ذلك يجاهدها ، وربما جذبته شهوته فعاد للدنيا ، واستراح لها قليلا أو أكثر .

الثانية ، وهي أعلى من الأولى ، أن يترك الدنيا طوعا لاستحقاقه إياها ، وهذا الصنف يرى لا محالة زهده ويلفت إليه ، فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده ، فيظن أنه ترك شيئا له قدر مقابل شيء هو أعظم منه قدرا ، وفي هذا شيء من النقصان .

والثالثة ، وهي العليا ، أن يزهد طوعا ، ويزهد في زهده حتى لا يرى زهده ، فلا يرى في ذلك معارضة ، وهذا هو الكمال في الزهد بسبب كمال المعرفة .

والدنيا عند أهل المعرفة وأرباب المشاهدة والمكاشفة ، مثل تركها كمثل من منعه عند باب الملك كلب ، فألقى إليه لقمة فشغله بها ودخل الباب ، فنال القرب عند الملك ، فالشيطان كلب يقف بين العبد وبين باب الله فيمنعه من الدخول علما بأن الباب مفتوح على مصراعيه ، والدنيا كلقمة خبز لها لذة مضغ تنتهي حينما إلى نتن وإفراغ .

إن حظوظ النفس في الدنيا كثيرة ، ورغباتها لا حصر لها ، وقد أجمل الله ذلك في سبعة تتجلى في قوله تعالى « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا » ولخص ذلك في خمسة عند قوله تعالى « اعلموا أنها الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد » ، ثم لخص ذلك في اثنين عند قوله تعالى : « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو » ، ثم لخص ذلك في واحدة عند قوله تعالى « ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » ، فالهوى جمع حظوظ النفس وطمعها في الدنيا . وإذا كان الزهد هو ترك ما سوى الله عز وجل فإن ذلك ينبغي فيه صيانة البدن من الجوع والعطش المهلك ، ومن الحر والبرد المهلك ، بل الاقتصاد فيما هو ضروري . قالت عائشة رضي الله عنها : كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار ، قيل لها : فبم كنتم تعيشون ؟ قال : بالأسودين - أي التمر والماء - . وقال يحيى بن معاذ الرازي : الزاهد الصادق قوته ما وجد ، ولباسه ماستر ، ومسكنه حيث أدرك ، الدنيا سجنه ، والقبر مضجعه ، والخلوة مجلسه والاعتبار فكرته ، والقرءان حديثه ، والرب أنيسه ، والذكر رفيقه ، والزهد قرينه ، والحزن شأنه ، والحياة شعاره ، والجود إدامه ، والحكمة كلامه ، والتراب فراشه ، والتقوى زاده ، والصمت غنيمته ، والصبر معتمده ، والتوكل حسبه ، والعقل دليله ، والعبادة حرفته ، والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى .

## الخوف والرجاء

الخوف والرجاء جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود، ومطيتان بهما يقطع العقبات والمراحل ويطوي المسافات .

فالرجاء مقام ضمن مقامات السالكين، ويعني ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده لأجل حصول أكثر أسبابه، قال تعالى: «إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله»، فالرجاء محمود لأنه باعث بطريق الرغبة، وحاله يورث طول المجاهدة والمواظبة على الطاعات كيفما تطلب في الحال، وقد يتلدد السالك به، لأنه يقبل على الله بمناجاته والتلطف بين يديه .

والرجاء أعلى من الخوف، مثل ذلك كمثل من يخدم ملكا خوفا منه والآخر يخدمه رجاء لثوابه، قال صلى الله عليه وسلم «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»، ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل في النزاع فقال: «كيف تجددك؟ فقال: أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي. فقال صلى الله عليه وسلم «ما اجتمعتا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما رجا وأمنه مما خاف». وأسباب الرجاء اثنان، اعتباري واستقرائي .

فالاعتباري هو التأمل في أوصاف النعم، حتى إذا ما علم العبد لطائف نعم الله لعباده في الدنيا وعجائب حكمه التي رعاها في فطرة الإنسان، ونظر في حكمة الشريعة وسننها في مصالح الدنيا والعباد ووجوه رحمتها إلى غير ذلك، فإن كل ذلك مدعاة لتقوية أسباب الرجاء .

وأما الاستقرائي، فهو استقراء آيات وأخبار وآثار واردة في الرجاء لا حصر لها، فمثلا قوله عز وجل «قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم»، وقال عز وجل «وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم»، وروي في تفسير قوله تعالى «يوم لا يخزي الله النبيء والذين آمنوا معه» أن الله تعالى أوحى إلى نبيه السلام: «أني أجعل حساب أمتك إليك، قال «يارب، أنت أرحم بهم مني» فقال: «إذن لا نخزيك فيهم». وقال صلى الله عليه وسلم: «يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني، غفرت لك»، ومن الآثار قول علي كرم الله وجهه: من أذنب ذنبا فستره الله عليه في الدنيا فالله أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة، ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه في الدنيا فالله تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة، وفي حديث ربي بن حراس عن أخيه - وكان من خيار التابعين وهو ممن تكلم بعد الموت -

قال ، لما مات أخي ألقينا ثوبه على نعشه ، فكشف الشوب عن وجهه واستوى قاعدا وقال ، إني لقيت :  
ربي عز وجل فحياني بروح وريحان وربي غير غضبان ، وإني رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلا تفتروا ،  
وإن محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرنى وأصحابه حتى أرجع إليهم . قال : ثم طرح نفسه فكأنها  
كانت حصاة وقعت في طشت ، فحملناه ودفناه . وروي أن لصا كان يقطع الطريق في بني إسرائيل  
أربعين عاما ، فمر عيسى عليه الصلاة والسلام وخلفه عابد من بني إسرائيل من الحواريين ، فقال  
للص في نفسه ، هذا نبي الله يمر والى جنبه حواريه ، لو نزلت فكنت معها ثالثا ، قال فنزل وهو يدنو  
من الحواري ويزدري نفسه تعظيما للحواري ويقول في نفسه ، مثلي لا يمشي إلى جنب هذا العابد .  
قال : وأحس الحواري به فقال في نفسه ، هذا يمشي إلى جانبي ، فضم نفسه ومشى إلى عيسى عليه  
الصلاة والسلام ، فمشى بجنبه ، فبقي اللص خلفه ، فأوحى الله عز وجل إلى عيسى عليه السلام :  
قل لهما ليستأنفا العمل ، فقد أحببت ما سلف من أعمالهما ، فأما الحواري فقد أحببت حسناته لعجبه  
بنفسه ، وأما الآخر فقد أحببت سيئاته بما أزدري على نفسه ، فأخبرهما بذلك ، وضم اللص إليه في  
سياحته مع الحواريين . وروي في الأثر أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة ، قال : فإذا  
أدخلا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه ، فيقول : يارب ما كان هذا في الدنيا بأكثر  
مني عبادة فرفعتني علي في عليين ، فيقول الله سبحانه : إنه كان يسألني في الدنيا الدرجات العلى ،  
وأنت كنت تسألني النجاة من النار ، فأعطيت كل عبد سؤله . . . فهذا يدل على أن العبادة على  
الرجاء أفضل ، لأن المحبة أغلب على الرجاء منها على الخائف . وأما الخوف فهو تألم القلب واحتراقه  
بسبب توقع مكروه في الاستقبال ، وعنه قال الواسطي : الخوف حجاب بين الله وبين العبد . وحال  
الخوف ينتظم من علم وحال وعمل . فالعلم هو إدراك السبب المفضي إلى المكروه ، مثل من جنى على  
ملك ثم وقع في يده فيخاف عقوبته لكن يجوز العفو عنه والافلات منه ، فيتألم قلبه بالخوف نتيجة  
علمه بالأسباب المفضية إلى عقوبته حسب ضعفها أو قوتها . أما إذا اكتمل إلى حال معرفته كما قال  
تعالى : «إنما يخشى الله من عباده العلماء» فإن ذلك يورث جلال الخوف واحتراق القلب ، فيفيض أثر  
حرقة القلب على كل الجوارح ، فينحل الجسم ويكثر البكاء . فيكون عمله الكف عن المعاصي مع  
تقييد النفس كي يستعد للمستقبل .

والخوف في حد ذاته سوط الله يسوق به عباده ، وهو محمود ، وكلما كان أكثر كان أحمد به ينال  
قربه من الله ، فإذا كان للخوف قصور أو إفراط أو اعتدال ، فالمحمود فيه الاعتدال ، وأما القاصر ما  
فاضت عينه بكاء بسبب ترتيل آية أو سماعها أو مشاهدة سبب هائل ، فإذا غاب ذلك عاد القلب إلى  
غفلته ، فمثل هذا ضعيف النفع ، وأما خوف العارفين فهو كف الجوارح عن المعاصي وتقييدها  
بالطاعات ، وفيه قال الفضيل بن عياض : إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت ، فإن قلت لا ،  
كفرت ، وإن قلت نعم كذبت . وأما الإفراط في الخوف فهو مجاوزة الاعتدال والخروج إلى اليأس وهذا  
مذموم ، لأنه يمنع عن العمل ، وربما يدفع إلى المرض والضعف والدهشة ، وربما إلى زوال العقل .  
فالمراد من الخوف ما حمل إلى العمل على أسباب التوبة والإقلاع عن المعاصي ، وحمل إلى الحذر والورع  
والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله عز وجل .

## الصبر والشكر

الإيمان نصفان ، نصف صبر ونصف شكر، وهما من أسماء الله الحسنى ، إذ وصف سبحانه نفسه بالصبور والشكور، فجعلها جهل بشطري الإيمان ، وما أحوجنا إلى الاتصاف بهما .

فالصبر فضيلة عظيمة ، وقد وصف سبحانه الصابرين بأوصاف كثيرة وردت في القرآن من ذلك قوله تعالى : «ولنجزي الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» وقال : «أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا» وقال أيضا : «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب» ، وقال صلى الله عليه وسلم «الصبر نصف الإيمان» ، وقال علي كرم الله وجهه : بني الإيمان على أربع دعائم ، اليقين والصبر والجهد والعدل . وقال أيضا : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا جسد لمن لا رأس له ، ولا إيمان لمن لا صبر له ، وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ قول الله تعالى «إننا وجدناه صابرا» ، نعم العبد ، إنه أواب» بكى وقال : واعجباه أعطى وأثنى - أي هو المعطي للصبر وهو المثني . وقال أبو الدرداء : ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر.

والصبر منزلة من منازل السالكين ، وعبرة عن باعث الدين في مقاومة باعث الهوى ، وهو ينقسم بحسب اليسر والعسر ، فما يشق على النفس لا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد ، فيسمى ذلك تصبرا . وما يكون عن غير شدة فيحصل بأدنى تحامل على النفس يسمى صبورا ، فإن دامت التقوى وقوي التصديق بها في العاقبة من حسن تيسر الصبر مصداقا لقوله تعالى «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى» ، قال بعض العارفين ، أهل الصبر على ثلاث مقامات ، أولها ترك الشهوة وهذه درجة التائبين . وثانيها الرضا بالمقدور ، وهذه درجة الزاهدين ، وثالثها المحبة لما يصنع به مولاه ، وهذه درجة الصديقين . وقال بعضهم : البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوافي لا يصبر عليها إلا التصديق . وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء . ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا : ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ، وقد حذر الله من فتنة المال والزوج والولد فقال «يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله» ، وقال عز وجل «إن من أزواجكم وأولادكم عدو لكم فاحذروهم» .

فما أحوج العبد إلى الصبر عن المعاصي ، وقد جمعها الله في قوله «وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى» وقال صلى الله عليه وسلم «المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جامد هواه» فأشد أنواع

الصبر هو الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة للعبد بالعادة، فإذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان، فيكون الصبر أثقل على النفس، كالصبر على معاصي اللسان من غيبة وكذب ومراء وثناء على النفس وازدراء واستحقار وقده، فتكون للنفس شهوتان، إحداهما نفي الغير والأخرى إثبات نفسه، وبها يثبت ربوبية التي هي في طبعه، وذلك ضد ما أمر به من العبودية، فيكون الصبر عليه أعسر. والصبر على بلاء الله تعالى أشد، فلا يقدر عليه إلا الأنبياء، وقيل أن الشبلي حبس في المارستان فدخل عليه جماعة فقال: من أنتم؟ قالوا: أحبناؤك جاءوك زائرين، فأخذ يرميهم بالحجارة، فأخذوا يهربون، فقال: لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي. وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة يطالعها، وقد كتب عليها قول الله عز وجل «واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا». ويقال أن امرأة فتح الموصلي عثرت فانقطع ظفرها فضحكت، فقيل لها: أما تجدين الوجد؟ فقالت: إن لذة ثوابه أزلت عن قلبي مرارة وجعه. والصبر يمكن الدربة عليه وتقويته في النفس المصابة عن طريق الصوم مع الزهد في الطعام، وقطع الأسباب المهيجة عن طريق النظر، لأن النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة. وطبعها هذا يحصل بالعزلة والاحتراز من وقوع البصر على الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية، وأخيرا تسلية النفس بالذكر والاطمئنان إلى ذلك، قال تعالى: «اصبروا وصابروا وربطوا» فالصبر لله غناء، والصبر بالله بقاء، والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء.

وأما الشكر فقد قرنه الله تعالى بالذكر حيث قال «فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون» وأثبتته بالمزيد حيث قال سبحانه «لئن شكرتم لأزيدنكم» وقال صلى الله عليه وسلم «الطاعم الشاكر بمنزلة الصابر»، وقال ابن مسعود: الشكر نصف الإيمان.

والشكر مقامات السالكين، وهو علم وحال وعمل. فالعلم يورث الحال، والحال يورث العمل.

فأما العلم فهو المعرفة للنعمة من المنعم، والحال هو الحاصل بإنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوه.

إن من فهم حكمة الله في موجوداته فقد يقدر على القيام بمهمة الشكر ويعلم صدق قوله تعالى «وقليل من عبادي الشكور»، وفرح إبليس لعنه الله في قوله «ولا تجد أكثرهم شاكرين».

وإن أشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه، ومنهم الملائكة أولا، وقد رتبوا، وما منهم إلا وله مقام معلوم، وأعلامهم رتبة ملكه إسرافيل عليه السلام، وقد أصلح الله بهم الرسل والأنبياء، وهم أشرف الخلق على وجه الأرض، هدى الله بهم سائر الخلق، وأعلامهم محمد صلى الله عليه وسلم الذي ختم به الأنبياء، ثم بعدهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، فهم في أنفسهم صالحون، وقد أصلح الله بهم خلقه، فدرجة كل واحد بدرجة الإصلاح، ثم يليهم الحكام الذين وفقوا إلى العدل، ثم بعدهم الصالحون الذين أصلحوا دينهم وصلحت أنفسهم.

وإن أفضل علاج للقلوب الغافلة عن الشكر أن تبصر في أمرها، فإن كانت بصيرة فالأفضل لها التأمل في أصناف نعم الله، وإن كانت بليدة فسييلها النظر إلى ما دونها، فعلى العاصي أن يتدارك،

وعلى المطيع الزيادة في الطاعة ، والعادة أن النعمة إذا لم يكن الشكر عليها زالت ، كان الفضيل بن عياض يقول : عليكم بملازمة الشكر على النعم ، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم . وقال بعض السلف : النعمة وحشية فقيدها بالشكر ، قال تعالى : «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» .

إن الصبر والشكر سيان ، فهما عنوان الطاعة ، ولكل منهما مقام ، قيل عن شيخ طاعن في السن سأله عن حاله فقال : كنت في بداية عمري أهوى ابنة عم لي وهي كذلك ، فاتفق أن تزوجتها ، وفي ليلة زفافنا قلت لها : علينا أن نحبي الليلة شكرا لله أن جمعنا ، فصلينا تلك الليلة ولم يفرغ أحدنا ، فلما كانت الليلة الثانية فعلنا مثل ذلك ، وهما نحن الآن في السبعين أو الثمانين ونحن على تلك الحالة كل ليلة . إن صبر الفرقة لهذين الزوجين نوع من الشكر فقد يقربنا في جل الأحوال ، وإن كان الصبر أسبق في أحواله .

ولنا في قصة أيوب عليه السلام أقوى برهان على اقتران الصبر بالشكر ، إذا ابتلاه بالفقر بعد الغنى وبالمرض بعد الصحة ، ومع هذا كان صابرا شاكرا .

يروى علماء التاريخ والتفسير أن نبي الله أيوب عليه السلام كان كثير المال والأنعام والأراضي ، وكان له أولاد وأهل كثير ، فسلب من ذلك كله ، وابتلي في جسده بأنواع الأمراض ، حتى قيل أنه لم يسلم إلا قلبه ولسانه ، وفي كل ذلك كان صابرا شاكرا رغم طول مرضه وانقطاع الناس عنه إلا زوجته الصالحة واختلف العلماء في بلواه ، قيل ثلاث سنوات ، وقيل أكثر ، وكانت زوجته تخاطبه قائلة : لو دعوت ربك لفرج عنك ، فيقول عشت سبعين سنة صحيحا فهو قليل لله أن أصبر له سبعين سنة ، وكان عليه السلام يقول في دعائه «اللهم أنت أخذت وأنت أعطيت» ، والقرءان يصرح لنا بذلك في قوله تعالى : «وأيوب إذ نادى ربه أي مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ، فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين» .

ورغم أن الشيطان كان يوسوس له وقت مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء والقنوط والجزع ، فقد كان يلجأ إلى ربه وسلاحه الشكر والصبر الحميل ، إلى أن أمره الله أن يضرب برجله ليتفح له عينا باردة من الماء فيشرب منها ويغتسل ، فأذهب الله عنه الضر ظاهره وباطنه ، وذلك ما جاء في قوله عز وجل «واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أي مسني الشيطان بنصب وعذاب اركض برجلك ، هذا مغتسل بارد وشراب ، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب ، وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ، إنا وجدناه صابرا ، نعم العبد ، إنه أواب»

إنه سبحانه وتعالى أعطى لأيوب ما فقد من رزق وولد أضعافا مضاعفة ، وإن أيوب بحق كان قدوة الصابرين الشاكرين .

## إشراق القلب

إن النفس إذا ماتت عن الشهوات، أشرق القلب بالأنوار، وجلب لها الخوف والخشية والحياء، فالنفس كلما تأدبت نال القلب ولايته وسلطانه، لأن النفس مركب القلب، وللقلب عساكر، وهو مخلوق لعمل الآخرة راجيا سعادته، وسعادته معرفة ربه، ومعرفة ربه تحصل من ولايته لأنه من جملة عالمه، ولا تحصل له معرفة عجائب العالم إلا عن طريق حواسه، وحواسه من الجسم المركب، والجسم المركب لا يقوم إلا على الطعام والشراب والحرارة والرطوبة، وهو على خطر من الجوع والعطش في الباطن، وعلى خطر من الماء والنار في الظاهر، زيادة على مقابلة أعداء كثيرة. فإذا نكس القلب الظاهر يتجلى في الشهوة والغضب ومقامهم في اليدين والرجلين والأذنين والعينين وجميع الأعضاء، وأما عساكره الباطنة فمقامها الدماغ الذي هو قوى الخيال والتفكير والحفظ والتذكر والوهم. فكل هذه الجنود تحت إمرة القلب، منها يحصد الزاد للآخرة، فإن رادها على فعل الخير كانت طريقا نحو السعادة والإشراق.

والقلب مع جنده أحوال، وأحواله أربعة، إما أن يتصف بأخلاق الشياطين، أو أخلاق البهائم، أو أخلاق السبياع، أو أخلاق الملائكة.

فالمرء والحيلة والخداع والغش من خلق الشياطين، والشرب والنوم والنكاح من خلق البهائم، والضرب والقتل والخصام من خلق السباع، والرحمة والخير والعلم من خلق الملائكة.

والقلب هدف يصاب على الدوام بتأثر وتغير، فإذا نزل به الشيطان دعاه للهوى، وإن نزل به الملك صرفه عنه، وبذلك يشير قوله عز وجل «ونقلب أفئدتهم وأبصارهم» وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» قالوا: أو تخاف يا رسول الله؟ قال: «ما من قلب إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاعه»، وقد مثله صلى الله عليه وسلم بقوله «مثل القلب كمثل ريشة في أرض فلاة تقلبها الرياح ظهرا وباطنا». والحق أن تقلبات القلب حيرت العارفين إلا أصحاب المراقبة الذين يراعون أحوالهم مع الله عز وجل.

والقلوب ثلاثة: قلب مليء بالتقوى تصب فيه قداح الخير من ينابيع الغيب والملكوت، فيطلع على الأسرار، وتنكشف للعقل بنور البصيرة، فينظر الملك إلى القلب حيث يجده طيبا في جوهره طاهرا بتقواه مستنيرا بضياء العقل معمرا بأنوار المعرفة ممدا بجنود لا ترى ترشده إلى الخيرات، فتتيسر الأحوال



كما جاء في قوله تعالى «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره ليسرى» وهكذا يشرق فيه النور الإلهي حتى لا يخفى فيه الشرك الخفي الذي هو أخفى من ديب النملة، فلم يبق للشيطان كيد ولا قيد.

ثم هناك قلب مخذول مشحون بالهوى مدنس بأخلاق الخبث والمذمة، مفتوح للشيطان مغلق عن الملائكة، لف بالهوى نور العقل حتى أنس بذلك، حينذاك تساعد النفس عليه فتغمره الظلمات فيقوى سلطان الشيطان حيث يوحى بزخرف القول والغرور، فيصير العقل كالعين التي ملئت دخانا لا تقوى على النظر، فتعمى البصيرة، ويصم السمع وتهيج الشهوة، وتتحرك الجوارح على المعصية، فيحق عليه قول الله عز وجل «لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون».

وأخيرا، هناك قلب تبدو فيه خواطر الهوى تدفعه إلى الشر، فيتصدى له خاطر الإيمان فيدفعه إلى الخير، ومع الخاطرين تتحرك النفس فتناصر هذا أو ذاك، وبينهما يداعب الشيطان العقل ويغمزه ويلمزه، فيحدث الصراع بين الملك والشيطان، ولا يزال الصراع على أشده حتى ينحاز إلى جانب الشيطان أو يدخل في حزب الله، غير أن الاستقرار من الجانبين نادر.

إن الله سبحانه وتعالى أعلم بخلقه، فمن تيسر للجنة تيسرت له أسباب الطاعات، ومن كان للنار عبدا أسيرا تيسرت له أسباب المعاصي وتسلطت عليه أقران السوء، فيؤخر توبته إلى أن يباغته الأجل فيجري عليه قول الله تعالى «يعدهم ويمنيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا»، وصدق عز وجل إذ قال «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنها يصعد في السماء».

## العقل

قسم ابن سينا العقل إلى أربعة .

- العقل الهيوولي : وهو عقل الإنسان في طوره الأول ، لم يقبل أي إدراك ، لكنه يستطيع الحصول على الإدراكات ، فهو بمثابة الهيوولي في انتظار الصور .

- العقل بالملكة : وهو العقل الهيولاني ، الذي قبل المعقولات الأولى من العقل الفعال ، والتي يقع التصديق بها لكل واحد ، مثل اعتقادنا أن الكل أكبر من الجزء . . وهكذا . وهذه المعقولات الأولى هي البديهيات التي نعتمد عليها في التفكير والتحصيل . ومن خصائص العقل بالملكة الاعتقاد بأن الأشياء هي كما هي :

- العقل بالفعل ، هو العقل بالملكة الذي فاضت عليه المعقولات الثواني من العقل الفعال ، والمعقولات الثواني هي ماهيات الأشياء كفكرة الجماد والنبات والحيوان والعدالة والانصاف . . . إلى غير ذلك ، فهي الأنواع التي لا تقابلها الأشياء المحسوسة الجزئية المعنية ، بل هي متحققة في الجزئي ، مثل فكرة النبات متحققة في الشجرة بالذات ، وفكرة الحيوان كالحصان متحققة في الحصان بالذات . . .

- العقل المستفاد : هو الذي تكون الصورة المعقولة حاضرة فيه يعقلها .

إن هذه المراتب الأربع ليست متشابهة في كل العقول ، فقد يوجد استعداد شديد لبعض العقول في المرحلة الهيولانية يجعلها تتقبل من العقل الفعال مباشرة دون أن تمر من المراتب الأخرى ، ومثل هذه العقول عند ابن سينا هي عقول ربيعة قدسية من ضرب النبوة .

والعقل منبع العلم وأساسه ، والعلم يجري فيه مجرى الثمرة من الشجرة ، ومجرى النور من الشمس ، والله تبارك وتعالى أسمى العقل بالنور في قوله تعالى «الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة» ، وقال صلى الله عليه وسلم «ما خلق الله عز وجل خلقا أكرم عليه من العقل» .

والناس اختلفوا في تفاوت العقل باختلاف تفاوت الأحوال ، فقد يكون تارة في تفاوت الشهوة كالشباب الذي يعجز عن ترك الزنا ، فإذا كبر وتم عقله قدر على ترك ذلك ، والرئاسة مثلا تزداد قوة في الكبير نظرا لتفاوت العلم المعرف لتلك الغائلة من الشهوة للرئاسة ، وقد يقدر الطبيب على ترك بعض

الأطعمة المضرة، ولا يقدر عليها من يساويه في العقل إذ أنه ليس طبيبا، وقد يكون العالم أقدر على ترك المعاصي من الجاهل لقوة علم العالم بضرر المعاصي . فكل مثل هذه الحالات تزيد من قوة غريزة العقل وتلعب دورها في تفاوته . والناس أيضا يتفاوتون عقلا من خلال التجارب عن طريق الإدراك والممارسة ، فغريزته عند النمو تزداد بالازدياد التدريجي للنمو الي أن يتكامل الجسم قرب الأربعين سنة ، مثل ذلك مثل نور الصبح يزداد وضوحا بعدما يشق إدراك الرؤيا فيه ، فيتم إدراك الرؤيا جيدا باكتمال قرص الشمس . ومثل هذا يجري أيضا على تفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر.

## النفس

عرف ابن سينا النفس بأنها جوهر قائم بذاته وصورة في آن واحد من حيث صلتها بالجسم، جوهر روحاني وهو أصل القوى المدركة والمحركة والمحافظة للمزاج الذي يتصرف في أجزاء الجسم، فهي غير محتاجة إلى الجسم بقدر ما هو محتاج إليها، وهي مصدر حياته، وقد تعيش بمعزل عنه، بدليل أنها متى انفصلت عنه تغير وأصبح شبحا بينهما هي تصعد إلى العالم العلوي لتحيا حياة البهجة والسرور، فإذا هي جوهر قائم بذاته.

واتصالها بالجسم اتصال عرضي كما قال أفلاطون، وباتحادها مع الجسم تقوم بوظيفتين، بسياسة الجسم من جهة، وبإدراك المعلومات من جهة أخرى.

بالنسبة لكونها تسوس البدن، فقد يوجد بينها وبين القوة الحيوانية النزوعية شبه كالخجل والحياء والضحك والبكاء والتخيل والتوهم وما شابه ذلك، وتستعمل قوتها في استنباط الأمور، فتوجه الجسم وترشده.

أما وظيفتها الثانية، فهو إدراكها للمعقولات مما يدل على تحررها عن الجسم، ومن شأن هذه القوة طبع الصور الكلية المجردة عن المادة، فإن كانت مجردة بذاتها فذلك، وإن لم تكن فإنها تصيرها مجردة بتجريدها إياها حتى لا يبقى فيها من علائق المادة شيء.

وقد قسم ابن سينا الأنفس إلى ثلاثة :

- إما أن تكون النفس كاملة في العلم والعمل - والمقصود بالعلم إدراك الفلسفة الفيضية .

- إما أن تكون النفس ناقصة في العلم والعمل .

- إما أن تكون النفس كاملة في أحدهما - أي عالمة بالحقيقة غير عاملة بمقتضاها، أو ميالة إلى الخير دون أن تدرك الفلسفة الفيضية . وقد ورد في القرآن الكريم «وكنتم أزواجا ثلاثة، فأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة، والسابقون السابقون، أولئك المقربون» .

ويوضح ابن سينا تقسيم الآية هكذا :

- أما الكاملون في العلم والعمل فهم السابقون، ولهم الدرجة القسوى في جنات النعيم .

– أما الكاملون في العمل ، الناقصون في العلم ، فهم في المرتبة الوسطى بين السابقين وأهل المشأمة ، فهم يتصلون بنفوس الأفلاك ويتطهرون من دنس عالم العناصر ، ويشاهدون النعيم الذي خلقه الله . فهؤلاء هم أصحاب الميمنة . سيلحقون بالسابقين بعد مدة . وقد قال صلى الله عليه وسلم «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» .

– أما أصحاب الشمال ، فهم الناقصون في العلم والعمل ، أو الكاملون في العلم الناقصون في العمل ، وهم في المرتبة السفلى ، المنغمسون في بحور الظلمات الطبيعية . والنفوس تعرج من عالم العناصر مجتازة عالم الطبيعة والنفوس والعقول إلى أن تبلغ عرش الواحد القديم ، حيث الحسن حجاب للحسن ، والنور حجاب للنور ، ولو هم أحد أن يتأمل الأول حسر طرفه وكاد تختطف بصره ، لأن شدة حسنه تحجب حسنه ، ونوره يحول دون مشاهدة نوره حيث السر الأزلي ، فهو فوق كل وصف وتمثيل ، وهنا غاية سعادة الإنسان .

## العلوم المرتبطة بالسعادة الأبدية

العلوم كثيرة، منها علم النظر وعلم الخبر وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم الأرصاد وعلم الفيزياء والكيمياء وعلم الطب . . . إلى آخره .

ولكل من هذه العلوم وأمثالها فصول تقومها وتقسّمها، فلننظر ما نحتاج إليه وما نراه ضروريا في دنيانا وآخرتنا . ونعني بذلك علم النظر - وهو علم الكلام - وعلم الخبر - وهو الشرع والمعاملات . وقد يندرج تحت هذين النوعين في تحصيل السعادة ثمانية . وهي : الواجب والجائز والمستحيل والذات والصفات والأفعال وعلم السعادة وعلم الشقاء .

فهذه الثمانية يجب طلبها لطالب النجاة . وعلم السعادة والشقاء موقوف على معرفة ثمانية أشياء ، منها خمسة أحكام وهي : الواجب والمحظور والمندوب والمكروه والمباح . وأصول هذه الأحكام ثلاثة لا بد منها ، الكتاب والسنة المتواترة والإجماع ؛ والناس في تحصيلها على مرتبتين ، عالم ومقلد ، فإذا علمها الطالب وصح نظره فيها وجبت عليه وظائف التكليف ، فاختصت منه بثمانية أعضاء : العين والأذن واللسان واليد والبطن والفرج والرجل والقلب . والعلم بتكليف هذه الأعضاء هو العلم بالأعمال التي تقود نحو السعادة . إذا عمل بها ، وهذه العلوم تحتمل أن تكون هي الأنوار التي قال الله سبحانه فيها «فهو على نور من ربه» وقال سبحانه فيها أيضا «نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم» .

وهذه الأنوار لها ثمانية ألقاب ، ولكل لقب رجال ، وهم ثمانية أصناف ، ولهم ثمانية مقامات ، ولها ثمانية ظلم . فأصحاب هذه الشهوات في هذه الظلمات تائهون كما قال تعالى «ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون» ، وأصحاب الحضور والعناية في الأنوار ينعمون ، فهم على نور من ربهم ، وطائفة أخرى وهم أهل الخلط تارة مع النور وتارة مع الظلمة ، وهم المعترفون بالذنوب كما قال تعالى «وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم» ، وهذه الأنوار تسبح في ثمانية أفلاك ولها ثمان حركات وثمانية مشارق وثمانية مغارب وثمانية مواسط حيث نقطة الاستواء وتقابلها نقطة الحضيض ، وألقابها الشمس والهلال والقمر والبدر والكوكب الثابت والبرق والسراج والنار ، ورجالها ومقاماتها ثمانية ، فالنور الشمسي لأهل المعرفة ، والهلا لأهل المراقبة ، والقمري لأهل الاعتبار ، والبدري لأهل المسامرة ، والكوكبي لأهل المراعاة ، والسراجي لأهل الخلوات ، والناري لأهل المجاهدات ، والبرقي لأهل العلم أهل الاختصاص الجامعين للمقامات - وهم أهل الذات -

وهو لهم أرفع الأنوار وأعلاها، وهو لمح يخطر للعالم يثبت لقوته، لكن فائدته عظيمة، ففي رعه الهيبة وفي أمطاره الأسرار، وفي تجليه الخلب، فهؤلاء هم رجال هذه الأنوار وأحوالهم.

فأما المقامات الثمانية وتعني المدلول لهذه الأنوار. فمدلول البدر الدنيا الكبرى والواسعة، ومدلول الكوكب الثابت الدنيا الصغرى، ومدلول السراج الجنة الكبرى، ومدلول النار الجنة الصغرى، ومدلول القمر جهنم الكبرى، ومدلول الهلال جهنم الصغرى، ومدلول الشمس صفات المعنى، ومدلول البرق صفات النفس. وظلمات هذه الأنوار ثمانية: فنور الشمس يزيل ظلمة النفس، ونور الهلال يزيل ظلمة الشك، ونور القمر يزيل ظلمة الغفلة، ونور البدر يزيل ظلمة الخيانة، ونور الكوكب يزيل ظلمة الجهل، ونور السراج يزيل ظلمة الوسوسة، ونور النار يزيل ظلمة الرعونة، ونور البرق يزيل ظلمة التنزيه، وهذا الأخير لا يمكن وصفه لعجز الإثنيين من أصحابه لوصفه والخوض فيه والتعبير عنه، ومثل ذلك من ذاق العسل، فلا يعرف إحساسا للعسل، لأنه ينظر إلى ذات العسل.

## التحقيق بعمل الأعضاء

إن التحقيق بعمل الأعضاء طبق الشرع هي العلامة على سلوك الطريق السوي ، فالبصر علامته الغض عن المحرمات والنظر إلى ما وافق الشرع ، والسمع يراعي فيه التكاليفات مع صدق الآية الكريمة عليه «الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه» كسماع العلم ومواظبة مجالس الذكر، والعمل بما سمع حسب الاستطاعة ، واللسان علامته قلة الكلام إلا فيما يقدمه من نصح وتبليغ وذكر وتلاوة قرآن ، واليد علامتها أن لا تبطش أو تلمس مالا يحل أو تقتل أو تسرق أو تلطم ، أو تلمس الذكر باليمين عند البول أو الاستنجاء . . . إلى غير ذلك ، ويكون أكله من الحلال الخالص ، وإذا أكل لا يمتليء من الطعام والشراب خوفا من كسل الجوارح عن الطاعة ، والفرج يجب حفظه من غير الحلال ، والرجل من علاماتها تسعى إلى مصالح العباد وتسعى السعي الحسن على العيال والخطا إلى المسجد والثبات في الزحف إن كان في سبيل الله . . . إلى غير ذلك ، والقلب علامته الانتباه واليقظة والفكر والهيبه ، وترك الغل والحسد والتفويض والتسليم والفرح بالقضاء والقدر والمراقبة والتزهد ، وإن الفعل الحسن هو من حسن القلب وصفائه .

وإن هذه المبادئ وهذا السلوك لا يقبل الزوال عن الشخص إلا بالموت ، وكل من عدما فهو مخدوع ، وأما الواصل فلن يتركها أصلا .

والواصل من حارب رعونة النفس وكدورتها ، وقد قال أبو سليمان الداراني . لو وصلوا ما رجعوا ، وإنما حرموا الوصول لتضييعهم الأصول ، فمن لم يتخلق لم يتحقق ، وعلامة من صح وصوله الخروج عن الطبع والأدب مع الشرع ، واتباعه حيث سلك . . . . وإن الدواء الشافي لهذا الداء هو العلم وشرط التوفيق ، فإن اجتمعا فلا حائل للوصول ، وكل من تحققت فيه هذه الأعمال ورسخت فيه وصح اتصافه بها ، فإن الله سبحانه وتعالى يهبه أسرار الاختصاص - وتدعى بشواهد الحالات الغيبية - وهو السر الخفي المرموز إليه في قوله تعالى لنبيه الكريم في قوله صلى الله عليه وسلم « . . . ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به . . . » الحديث ، وينزله سبحانه وتعالى المنازل العالية ، ويوقفه عليها ، ويكرمه بكرامات .

والإنسان إذا وصل لدرجة تركية الخواطر والأحوال ، وطابت أقواله وحسنت أفعاله وصار هذا حاله إلى أن يقبضه الله إليه ، فذلك هو الموفق السعيد ، وله بعض الكرامات ليس بكرامات ، وإنما



هي خرق عادة في ظواهر الكون، فالإعراض عنها أولى مادامت غير موافقة لحدود الشرع، فاشكر الله وادعه بأن يجعلها حظ عملك، وأن يجعلها منبهة لك إلى الجادة وإلى طريق مستقيم، وأما خرق العادة فهي ظواهر زائلة.

وأما الكرامات الربانية فإنها جود من الله على عبده يشهده من عجائبها ويريه من آياته ما يزيده رغبة في مقامه وقوة فيها هو بسبيله.

ومن الكرامات مشاهدة مسافة بعيدة أو من خلف حجاب أو رؤية الكعبة عند الصلاة أو مشاهدة العالم الملكوتي الروحاني كالملائكة أو الروحاني الجبروتي كالجن أو الروحاني الترابي كالأبدال والأوتاد... إلى غير ذلك.

## الأطباق والعروق

إن الشكل اللحمي الصنوبري الذي هو المعدن الروحي لكل حيوان من إنسان وغيره هو اللطيفة الربانية من العالم الروحاني والعالم العارف المدرك، إنه القلب أصل الثواب والعقاب، والفصل والخطاب، إليه أشار عز وجل بقوله «أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها».

والمراد بالقلب عند المتصوفة هو الروح والسر، وهذا طبق أول.

أما الطبقة الثانية فهو الروح، ويراد به جسم لطيف بخاري منبعه من أيسر تجويفي القلب، وهو مركب السر الإلهي الأمري، وقد استعد لقبوله لاعتداله وقربه من العوالم السماوية، ومنه - أي القلب - ينتشر بواسطة العروق إلى سائر أجزاء الجسم فيعطيه الحياة ويفيض عليه بالأنوار، وفيه يمكن الروح الثاني الذي يقول فيه صاحب «روضة التعريف بالحجب الشريف» لسان الدين بن الخطيب ما نصه :

«والثاني : الروح المتقرر العلاقة بهذا الروح الأول وحده . لطيفة ربانية عالمة مدركة من الإنسان، وإذا ركبت الروح المذكورة وسرت في البدن، كانت في العين بصرا وفي اللسان ذوقا وفي الأذن سمعا وفي الأنف شها وفي الجلد لمسا، ظاهرة عليها صفات المبدأ الإلهي الذي هو كل شيء بصورة ذلك الشيء، وليس له صورة تقيده، ولو كانت له صورة تقيده لكان مع تلك الصورة فقط».

وهذه اللطيفة هي الأمر العجيب الذي تعجز العقول والأفهام عن إدراك حقيقته، وباب البحث مسدود عنه شرعا، قال الله عز وجل «ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا». ومن الناس من عد ذلك جوابا كالإمام أبي حامد الغزالي. فالروح الأول هو الروح الحيواني، والثاني هو الروح الأمري».

أما الطبقة الثالثة فهو العقل، وفيه يقول لسان الدين بن الخطيب في كتابه «روضة التعريف بالحجب الشريف».

«العقل ينطق بالاشتراك على معان، فلا يشمل الحد الواحد جميع معانيه. أما بحسب اللسان، فعلى تعقل الأشياء، وبمعنى إدراكها وضبطها، وأصله من عقل الناقة - إذ كان يعقل العلوم. وقيل يعقل النفس عن الشهوات. وأما بحسب استعمال أهل الصنائع العلمية والأنظار الحكمية فيطلقونه على أنحاء، منها العقل الفعال، وهو أول موجود أوجده الله. وقال بعض الشيوخ المتأخرين : فيه

شعاع الحقيقة وحده بـ « جوهر بسيط روحاني يحيط بالأشياء كلها إحاطة روحانية » ، وهو عندهم الكلمة المرددة ، والآنية المنفصلة ، وولد النفس ، وصاحب الوجهين إذا أفاد أو استفاد . أي بنظره إلى الباري وإلى الأشياء .

وقال بعض العلماء في تفسير قوله تعالى «الله نور السماوات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح في زجاجة ، الزجاج ككوكب دري يوقظ من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار» ، قال بعضهم «المشكاة» هي النفس الكبرى التي أشرقت بنور الله سبحانه وتعالى ، و العقل الكلي المبدع هو «المصباح» و «الزجاجة» الهيولي الأولى الشفافة ، و«الكوكب الدرري» هو الصورة المجردة ، و «الشجرة المباركة» نفس الكل ذات الفرع «لا شرقية ولا غربية» لا مؤلفة ولا مركبة ولا ذات حية .

يقول لسان الدين بن الخطيب في كتابه المذكور «يقال لقوى كثيرة من العقل النظري عقل ، فمن ذلك العقل الهيولاني ، وهو قوة للنفس مستعدة لقبول الأشياء مجردة عن المادة . والعقل بالملكة ، وهو استكمال هذه القوى حتى تصير قوة قريبة من العقل . ومنها العقل بالفعل ، وهو استكمال النفس بصورة ما . ومنها العقل المستفاد ، وهو ماهية مجردة عن المادة مر تسمية في النفس على سبيل الحصول من خارج . والعقل الذي يطلق على العقول الفعالة ، وهي كل ماهية مجردة عن المادة ، والذي نجلبه إلى هذا الغرض هو الوصف الذي تميز به الإنسان من البهيمية» .

وأما الطبقة الرابع فهو النفس ، وفيها يقول ابن الخطيب «فقد قيل إن العقل والروح والنفس والقلب بمعنى واحد» .

ويقول فيما يندرج تحت ذلك «وما مثال النفس والعقل والقلب والروح إلا كملك مدينة سكن - لأول استيلائه عليها وتديره إياها - دارا فتوسطها ، كثيرة الحجب والأصونة والمسالك المفضية إلى نواحيها ، وله بأعلاها قلة سامية جامعة لمعاني الملك ، وبها الخزائن والحفاظ والكتاب ، وإليها تقصد البرد بالانخبار ، وأمره ونهيه بها قائم ، وقد عمر أمره المكانين ، وأفرد الزمانين ، وصار في الكل عين العين ، وله بأعلى رتبته وأشرف مستشرفاتها وأصونتها مرآة يبصر بها وجهه ، ويدرك ماخفي عنه ، فوجوده في القلب يسمى روحا ، وفي الدماغ يسمى نفسا ، وفي المرآة المائلة بالطف أبهائه عقلا ، ومجموع هذه المعاني المتعددة من قلب وروح ونفس وعقل هو «الملك» - وهو السر الذي ينزل بأمر الله سبحانه . . .

فإذا أفاد الحياة ونفدت في أقطار المدينة طاعته ، وجرت أفعاله فيها تامة من غير عائق ، سمي «روحا» . وإذا أدت إليه الطلائع والبرد فنقشها وتأملها واستحفظ الحفظه والخزائن بعضها ، وكلف الآخرين تعاهدها ، وحرك الحراسة والجيش من أجلها سمي «نفسا» . فإذا انفرد بها مجردة وحلل في معانيها وركب واتحد بها في مرآة نصحه وميزان عدله ، سمي «عقلا» . . .

ويقول أيضا في فقرة أخرى من كتابه روضة التعريف :

«النفس لفظ مشترك يقال على أشياء، كما يقال العين على الذهب والماء والجارحة، وهي في اللسان حقيقة الشيء وعين ذاته . . تقول جاءني زيد نفسه .

وفي استعمال أهل التصوف الخلقى : الأصل الجامع للصفات الذميمة من الإنسان، ولذلك قالوا : مجاهدة النفس، وفي الحديث «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك» . وفي استعمال القدماء والمتأخرين من الحكماء : جوهر نوراني حي إلهي لا تبيد قواها ولا تنقطع، وهي كلية وجزئية على خلاف بينهم فيه»

ويقول لسان الدين في الفصل الثاني من كتابه :

«وللنفس رتب متعددة، منها ما فتح لها الباب في اكتسابه، ومنها ما وقع المنع من طور جنباته .

فالنفس قبل أن تكسب العلوم الضرورية والقضايا الوجدانية، تسمى نفسا بسيطة سادجة .

وعقلا غريزيا إذا حصل لها كمال التمييز وتتمام الحواس، واستقامت فكرتها ورويتها، وحققت المعاني الكلية، وعقلا بالملكة إذا حصل لها التصرف في الموجودات على اختلافها علما وربطت الأسباب بمسبباتها، وفصلت القبيح من ضده، ونظمت القياس البرهاني، واقتنصت النتائج من الحدود الوسطى، وخلصت من البرهان .

وعقلا مكتسبا إذا تعشقت بالحكمة وكلفت بالكمال وقهرت بالطباع، وحصلت على استيفاء معنى الإنسانية .

وعقلا بالفعل إذا حصلت لها المعلومات الإلهية الكلية وتوحدت بها ولم يتميز علمها من معلوماتها، وتصورت الأمور الروحانية والجواهر المفارقة وأحاطت بذلك كله» .

ولنتقل إلى العروق وشعبها الباطنة الكامنة، وقد تشتمل على عدة قوى منها الحواس الخمس، وهي السمع والبصر والشم والذوق واللمس وقوة الخيال وقوة الفكر وقوة الحفظ وقوة الصنع وقوة الوهم وقوة النزوع . وفي هذا يقول لسان الدين في كتاب الروض :

«أما حاسة اللمس : فقوة تدرك من الملموسات سطوحها من خشانة وملامسة، وكيفيتها من حر أو برد، ومثل ذلك . والملموسات ماثرة وأجناسها محصورة، وبحاسة اللمس وحصولها يكون الحيوان حيوانا، وهي له بالإضافة إلى القوى الأخرى قوة مقومة لوجوده، إن فقدت ارتفع عنه معنى الحيوانية، إذ بها يصير حساسا، وهو فصله من الجماد، ومحل هذه القوة الجلد وأعدله جلد الراحة .

وأما حاسة الذوق : فهي تدرك المطعومات، وموضوع الطعم الرطوبة، ولذلك متى فقدت الرطوبة إذا يبست المطعومات فقدت، ومحلها اللسان، وأجناس مدركات هذه الحاسة من الطعوم على الأكثر الحلاوة، والمرارة، والملوحة، والدسومة والحموضة والحرافة والعفوصة والعذوبة والقبوضة، وهي موجودة في أكثر الحيوان أو كله، وضرورية في معناه .

وأما حاسة الشم ففي أكثر الحيوان أو كله، وضرورية في معناه.

وأما حاسة الشم ففي أكثر الحيوان ذي الاستنشاق والرئة، ومحلها الخياشم والأنف. فإن وافق المحسوس مزاج الحاس قيل للرائحة طيبة، وبالعكس قيل خبيثة، وهذه الحاسة في بعض الحيوان هي لمعاشه كالنملة فإن طريق غذائها من حاسة الشم، وهي في غير الناطق أقوى، وهي تقوم له مقام التمييز فينا.

وكتب الحكيم إلى الاسكندر : عليك يا إسكندر باللباس الحسن والأكل المتوسط، والمشوم الطيب، فاللباس الحسن يحفظ بدنك ويزينك ويقىم جاهك، والأكل المعتدل يدبر بدنك، وهو الطيب لك، والرائحة الطيبة تقوى نفسك وتشوفك لعالمك كما يفعل المسموع الحسن.

وأما حاسة البصر : فالبصر الكمال الأول للعين الباصرة، وكما لها الأخير الإبصار، ومحلها الرطوبة الجلدية، ويدرك من الموجودات الألوان وسطوح الأجسام بذواتها، وشكل كل جسم على صورته، والأبعاد والنور والظلمة وحركات الجسم وسكونه، وهياتة ووضعها، والمدرك الحقيقي الذي يظهر بذاته، وتظهر به الأشياء هو النور لا غير، ولا تدرك الحاسة إلا بواسطة الهواء، والمبصر : المدرك من خارج بانطباع الشكل في العين.

وأما حاسة السمع ففعلها إدراك التغيير الحادث في الهواء عن تصادم جسمين وتموجها ومحلها الصماخ من الأذنين، ومدركات هذه الحاسة أصوات ذوات أرواح، وتصادم جمادات وهذه الحاسة . وحاسة البصر تفارق مدركها، وسائرها تدركه بمماسه، وهي المفيدة للحيوان العاقل تعلم العلوم.

وما من حاسة من هذه الحواس إلا ولها من نفسها على مبدعها الحق الواجب الوجود دلالة، سيما السمع والبصر، إذ لا تتزاحم فيها المدركات - وإن ملأت الآفاق - في خروت - أي ثقوب - ضيقة، ومنافذ حرجة، وإدراك ما قرب منها ونأى في غير زمان «وهو الذي خلق لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلا ما تشكرون» . .

والقوى الباطنة : أولها الحس المشترك المسمى «فنتاسياً» وهي قوة مرتبة في التجويف الأول من الدماغ - تقبل بذاتها جميع الصور المنطبعة في الحواس الخمس متأدية إليها.

والقوة الخيالية والمصورة : وهي قوة مرتبة أيضا في آخر التجويف المقدم. لحفظ ما قبله الحس المشترك من الحواس الجزئية، وتبقى فيه بعد غيبة المحسوسات، فكأن الخيال باطن الحس المشترك، وهي لكثير من الحيوان غير الناطق، وللنطق متممة وشأنها أن تدفع الموجود الذي أدته إليها الحواس في العصبات المتصلة من مقدم الدماغ بأصول الحواس إلى القوة المفكرة.

والقوة المفكرة : قوة من قوى النفس الناطقة، تجول في الأشياء، وتمحض الوجود من حيز الإجمال، وتحققه في النفس، ومنها يقع الانفعال في القوة النزوعية. والقوة المفكرة هي العلة الفاعلة لصورة المعلوم في نفس العالم.

والقوة الخيالية : وهي الباحثة المتممة والمقومة للشيء هي أسبابه .

والقوة الذاكرة : تذكر الأشياء الكامنة في النفس بالبحث والطلب ، والتذكر - طلب القوة المفكرة - اجتلاب الأشياء المغيبة بانبعث في القوة المفكرة ، والقوة الذاكرة خادمة للقوة المفكرة ومتأخرة عنها وجودا ، ومحلها في مقدم الدماغ .

والقوة الحافظة : هي ثبوت الصورة في النفس على ما هي عليه في الخارج من الذهن وداخله ، ومحلها في المؤخر ، وكأنها والذاكرة من المتلازمات .

والقوة الصانعة : أثر النفس المتأخرة عن غيرها من القوى ، كما تريد النفس الناطقة أن تعلم بالعلوم التي تحصلت لها نفسا أخرى ، فتؤلف الألفاظ من الحروف التي تتوصل بها إلى الأشياء بواسطة الصوت ، ثم ترى أن حقائقها لا تثبت ، فتجعل تلك الألفاظ في موضوع يقيدها ، وهي صناعة الكتابة ، فليل لها صانعة ، لأنها صنعت لها من الحروف أشكالا تبقى ، وكذلك الحكم في كل صناعة تحتاج أن يعلم الغير .

والقوة الوهمية : قوة مرتبة في نهاية التجويف الأوسط من الدماغ ، تدرك المعاني غير المحسوسة ، الموجودة في المحسوسات الجزئية ، كالقوة الموجودة في النشأة الحاكمة بأن الذنب مهروب منه ، والحروف معطوف عليه ، وجعلها هؤلاء الإلاهيون في الترتيب تالية لقوة الخيال .

والقوة النزوعية الشوقية : هي القوة التي ارتسمت في التخيل صورة معطوب أو مهروب عنه حملت القوة المتحركة على التحريك بتشنيج العضلات ، وإرسال الأعضاء ، فرارا أو التماسا ، ولها شعبتان : شعبة تسمى قوة شهوانية ، وشعبة تسمى قوة غضبية .

فالقوة الشهوانية تبعث على تحريك يقرب من الأشياء المتخيلة ضارة كانت أو نافعة طلبا للذة .

والقوة الغضبية تبعث على تحريك يدفع به الشيء المتخيل ضارا كان أو نافعا ، طلبا للغلبة . . .

والفرق بين الحواس وبين هذه القوى : أن الحواس لا تدرك المحسوسات إلا في الهيوولي ، وإدراك هذه القوى رسوم المعلومات يكون إدراكا روحانيا من غير هيوولي .

ومنزلة الجميع من القوة المفكرة بمنزلة الملك من خدامه ، فالحواس أرباب الأخبار ، وخدام البريد في نواحي المملكة ، يؤدون ما وردوا به من الكتب إلى صاحب الخريطة ومستقر الرقاع - وهو الخيال - ثم يطالع بها القوة المفكرة - وهي الملك - ، فيدفعها إلى القوة الحافظة - وهي الخازن - ويطلبها إذا احتاج إليها فيجلبها إليه من الخزانة خادما الذكر - وهي القوة الذاكرة - ويحكم سائر القوى . فسبحان الحكيم العليم» .

ويشوقنا لسان الدين إلى الاستماع له في الفصل الرابع من كتاب الروض حيث يقول :

«العالم الكوني كله من البداية البشرية إلى النهاية الترابية مجموع أمرين : من ظاهر وباطن .

أما الباطن فيعبر عنه بالأمر ، وأما الظاهر فيعبر عنه بالخلق ، قال الله سبحانه وتعالى «ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين» .

فعالم الأمر مجموع خمسة عوالم : عالم السر، وعالم العقل، وعالم الروح، وعالم الصورة. وانتهى الأمر إلى باطن العرش المجيد.

وعالم الخلق أيضا مجموع خمسة عوالم : عالم الطبيعة، وعالم الأفلاك، وعالم الكرسي، وعالم اللوح، وعالم القلم، وانتهى الخلق إلى ظاهر العرش المجيد.

فأما عوالم الأمر فهي روحانيات، وأما عوالم الخلق فهي جسمانيات. والعرش روحاني من حيث باطنه المتصل بالروحانيات، وجسماني من حيث ظاهره المتصل بالجسمانيات، وتفصيل كل عالم منها لا يعلمها إلا الله.

وإن الله عز وجل خاطب هذه العوالم بخطاب يليق بكل جزء من أجزائها بصلاح حالها ودوام بقائها، فخاطب عالم السر بخاصية العلم «إنه يعلم السر وأخفى» وخاطب العقل بالأمر والنهي «أقبل وأدبر»، وخاطب عالم الروح «قل الروح من أمر ربي» وخاطب النفس بالوعد والوعيد «يا أيها النفس المطمئنة» و «إن النفس لأمارة بالسوء»، وخاطب الصورة بما تسعه الإحاطة «وسعني قلب عبدي المؤمن»، وخاطب العرش بالتوحيد «إذا قال العبد لا إلا إلا الله اهتز له العرش»، وخاطب القلم بحقيقة العلم «اكتب علمي في خلقي»، وخاطب اللوح بالحفظ «في لوح محفوظ»، وخاطب عالم الكرسي «وسع كرسيه السموات والأرض»، وخاطب الأفلاك بالتصرف «كل في فلك يسبحون»، وخاطب الطبيعة بالكون والفساد «كل من عليها فان».

فما من عالم علوي أو سفلي إلا والله عز وجل يخاطبه بخطاب على الجملة، وخطاب على التفصيل، والإنسان يخاطب بهذه المخاطبات كلها، فإذا كان العالم جملة من تفاصيل الإنسان فهو العلة، وما سواه معلول له، والنور الآدمي حقيقة الإنسان، والنور المحمدي علة هذه الحقيقة، وبه صارت حقيقة، وهذا النور هو حقيقة الرسالة، وسر القرآن، والرحمة المنزلة، وهي العناية في الدنيا، وسر الإيجاد، ومقتضى الإرادة العلية، ومعنى الكون، ومميز الشهادة من الغيب «كنت نبيا وآدم بين الماء والطين».

ونزيد المطلب إيضا وتفسيرا فنقول : الكون المعنى به عالمان : كبير وصغير جزئي، والجرئي في قوة الكلي.

أما العالم الكلي فهو ذات يطلق عليها الوجود، ومجموعها أرواح مجردة وأنوار مجسمة، وأجسام منورة، وأجسام مظلمة.

أما الأرواح المجردة فأربعة : عالم العقل الفعال، وعالم الروح الكلي، وعالم النفس المطلقة، وعالم الصورة الفياضة.

وأما الأنوار المجسمة فأربعة : العرش المجيد، والكرسي الواسع، والقلم الرفيع، واللوح المحفوظ.

والأجسام المنورة والأفلاك السبعة ، والفلك المكوكب الثامن . . . وهي عالم الجنان عندهم .  
وأما الأجسام المظلمة ، فعالم الطبيعة والنار والهواء والماء والتراب . فهذه العوالم عشرون .  
ونرجع إلى العالم الجزئي فنقول : هو ذات يطلق عليها الإنسان ، مجموعها ، عقل وروح ونفس  
وفكر وتصور وذكر وضغط وحس ودماغ وطحال ومرارة ومعوي ورثة وكليتان وكبد وصفراء ودم وسوداء  
وبلغم . عشرون عالما وفقا للعوالم المتقدمة يجمعها الجسم والروح ، وتطبيق ذلك هو المقصود . أما  
العقل فجزء من العقل الفعال ، وهذا الجزء هو المقصود من الخطاب الأول بأقبل وأدبر .  
وأما الروح فجزء من الروح الكلي ، وهذا الجزء هو محل الفهم عن الله بالمحل الأمري الإلهي  
الاختصاصي «قل الروح من أمر ربي» .  
وأما النفس فجزء من النفس المطلقة ، وهذا الجزء هو المخاطب بآيتها النفس .  
وأما القلب فهو فيض من الصورة الفياضة ، وهذا الفيض هو القابل لفيض العقل والروح  
والنفس .  
وأما محل الفكر وهي الخزانة في مقدم الدماغ ، وسلطانه في الطبقة القبلية ، وهي البضعة المعبر  
عنها - إذا صلحت صلح الجسد - وفيها السر القلبي ، فذلك المحل يشبه العرش المجيد .  
وأما محل التصور وهي الخزانة الوسطى من الدماغ وسلطانه في الطبقة الفؤادية الوسطى من  
البضعة التي فيها السر الفؤادي ، وذلك المحل يشبه الكرسي الواسع .  
وأما محل الذكر فهو الخزانة المؤخرة من الدماغ وسلطانه في الطبقة السويدائية ، من البضعة  
المذكورة وهي السفلى التي فيها السويدائية وذلك المحل شبه القلم . وأما محل الحفظ ، وهو برزخ بين  
خزائني الفكر والتصوير من الدماغ وسلطانه في البرزخ الذي بين الطبقة القبلية والفؤادية ، وذلك  
المحل يشبه اللوح المحفوظ . وأما محل الحس ، وهو الجوارح الخمس ، وهو توليد ما تقدم من الخزائن  
والطبقات ، فيشبه الفلك الثامن المكوكب . والطحال يشبه فلك زحل . والدماغ يشبه فلك المشتري .  
والكبد يشبه فلك المريخ . والقلب يشبه فلك الشمس ، والكلية تشبه فلك الزهرة . والمرارة تشبه فلك  
عطارد . والرثة تشبه فلك القمر ، والصفراء تشبه كرة النار . والدم يشبه كرة الهواء ، والبلغم يشبه كرة  
الماء ، والسوداء تشبه كرة الأرض .  
فهذه النسبة الثانية هي المقصود من العالم ، وهي علته الأولى ، ولا تفارق معلولها ، وهذه العلة  
الثانية معلولة بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ، أصل الوجود وسبب الكون ، وعين الرحمة المنزلة من  
المائة - يعني بها الحديث «إن لله مائة رحمة ، جعل عنده تسعا وتسعين رحمة وجعل في الأرض رحمة  
واحدة - قال تعالى «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» .



## الظلام الذي يدخل ذوات العباد

إن المشاهدة لأسرار الكون توجب الطاعة المثلى لله العلي القدير، والطاعة توجب محبته جل وعلا، ومحبته توجب الانقطاع إليه سبحانه، وفي الانقطاع يكون الأجر منه عز وجل .  
وعدم المشاهدة يوجب الغفلة عنه سبحانه، والغفلة توجب الانقطاع، والانقطاع يوجب أن يكون الأجر على قدر العبد .

إنك ترى رجلين كل منهما يعبد، فيكون للأول ضعف وعدم استجابة بينما الثاني أجره لا يحصى واستجابته واضحة «ولا يظلم ربك أحدا» .

وهكذا عمل العبد بينه وبين ربه، فإذا كان المحرك له هو عظمة الله سبحانه وتعالى وجلاله وعلوه في كبريائه، فالأجر على قدر عظمة العظيم سبحانه . وإذا كان المحرك له والحامل عليه مجرد غرض العبد وما يرجع لذاته فالأجر على قدر ذلك . إن الأعمال لها أجر، وللأجر أنوار، وللأنوار اتصال بالذات، فإن كانت الأعمال خالصة لله سبحانه وسرت على سر حقيقة الذات، فإن أنوار أجورها تسطع على الذات الإنسانية، فتشعر بذلك ويحصل لها خشوع وقشعريرة وبكاء مما تقتضيه تلك الأنوار الساطعة، فيعلم صاحب البصيرة ذلك ويتيقن بقبول العمل فيبلغ من الأجر ما يبلغ .

وقد يظن بعض الناس أن الأجر لا يعلم إلا في الآخرة— وهذا في حق المحجوبين— أما غير المحجوبين فذلك مكشوف لهم . أما الأعمال لغير الله والتي لم تجر على حقيقة الذات فكلها عناء وتعب، ولا يستطع بها ذات الإنسان نور . فعلى العامل أن يختبر قلبه عند العمل، والعادة أن لكل عمل أجر، فإن كان القلب عند العمل معمورا بالشواغل فليعلم أن الله قد حرمه الأجر، من أجل ذلك ملأ قلبه بالشواغل، وإن كان القلب فارغا من الشواغل منقطعاً إلى الله عز وجل، فليعلم أنه سبحانه قد أعطاه أجراً وأفاض عليه ذكراً .

ومثال على ذلك كطالب سافر من بلد إلى آخر أو من قطر إلى قطر طلباً للعلم بنية إن يدرك العز والجاه والدنيا إلى غير ذلك من الأغراض الظاهرة الباطلة، وبقي على تلك النية سنين عدداً، فمثل هذا يحرمه الله من نور العلم . فلم يكن من الراسخين فيه أبداً، لأنه لا يدرك حقيقة العلم إلا من ظاهره، وخفي عليه باطنه، لأن باطن ذاته مغمورة بأغراضه وشواغله، بينما العلم سر من الأسرار لا يدركه الظاهر أبداً، فكذلك أجور الأعمال التي ليست خالصة لا يدركها العبد أبداً، لأن الأجور من أسرار الله تعالى، والظاهر بدون باطن لا يدرك الأسرار أبداً .

وإن زيادة الظلام في ذوات العباد كثيرة لا يمكن حصرها، وقد قال عنها سيدي عبدالعزيز الدباغ دفين فاس، أن الأسباب الموجبة للانقطاع عن الله عز وجل، والطارئة على الإنسان من غير شعور هي ثلاثمائة وستة وستون سببا، فسألوه عن ذكر بعضها مما حضر، فذكر منها عشرين، ملخصها:

- الهدية للصالحين.
- التوسل إليهم بقضاء الحاجة.
- زيارتهم والزائر لزال على ذمته فرضا من فرائض الصلاة.
- الخوف من الظالم على العمر والرزق.
- الطمع في الظالم والتقرب منه لينال منه رزقا.
- نصرة الكافر.
- عدم النصيحة للمسلمين.
- استحلاء التعب والمشقة في طلب الدنيا على عبادة الله عز وجل.
- طلب الدنيا بما هو أهون منها وأذل وأحقر.
- أن تكون الأعمال بقصد النفع الشخصي لا بقصد وجه الله الكريم.
- المعاصي في حرمة الله تعالى كالمساجد ونحوها.
- اللواط.
- ضرب الرجل امرأته من غير ذنب.
- المنة على العيال والأهل بالنفقة.
- الحسد.
- الإقدام على المعصية مع معرفتها.
- جمع الدنيا من الحرام.
- عقوق الوالدين.
- مخالطة المحجوبين.
- التفريق بين الخلفاء الأربعة.

وقد أفاض رحمه الله في شرح هذه النقط التي لخصتها عن كتاب «الإبريز» من كلام سيدي عبدالعزيز» تأليف سيدي أحمد بن مبارك.

ويحكى صاحب الكتاب عنه رحمه الله قائلاً :

«وسمعته رضي الله عنه يقول : أتدري من أشد الناس عذاباً يوم القيامة ؟

فقلت له : قل يا سيدي ، فقال : هو رجل أعطاه الله ذاتاً كاملة ، وعقلاً كاملاً وصحة كاملة ، ومهد له في العيش وأسباب الرزق ، ثم يبقى هذا الرجل اليوم واليومين والأكثر ولا يخطر بباله ربه سبحانه ، وإذا أمكنته المعصية أقبل عليها بذاته الكاملة وعقله الكامل ، واستلذ بها واستحسنها من غير فكر يشوش عليه من ناحية ربه تعالى ، فتجده متصلًا بالمعصية غاية الاتصال ، منقطعاً عن ربه تعالى كل الانقطاع ، يميل بكليته للمعصية ويستحليها غاية الاستحلاء ، فيكون جزاء هذا يوم القيامة أن ينقطع إلى العذاب بجميع جوارحه ، ويتشوف إليه بالكلية ، ويقع فيه المرة الواحدة ويستحليه استحلاء المجروب للحك ، وعلى قدر ما حك يكون وباله» .

وفي فقرة أخرى يقول صاحب كتاب الإبريز :

وسمعته رضي الله عنه - أي سيدي عبدالعزيز - يحكي في استحضار الخالق سبحانه حال المعصية ، حكاية عجيبة عن سيدي عمر بن محمد الهواري . قال سيدي عمر : جاء رجل مسرف على نفسه مرتكب للمعاصي إلى شيعي وأنا حاضر ، فقال له : ياسيدي أنا مرتكب للمعاصي مصر عليها ، لا أقدر على تركها ، فكيف الحيلة في الخلاص ؟ فقال له الشيخ : ويحك أتعصى ربك ؟ اترك المعاصي ولا تعد إليها . فقال لا أقدر . فقال الشيخ ، ويحك تب إلى ربك . فقال لا أقدر . فتغافل عنه الشيخ وأقام عنده يوماً أو يومين . فلما أراد وداعه قال : سيدي كيف الخلاص ؟ فقال له الشيخ : إذا أردت أن تعصي ربك فاستحضر ثلاثة أمور وافعل ماشئت : استحضر المعصية وقبحها وما توصل إليه من غضب الرب ، واستحضر ذاتك ونفسك ونحساستك وإعراضك عن ربك ، واستحضر ربك وسطوته وقهره وقدرته عليك متى أرادك ، ثم عفوه عنك وما أسبله عليك من جميل ستره ، فإذا استحضرت هذه الأمور كما ينبغي فافعل ما بدا لك . قال : فذهب الرجل ثم بعد مدة لقيته فسلم علي وقال : أو ما تعرفني ؟ فقلت له ، من أنت ؟ فقال : أنا صاحب المعاصي ، وقد أخذ الله بيدي ببركة كلام الشيخ ؛ وذلك أني أردت المعصية فاستحضرت الأمور التي أوصاني بها ، فما قدرت عليها ، فكانت ذلك سبب توبتي» . وفي فقرة أخرى يسرد الإبريز :

«وسمعته رضي الله عنه يقول : عندي أن الكبيرة ما فعلت حال انقطاع القلب عن الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر باطناً ، وإن تعلق العبد بذلك ظاهراً فلا ينفعه .

وإنما كانت المعصية في هذه الحالة كبيرة ، لأنه في حالة الانقطاع يكون العبد واقفاً في المعصية بقلبه وقالبه ، وبحبه ولبه ، وبيديه ورجليه ، وبكل ذاته ، فلا يزجره من قلبه زاجر ، ولا يذكره من ربه ذاكر .

والصغيرة ما فعلت حال تعلق القلب بالرب سبحانه ، وبالأمر الموصلة إليه من رسله وملائكته وكتبه ، فإن العبد إذا وقع في المعصية حينئذ يقع فيها على غير نية مع شائبة بغض فيها لأجل المزاجر التي في قلبه ، فهو في حالة ارتكابها في حياء من ربه تعالى .

فقلت : يشكل هذا التفريق عده صلى الله عليه وسلم الكبائر في الحديث مع إطلاقها ولم يقيدها بحالة الانقطاع عن الله عز وجل ، فقال صلى الله عليه وسلم في حديث الصحيحين «الكبائر الإشراف بالله، والسحر، وعقوق الوالدين، وقتل النفس» وزاد البخاري «واليمين الغموس» وزاد مسلم بدلها «وقول الزور» وفي حديث أيضا «اجتنبوا السبع الموبقات، الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المومنات» .

فقال رضي الله عنه : هذه المعاصي لا تصدر من العبد إلا إذا كان مقطوعا عن ربه عز وجل ، فإذا كان القلب متعلقا بالرب سبحانه لا يشرك ولا يتعاطى سحرا ولا شيئا مما هو مذكور في هذين الحديثين .

ثم قال رضي الله عنه : ألا ترى إلى فلان فإنه سيكون من أولياء الله تعالى وهو الآن محبوب من جملة المحبوبين ، وقلبه متعلق بربه تعالى ، فما باله لا يستطيع أن يفعل شيئا من هذه المعاصي ويخاف منها خوفه من النار . وإلى فلان فإنه ليس من المفتوح عليهم ، وقلبه منقطع عن الله عز وجل ، ومجرد ذكر اللسان لا ينفع ، وانظر إلى ما يرتكبه من القبائح» .

إن طاعة الله هي فتح باب نور الحق على الذوات ، والنهي عن المعاصي عبارة عن سد الأبواب الذي يدخل منها ظلام الباطل عليها ، فمن كان في الطاعة فتح الله على ذاته الأنوار وسد عنه ظلام الباطل ، ومن ترك الطاعات وارتكب المخالفات فتح على ذاته ظلام الباطل وسد الأنوار، ومن أطاع وعصى فتح على نفسه البابين معا .

فلينظر العبد في أي مقام هو، وأي باب فتحه على نفسه قبل فوات الأوان .

وقد يظن بعض العباد أن القيام بالطاعات ظاهرا يكفي لفتح أبواب أنوار الحق ، كما أن البعض يظن أن فعل المخالفات في الظاهر يكفي لفتح أبواب الشر . والواقع ليس كذلك ، فلا بد أن يوافق الظاهر الباطن ، لذا فإن الناس أربعة : نوع ظاهره وباطنه مع الله ، حيث أن ظاهره مع الله لامثال أوامره ، وباطنه مع الله لزوال الغفلة حال فعل الطاعة واستحضار المراقبة والمشاهدة ، فهذا محبوب عند الله عز وجل .

ونوع ظاهره وباطنه مع غير الله ، فظاهره في المخالفات وباطنه مغمور بها وهذا بالطبع مذموم . ونوع ظاهره مع الله وباطنه مع غير الله ، فظاهره في الطاعات ، وباطنه في غفلة ، فعبادته صارت عادية له ، وذاته استأنست بذلك ، فصار يفعلها بحكم وازع الطبع ، لا بحكم وازع الشرع . ونوع ظاهره مع غير الله وباطنه مع الله ، فظاهره في المخالفات ، وباطنه في مراقبة الحق ، فتراه يعصي وربه بين عينيه لا يغيب عنه ، فتكبر عليه المعصية كالجبل ، فتراه حزينا كئيبا ، وهذا أفضل ممن ظاهره مع الله وباطنه مع غير الله .

فرحم الله سيدي عبدالعزيز الدباغ إذ يقول : الروح ثلاثمائة وستة وستون سرا، فمن تلك الأسرار سر لو أمدت الروح به الذات لبكت دائما، ومنها سر لو أمدتها به لضحكت دائما، ومنها سر لو أمدتها به لصاحت دائما، ولكنها لا تمدها إلا بها سبق به القدر.  
وصدق عز وجل إذ يقول «وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب».

## الفتح النوراني والظلماني

إن الله تبارك وتعالى خلق الحق والنور وجعل لهما أهلا، وخلق الظلام والباطل، وجعل لهما أهلا، فأهل الظلام يفتح لهم في الظلام وجميع ما يتعلق به، وأهل الحق يفتح لهم في الحق وما يتعلق به، والحق هو الإيمان بالله عز وجل وبملائكته وكتبه ورسوله، والظلام يعني الكفر وكل ما يقطع الصلة بالله من اشتغال بالدنيا والأمور الفانية. أما الحق فهو نور من أنوار المولى عز وجل يسقي به عباده المخلصين فتشع عليهم أنوار المعارف.

والحق عند أهل الباطل بمنزلة شيء في طي العدم، لذلك يفتح عليهم بمشاهدة هذا العالم وسمائه وأرضه وقفا على الأمور الفانية من أجرام وهيآت وفلك... إلى غير ذلك، بينما النور المستمد من قبر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى البرزخ وذوات الأولياء العارفين وأرواح المؤمنين والحفظة الكرام الكاتبين والملائكة الذين يتعاقبون... إلى غير ذلك من أسرار الحق الموصلة إلى الله عز وجل التي وضعها في أرضه، فلا يفتح فيها على أهل الباطل ولا تقع في عقولهم، فتحجب عنهم أسرار الحق التي وضعها في سمائه وأرضه، فلا يسمعون تسييحها ولا حسييسا للأنوار ولا يخشون خالقهم.

وأهل الحق لهم الفتح الأول الذي هو لأهل الظلام أيضا، والفتح الثاني مشاهدة ما في الأرض والسماء وأفعال العباد، وقد لا يرى ذلك ببصره، وإنما ببصيرته التي لا يحجبها ستر ولا يردها جدار، كما يشاهد أيضا أمور المستقبل.

وقد قلنا أن صاحب الكشف الأول متساوي مع أهل الظلام، لذا يقال «الكشف أضعف درجات الولاية» لأنه يوجد عند أهل الحق وأهل الباطل على السواء. فصاحب الكشف لا يأمن عن نفسه من القطيعة واللحوق بأهل الظلام، إلى أن يقطع مقامه إلى مقام السالكين ويتجاوزه.

أما الفتح الذي بعد هذا الكشف هو مشاهدة أسرار الحق، كمشاهدة الأولياء العارفين والتحدث إليهم ومناجاتهم على الرغم من بعد المسافة مناجاة الجليس لجليسه، وكذا مشاهدة أرواح المؤمنين فوق القبور، والكرام الكاتبين، والملائكة والبرزخ والأرواح التي فيه، ومشاهدة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وعمود النور الممتد منه إلى قبة البرزخ، فإن حصلت له مشاهدة الرسول صلى الله عليه وسلم يقظة حصل له الأمان من كيد الشيطان.

والاجتماع بالذات الشريفة للنبي صلى الله عليه وسلم سبب إلى المعرفة بالحق سبحانه ، ومشاهدة ذاته الأزلية ، لأنه يجد الذات الشريفة غائبة في الحق هائمة في مشاهدته سبحانه ، فلا يزال الولي ببركة الذات الشريفة للنبي يتعلق بالحق سبحانه ، ويرتقى في معرفته شيئاً فشيئاً إلى أن تقع للسالك المشاهدة وأسرار المعرفة وأنوار المحبة . هذا هو الفتح الثاني ، وهو الفاصل بين أهل الحق وأهل الباطل ،

وقد أشرنا إلى أن الكشف الأول يشترك مع أصحاب الباطل ، والمقصود به أن أهل الظلام قد صدوا على سبيل الهدى وأضلتهم أعمالهم تعلق قلبهم بغير الله عز وجل ، فأمد لهم في خوارقهم واستدرجهم ليحسبوا أنهم على شيء . أما أهل الحق فيزداد محبة فيه عز وجل ويرتقوا من درجة إلى درجة بين جنبات الكشوفات ورفع الحجاب إلى أن يمددهم بالخوارق فتقوى بصيرتهم وتتأكد معرفتهم بالله ، فيدخلوا في الدرجة الثانية ، وقد صدق عز وجل إذ يقول «فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون» .

وعن «كتاب الإبريز من كلام سيدي عبدالعزيز» يقول مؤلفه سيدي أحمد بن مبارك : «قال رضي الله عنه - سيدي عبدالعزيز الدباغ - : وعلامة إدراك العبد لمشاهدة ربه عز وجل أن يقع في فكره بعد مشاهدة النبي صلى الله عليه وسلم التعلق بربه . بحيث يغيب فكره في ذلك مثل الغيبة السابقة في النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم لا يزال كذلك إلى أن يقع له الفتح في مشاهدة الحق سبحانه ، فيقع على ثمرة الفؤاد ونتيجة الفكر ، وإذا كانت ذاته تسقى جميع أنواع نعيم أهل الجنة عند مشاهدته النبي صلى الله عليه وسلم ، فما ظنك بما يحصل له عند مشاهدة الحق سبحانه وتعالى ، الذي هو خالق النبي صلى الله عليه وسلم وخالق الجنة وكل شيء .

قال رضي الله عنه : ثم بعد الفتح في مشاهدة الحق سبحانه انقسم الناس إلى قسمين . فقسم غابوا في مشاهدة الحق سبحانه عما سواه ، وقسم وهم أكمل - غابت أرواحهم في مشاهدة الحق سبحانه وبقيت ذواتهم في مشاهدة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا مشاهدة أرواحهم تغلب مشاهدة ذواتهم ، ولا مشاهدة ذواتهم تغلب مشاهدة أرواحهم . قال رضي الله عنه : وإنما كان هذا القسم أكمل لأن مشاهدتهم في الحق سبحانه أكمل من مشاهدتهم القسم الأول ، وإنما كانت مشاهدتهم في الحق سبحانه أكمل لأنهم لم ينقطعوا عن مشاهدة النبي صلى الله عليه وسلم التي هي سبب في الارتقاء في مشاهدة الحق سبحانه ، فمن زاد في مشاهدته عليه السلام زيد له في مشاهدة الحق سبحانه ومن نقص منها نقص له . قال : ولو كان الاختيار للعبد وكان عمره تسعين سنة مثلاً لاختار في جميع هذه المدة أن لا يشاهد إلا النبي صلى الله عليه وسلم ، وقبل موته بيوم يفتح له في مشاهدة الحق سبحانه ، فإنه يحصل له في هذا اليوم من الفتح في مشاهدة الحق سبحانه لأجل رسوخ قدمه في مشاهدة النبي صلى الله عليه وسلم أكثر مما يحصل لمن فتح له في المشاهدين معا في تلك المدة من أولها إلى آخرها .

ثم جعل رضي الله عنه مرآة بين عينيه وجعل ينظر في الحروف ، فقال : أليس أن الذي يظهر في الحروف وصفاتها في النظر يتبع صفاء المرآة وحسن مائها فقلت : نعم .

فقال رضي الله عنه : فمشاهدة النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة المرآة ، ومشاهدة الحق بمنزلة الحروف ، فعلى قدر الصفاء في المشاهدة النبوية يحصل الصفاء ويزول الغمام في المشاهدة للذات الأزلية» .

ثم سمعت منه رضي الله عنه في مشاهدة الحق سبحانه والنظر بنور الله تعالى وارتفاع الزمان في ذلك النظر، وأنه لا ماضي ولا حال ولا مستقبل ، وكيف مشاهدة الذات العلية وصفاته السنية ، وكيف تسقى الذات بأنوار الأسماء وانقسام مراتب الولاية على عدد الأسماء ، وفي فتح الروح إلى أسرار أخرى مالا تحيط به العبارة ولا تفيد به الإشارة .

وسمعت رضي الله عنه يقول :

إذا أراد الله تعالى رحمة عبده ونقله من حالة الحجب إلى حالة الفتح حصل للأولياء رضي الله عنهم خوف عليه ، لأنهم لا يدرون هلا يموت بالفتح لكونه لا يطيقه أو يموت ، وإذا لم يموت فهل يسلب عقله أو يبقى عليه عقله ، ومعنى سلب العقل أن يذهب العقل مع الأمور العظام التي يشاهدها وينقطع عن الذات بالكلية بحيث لا يرجع لها ، ومعنى عدم سلبه أن يذهب شيء من نوره مع ما شاهد ويبقى شيء منه مع الذات يحفظ عليها أكلها وشربها ، وكيف تلبس ثوبها وكيف تنظر في مصالحها ! .

قال رضي الله عنه : ولا يعلم أحد كيف يصير أمر هذا الذي أراد الله رحمته إلا شيخه .

قلت : ولم يقع لدى الفتح الخروج عن مركزه حتى يموت أو يزول عقله ؟

فقال رضي الله عنه : إذا فتح على العبد شاهد مالا يطيق من عالم الملائكة والجن والشياطين ، ورأى من الصور الفظيعة ، وسمع من الأصوات الهائلة ما تنفلق به كبده .

قال رضي الله عنه : وكم رجل يكون في حانوته يبيع فيها فيفتح الله عليه فيرى مالا يطيق فيموت من حينه ، فيظن الناس أنه مات فجأة من غير سبب ، وهو إنما مات من الفتح .

وذكر لنا رضي الله عنه مرة أنه بينما هو يمشي في سوق العطارين بفاس ، فنظر إلى رجل في حانوته يبيع الحناء ، ففتح الله عليه فصعق لحينه ومات ، فظن الناس أنه مات فجأة وهو مات على الولاية» .

وقال رضي الله عنه : والمفتوح عليه إذا جلس إليه شخصان زال عقلهما واحدهما ولي والآخر غير ولي ، وجعلا يتكلمان ، فإنه يميز الولي منهما لكلامه ، لأنه وإن كان لا يدري ما يقول ، إلا أنه قد تبدو منه أسرار من أسرار الحق سبحانه يعرفها أربابها عند سماعها ، بخلاف غير الولي منهما ، فإنه لا يسمع منه شيء من ذلك أبدا ، ويميز الولي منهما أيضا بأمر آخر ، وهو أن يرى روحه منبسطة أبدا ، ذات فرح وسرور ، ويرى روح الآخر فيه على هيئة الرجل المنقبض المنكمش رأسه ، الذي يفكر في أمر نزل به وأغمه وأهمه» .

تلكم إشارات عن الفتح النوراني والفتح الظلماني .



## الظاهر والباطن

الكشف الباطني شغل حياة الصوفية ، بل هو علم الصوفية الذي لا ينازعهم فيه أحد ، وهو علم فتح باب الجدل بين أهل الفقه وعلم الكلام .

فالصوفية يؤمنون قطعا بأن المعارف الإنسانية وسائل باطنية ، وليست هي الحواس الخمس التي تصل بين النفس والعالم الروحاني .

إن المجاهدة والمحبة والفناء في معاني المحبة والعبادة هي التي تعد الروح للتدوق والتلقي إلى العلوم والمعارف . فالمعارف في نظر الصوفية كامنة في الروح أصيلة في مادتها ، فالتغلب على الجسد وإعلاء مكانة الروح يعين جيدا على تمزق تلك الحجب ، وترفع الظلمة بين الروح والنور .

فالطاعة تستوجب المحبة لله ، والمحبة لله يصاحبها الفيض والإشراق والإلهام . وقد قال الإمام أحمد بن حنبل : « ليس العلم بكثرة التلقين والرواية ، وإنما هو نور يقذفه الله في قلوب من أطاعوه فأحبهم » ، قال تعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله » .

إن الصوفية يجعلون من إلهامات القلب وكشوف الروح علما أساسيا شاملا للحياة ، وهو العلم الباطني ، ولعل قصة الخضر مع موسى عليهما السلام خير دليل إذ ركبا سفينة فأغرقها الخضر ، ووجد غلاما فقتله ، وجلس تحت جدار يكاد ينقض فأقامه دون أن يأخذ عنه أجرا .

فعل الخضر كل هذا صحبة موسى ، وقد يوحى ظاهرة بالظلم والعدوان ، وموسى عليه السلام نائرا لا يستطيع صبرا ، بل يجادل ويعارض ، والخضر عليه السلام يجيبه « ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا » ، وأخيرا يشرح أسرار تلك الأحداث - وهي من الأسرار الباطنية الربانية . « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءها ملك يأخذ كل سفينة غصبا ، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشيا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ، فأردنا أن يبدلها خيرا منه زكاة وأقرب رحما ، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما ، وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك . وما فعلته عن أمري ، ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا » .

وفي قوله تعالى « وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة » يشرح الصوفية ذلك بأن النعمة الظاهرة مثل الطاعات ، والباطنة هي الخواطر القلبية وكشوفاتها .

ويشرح الإمام محيي الدين قول الله عز وجل «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» أي أطلعناهم على العلوم المتعلقة بالعلويات والسفليات وأسرار الجبروت وأنوار الملكوت .

إن الخلاف بين الفقهاء والصوفية إنما هو في طريقة التفكير، فالصوفية يحكمون الذوق ويدركون الأشياء بعين القلب ، ويجعلون التقوى والطاعة شرطاً للعلم الرباني ، بينما الفقهاء جمدوا على ظاهر علمهم وأبوا أن يقبلوا التأويل ، وتمسكوا بحقية الألفاظ . والصوفي أولاً كان فقيهاً ، بل ربما إماماً في العلوم الفقهية والكلامية ، ولكن التصوف يكسب أربابه رقة وذوقاً . والصلة بين التصوف والفقه وثيقة جداً ، حتى قيل : من تصوف ولم يتشرع فقد تزندق ، ومن تشرع ولم يتصوف فقد تفسق .

والمتصوفة يقولون أيضاً «الشريعة هي الشجرة ، والحقيقة ثمارها» .

وقد أكد المتصوفة ما مرة بأن الحب أساس الوجود ، فالكون قد أوجدته المحبة الإلهية ، ومن ثم نجد في أعماق كل شيء تلهف وتطلع واشتياق إلى مبدعه وخالقه ، فالكون كله ظاهره وباطنه يتحرك مسبحاً بجلال الخالق العظيم ، متلهفاً إلى بلوغ كماله بالتقديس والطاعة ، قال تعالى «وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليماً غفوراً» ، وقال تعالى «ألم تر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات ، كل قد علم صلاته وتسبيحه» .

والواقع أن الكون بيننا وبينه تناسق ومشاركة معنوية في الرسالة والغاية ، فبنا يكمل وجوده ، وبه تتم رسالتنا . فنحن نعمة في لحن سر الوجود الأعظم ، تحركه الإرادة العليا في تناسق ليصل إلى أهدافه المقدره .

والوجود الكوني في رأي المتصوفة ، هو رسالة من الله كتبت بحروف نورانية ، والمخاطب فيها هو الإنسان بأن يفقه تلك الرسالة حرفاً حرفاً ، وأن يقوم بدوره فيها مع روح من التعبد والمحبة إلى أن يصل إلى أوج القوى الكونية وإلى مفاتيح أسرار الوجود ، من غير أن تطيش إنسانيته أو يفقد روحانيته .

قال تعالى «الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» ، إن الصوفي صديق الكون كله .

وخلاصة القول ، فإن الفقهاء والمتكلمين وغيرهم ، إنهم يحومون حول رواق الوجود من غير أن يدخلوه لأنهم لا يعرفون الحب . والحب هو المنهج عند المتصوفة في المعرفة ، فتركوا جدل الحوار ، وأشعلوا الحب في قلوبهم ، وأيقظوا أحاسيسهم بالوجد ، فأدركوا المحبة والحقيقة الخالدة من أقرب الطرق الموصلة ، وألقوا بتلك الظواهر والصور ، فرأوا الله عز وجل وحده الحي القيوم الذي لا يعزب عنه شيء ، فهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن .

قال الحلاج : حججت فرأيت الكعبة ولم أر رب الكعبة ، ثم حججت ثانية فرأيت الكعبة ورب الكعبة ، ثم حججت ثالثة فرأيت رب الكعبة وما رأيت الكعبة .  
وقال الجنيد : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه .  
وقال الشبلي : ما رأيت شيئاً إلا الله .

## حكم وأسرار

قال سهل : لا أعرف معصية أقبح من نسيان هذا الرب ، وإذا تمكن الذكر من القلب ثم دنا منه الشيطان صرّح كما يُصرّح الإنسان إذا دنا منه الشيطان ، فتجتمع عليه الشياطين فتقول ما هذا ، فيقال مسه الإنس .

وقال : لكل شيء عقوبة ، وعقوبة العارف انقطاعه عن الذكر .

إن الذكر ركن قوي نحو الوصول ، وسيف قاطع للمريد من الآفات ، يربط القلب ويلينه ، فإذا خلا الذاكر عن الذكر أصابته حرارة النفس ونار الشهوات . فقسي وامتنعت الأعضاء وتعطلت عن الطاعة . قال أبو مدين التلمساني : من دامت أذكاره صفت أسراره ، ومن صفت أسراره كان في حضرة الله قراره . وقال الشبلي : من تساهل بالغفلة ولم تكن عليه أشد من ضرب السيوف ، فهو كاذب . وقال الشاذلي : إذا ترك العارف الذكر نفسا أو نفسين قيص الله له شيطانا فهو قرين .

وقال الشيخ فضل الدين : لو كشف لأحدكم لرأى إبليس يركبه كما يركب أحنا الدابة ، ويصرفها كيف شاء طول الليل والنهار كلما غفل ، وينزل عنه كلما ذكر .

وقد أجمع القوم من الصوفية على أن الذكر مفتاح الغيب ، وجاذب الخير ، وأنيس الموحش ، وجامع شتات صاحبه . وأجمعوا على أن الذاكر جليس حضرة الحق ، لا يرد عليه أحد فيفارقه ، ولا يقرب عبد حضرة الحق إلا واستحيا حق الحياء ، ولا يستحني إلا من حصل له الكشف ورفع الحجاب ، ولا يصح له رفع الحجاب إلا بالذكر . والذكر يشفي الأمراض الباطنية من كبر وعجب ورياء ، ويحمد الخواطر الشيطانية والنفسانية والهـم والغـم ، وبالتالي يرتقي بصاحبه نحو المقامات . قال النووي : الذكر هو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده مالم يفعل العبد بغفلة .

والذكر أوله « لا إله إلا الله » في حق المريد ، فإذا فنيت إرادته وأهويته كلها كان ذكر الجلالة في حقه أكمل .

والمريد إذا ذكر ربه بشدة وعزم مع جهر طويت له المقامات بسرعة من غير بطاء ، فربما قطع في ساعة ما لا يقطعه غيره في شهر أو سنة أو أكثر .

وفي وصية سيدي علي الخواص : ينبغي للمريد أن يذكر بقوة تامة مع الجهر فإنه أشد تأثيرا في دفع الخواطر الرديئة عند الذكر سرا وجهرا ، ومع الجماعة ، فإن ذكر الجماعة أكثر تأثيرا في رفع حجب

النفس من ذكر الإنسان وحده، كون ذكر الجماعة أكثر تأثيراً في رفع حجاب النفس . وكون الحق شبه القلوب بالحجارة، والحجارة لا تنكسر إلا بقوة جماعة مجتمعين عليه، وكذلك القلب لا ينكسر إلا بقوة جماعة مجتمعين على قلب واحد، إذ قوة الجماعة أشد من شخص واحد، وأما من حيث الثواب فلكل واحد ثواب نفسه وثواب سماع رفقته .

والجهر بالذكر ينبغي أن يكون برفق حتى لا يزعج أو يضر البدن فيعطل جهره بالكلية . وقد اختلف الشيوخ في السر والجهر وكلاهما أحلى وأنفع .

والمبتديء لا بد له من شيخ، وأن لا يختلف بينهم حتى لا يكون مذبذباً بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، غير مستقل بالاختيار، لأنه غير مستغن عنه، ومع هذا يمكن أن نقول أن هناك من سلك الطريق بغير شيخ، وأخذ السند مباشرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ هو الداعي إلى الله تعالى، والشيخ نائبه .

وعلى المرید أن لا يتسرب إليه الملل، فالشيطان يترقبه عن كتب ليملي له بالخواطر الهادفة نحو الشبهة، فيلوي له الطريق نحو أخرى ليستدرجه نحو الزلل . وربما فتح عليه فيحصل الإعجاب والاعتقاد أنه وصل نحو الكمال، لأن بعض التجليات كثيراً ما تلبس، فيظن أنه وصل المقصود الأقصى فينقطع، ومن هنا جاء دور الشيخ الواصل الكامل الذي يمد يد الإنقاذ من غير معارضة المرید . وقيل : الاعتراض سبب الانقراض . وقد يتساءل البعض عن الشيوخ من المتصوفة، فأقول هذا المثل : يقال أن ثلاثة لا يعرفون بثلاثة، الجليل جل جلاله لا يعرف بالعقل، لأن كل ما خطر ببالك فالله سبحانه بخلاف ذلك . والدار الآخرة لا تعرف بعوائد الدنيا، لأن الموت وما بعده خرق عادة . والأولياء لا يعرفون بالبشريات لأنهم متلوثون بها أثناء الليل وأطراف النهار، إلا أن من أرادهم بالروحانيات والمغيبات شاهد منهم العجب العجيب، ووجد بشرياتهم كلها روحانية ربانية بلا ارتباب لا سيما الكُمَّل بالأحرى الأقطاب، لأن القطب لا يبقى لباس للبشر إلا وتلبس به أو ألبسه، أحب أم كره، أحب غيره أم كره، إلا أن من نظره ربانيا وجد ربانيا، ووجده في كل أفعاله في مقام .

والمرید عادة ترد على قلبه أربعة أوجه :

الأولى حديث النفس، والدليل عليه طلبها للشهوات .

والثاني وسوسة الشيطان، والدليل عليه طلبه المعاصي .

والثالث إلهام الملك، والدليل عليه طلبه الهداية .

والرابع إلهام من الله بلا واسطة، والدليل عليه انشراح الصدر وخمود الغواية، وهذا الإلهام لا يطلع عليه ملك ولا شيطان إلا القلب وحده، وهو ضرب من الوحي، - أي وحي الإلهام - والوحي ضربان :

وحي ينزل به جبريل عليه السلام على الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم .

ووحى ينزل بلا واسطة وهو الإلهام . وكلاهما نور من أنوار العزة الإلهية . والوحي الذي ينزل على قلوب الصديقين والأولياء وما إلى ذلك قد يمكن توارثه ، بينما الوحي الذي ينز به جبريل على الأنبياء والرسل لا يتوارث ، بحيث اختصاصوا به دون غيرهم .

والإلهام الرباني إذا أشرق على قلب بلا واسطة أضاء القلب ، وهزم الشيطان ، ورفع الحق ، وبطل ما كانوا يعملون .

والذكر والدعاء مفتاحان للقلب من أجل استقبال العطاءات الربانية ، والفيوضات الأحمديّة «وقال ربكم ادعوني أستجب لكم» ، والدعاء الخالص الموفق والخالي من شوائب الغفلة هو حسم بين الحق والباطل ، وسد منيع على ما سوى الله ، قال صلى الله عليه وسلم «الدعاء مفتاح الرحمة ، والوضوء مفتاح الصلاة ، والصلاة مفتاح الجنة» والدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السماوات والأرض . والدعاء ينفع ما نزل وما لم ينزل . والدعاء يرد البلاء .

والزيادة في الخير مطلوبة ومحبوبة ، لأن كل زيادة خير هي زيارة في الإيمان ، فتربط الظاهر بالباطن ، وكلما زاد الإيمان زاد العبد في الأعمال حتى تلتقي حافظة الدماغ بحافظة القلب ، ويسري نور الأعمال والإيمان في الجسم سريان الماء في العود ، حتى لا تبقى منه باقية ، ذلك هو الوصول الذي لا وصول بعده ، فتتجلى المحبة الإلهية ، ولا شيء أعظم من هذا ، فيظهر وضوح المسير والمصير .

## عالم المثال والحفظة الكرام

الكشوفات الباطنية تشغل حيزا مهما من حياة الصوفية ، وتشغل بال الفقهاء وأصحاب الكلام . فالصوفية يؤمنون إيمانا قطعيا بالكشوفات ، بناء على أن المعارف الإنسانية لها وسائل باطنية فوق الحواس الخمس ، تصل بين النفس والعالم الروحاني ، وطريق ذلك المجاهدة والمحبة الإلهية والتفاني فيها عن طريق العبادة ، كل ذلك يعد الروح للتذوق والتلقي لتطلع على المعارف السامية ، لأن ذلك كامن في الروح البشرية وأصيلة فيه ، فالتغلب على الجسد يعني إعلاء مكانة الروح ، لتمزق الحجب ، وترفع الظلمة ، ليظهر النور الأعلى .

وقد يجعلون من إلهامات القلب وكشوفات الروح علما أساسيا ما يدعى بعلم الباطن .

وبجانب المجاهدة قد يصل الواصل إما عن طريق العلم والعرفان الذي منه يبدأ ، فيصل من طريق الشهادة إلى الغيب . وإما أن يتجلى له الحق عن طريق جذب الإلهي ، فيبدأ من الغيب ثم ينكشف له عالم الشهادة .

فالكرامات عند الصوفيين شيء طبيعي ، فهي منح إلهية ، قد منحها الله لعباده ، وهي من خرق العادات التي لم يتعودها الكل ، وهي ليست موقوفة على الأنبياء والرسل فقط . فأهل الكهف الذين مكثوا ثلاثمائة وازداد واتسعا لم يكونوا أنبياء ، ومريم حين جاءها المخاض وخاطبها عز وجل «وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا» فهي لم تكن في زمرة الأنبياء ، وأصف بن برخيا الذي أحضر لسليمان عليه السلام عرش بلقيس في طرفة عين من مسافة بعيدة لم يكن نبيا . . . إلى غير ذلك من الكرامات وخرق العادات . والكرامات عند الصوفية لم تكن منتهى ذروة المقامات ، وإنما يختص بها بعضهم لمزية خاصة أو لاختبار . قال الجنيد : مشى رجل على الماء ومات بالعطش أفضل منهم .

وعالم المثال عند الصوفية هو عالم وسط بين عالمي الأجساد والأرواح ، وقد يطلقون عليه أيضا عالم الخيال ، بدليل قوله تعالى «فتمثل لها بشرا سويا» ، وقد تمثل جبريل حينما كان يهبط بالوحي للرسول صلى الله عليه وسلم في عدة صور ، مرة بشكل بدوي ومرة في صورة دحية الكلبي إلى غير ذلك . والجن أيضا تتمثل في صور بشتى الأحجام والألوان والأوزان .

أما الإنسان التقي النقي الطاهر وهو أفضل المخلوقات - إذا وصل إلى درجة من الإيمان والتعبد والطاعة والفناء في ذات الله عز وجل ، عظمت روحه عظيمة تتيح لها أن تهيمن على جسدها هيمنة تامة ، حيث تحيله إلى ما تريد من صور وألوان .

فالروح لها تفوقها وسيادتها على البدن ، فهي لا ريب تؤثر في الجسد تأثيرا كاملا ، وكلما زادت قوتها زاد أثرها وسلطانها ، وكمثال بسيط على ذلك ، فإن الإنسان إذا حزن أو خاف أو غضب - وهي أشياء روحية - تأثر الجسد بذلك أيما تأثر ، فيصاب بنحولة وضعف ، وهذا ما يقرب الفكرة في تصورهما أما عن الحفظة الكرام فقد قال فيهم عز وجل .

«وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة» .

والحفظة هم ملائكة كرام يكتبون أعمالنا ، ويدونونها سواء كانت خيرا أم شرا ، والحكمة في ذلك أن المكلف تكتب أعماله لتعرض على رؤوس الأشهاد كي تكون زجرا عن المعاصي ، ولكي يتق العبد بلطف سيده ، واعتماده على عفوه وستره . وقد ورد في الخبر أن على كل واحد منا ملكين بالليل وملكين بالنهار ، واحد يكتب الحسنات ، والثاني يكتب السيئات ، والذي في اليمين أمير على الذي في اليسار ، فإذا هم الإنسان بحسنة كتبها له بعشر ، وإذا هم بسيئة وأراد أن يكتبها صاحب الشمال منعه صاحب اليمين بضع ساعات ، فإن استغفر ربه وتاب إليه لم تكتب عليه ، وإن لم يستغفر كتبت عليه واحدة . وهذه الملائكة تعرف الباطن مثلما تعرف الظاهر ، لأن الحفظة تنتسخ من السفارة - وهم من الخزنة التي وكلت باللوح - وقد كتب في هذا اللوح أحوال العوالم كلها ظاهرا وباطنا . فبعد وقوفهم على ذلك يكتبون ثانيا من أول اليوم إلى آخره ، ومن أول الليل إلى آخره حسبما يصدر عن الإنسان . وقيل إذا فاح من فيه ريح نتن يعلمون أنه هم بسيئة .

وقيل أن هذه الملائكة تجلس عند فم الإنسان . وليس بغريب أن توكل بالعبد ملائكة أخرى تحفظه من الأذى كما جاء في الروايات .

نسأل الله أن يوفقنا للصالحات ، ويبعدنا عن كل الطالحات ، ويقينا شر المكروهات .



## فتن إبليس

### آيات قرآنية

قال تعالى :

«إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ، قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي استكبرت أم كنت من العالين ، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ، قال رب فانظرنى إلى يوم يبعثون ، قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعزتك لأعوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ، قال فالحق والحق أقول ، لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين» .

«ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما ، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ، وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى ، فوسوس إليه الشيطان ، قال يا آدم هل أدلك على الخلد وملك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ، قال اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم مني هدى ، فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى» .

«يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقبلة من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون» .

«ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني ، هذا صراط مستقيم» .

- «يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً، ولكن الله يزكي من يشاء، والله سميع عليم».

- «كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين، فكان عاقبتهما أنها في النار خالدين فيها، وذلك جزاء الظالمين».

- «وإما ينزحك من الشيطان نزع فاستعد بالله، إنه سميع عليم، إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون».

- «فإذا قرأت القرآن فاستعد بالله من الشيطان الرجيم، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون».

ومن الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم .

- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن عفريتاً من الجن تفلت بالبارحة ليقطع عليّ صلاتي، فأمكنني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم . فذكرت دعوة أخي سليمان : رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي . فرددته خاسئاً . رواه الشيخان .

- عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الشيطان قد أيس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم . رواه مسلم .

- عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول : ما صنعت شيئاً، ثم يجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال : فيدنيه ويقول : نعم أنت . رواه مسلم .

- عن عائشة رضي الله عنها قالت : خرج النبي صلى الله عليه وسلم من عندي ليلاً فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال : مالك يا عائشة، أغرت؟ قلت : ومالي لا يغار مثلي على مثلك . فقال : أقد جاءك شيطانك؟ قالت : يارسول الله أو معي شيطان؟ قال : نعم . قلت : ومع كل إنسان؟ قال نعم . قلت : ومعك يارسول الله؟ قال : نعم، ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم . رواه مسلم .

- عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما منكم من أحد إلا وقد وكل الله به قرينه من الجن، قالوا : وإياك يارسول الله؟ قال : وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير . رواه مسلم . بعد هذا التقديم البياني من كتاب الله عز وجل وأحاديث نبيه المختار صلى الله عليه وسلم من فتن إبليس لعنه الله، نزيد الموضوع أيضاً، حيث نبين أن الإنسان

لما خلق جعلت فيه الشهوة والهوى والغضب ، للجلب والدفع ، وأعطى العقل كمؤدب بين الجلب والدفع ، فكان الشيطان محرضاً عليهما بكل إسراف .

فالعقل يأخذ حدره من هذا العدو الذي كشف عن عدواته جهراً ، فجعل حياته وقفاً على فساد حياة الإنسان وحاله ، والله تبارك وتعالى حذرنا منه غير ما مرة في كتابه المبين ، وبين لنا غروره وكبريائه بعدما اشتبه عليه الأمر ، فأعرض عن السجود ، وأخذ يفاضل نفسه قائلاً : خلقتني من نار وخلقته من طين ، ويعترض قائلاً : لم كرمته علي حتى قال أنا خير منه ، فامتنع عن السجود ، فأهان نفسه وأخذ اللعنة والعتاب والعقاب . ومن ذلك المنطلق صار عدواً لبني الإنسان ، يدخل بينهم ويزيد من تمكنه على قدر الغفلة والجهل .

والقلب من الإنسان كالحصن ، وعلى الحصن سور ، وللسور أبواب فيه غرف ، تتردد على الحصن الملائكة ، وساكنه العقل ، وإلى جانب الحصن ربض ، أي مكان تأوي إليه الشياطين ، والحرب قائم بين أهل الحصن وبين أهل الربض الذي تأويه الشياطين ، فهي لا تزال تدور حول الحصن تنشد غفلة الحراس للعبور من أبوابه ، فينبغي أن لا يفتر عن الحراسة لحظة ، وهذا الحصن تنير بيوته بالإيمان والذكر ، وفيه مرآة صقيلة تتراى فيها صور ما يمر به ، فتجد الشيطان أول ما يفعل في ربضه ، أن يكثر الدخان لتسود جدران الحصن ، وتصداً المرأة ، لكن كمال العقل يرد الدخان ، والإيمان والذكر يجلو المرآة لتبقى مصقولة ، فيبقى العدو يشن حملاته ، فإن دخل أفسد واشودت حيطان الحصن وصدأت المرأة ، وربما أصبح فيه فقيه الشر . قيل لأحدهم كان يكلم الجن ، قالوا ليس علينا ممن يتبع السنة ، وأما أصحاب الأهواء فإننا نلعب بهم لعباً . والشيطان يلعب بالأغنياء والأذكيا على السواء ، كل على شاكلته ، فكم من ذكي يلعب بذكائه بين النظريات والمذاهب في شتى النحل والملل ، يوحى لهم زخرف القول وبنات الأفكار التائهة ، فهذا مذهب السوفسطائية والدهرية والطبيعيين والثنوية ، وذلك مذهب الفلاسفة وأصحاب الهياكل والكواكب والأصنام إلى غير ذلك .

وقد دخل أيضاً لعقيدتنا من طريقين ، أحدهما التقليد ، وثانيهما فيما لا يدرك غوره ، ويعجز الخائض عن الوصول إليه .

فالتقليد نجد إبليس قد زين لهم صوابهم المبني عن جهل ، وجعلهم يعتقدون أن الأدلة تتشابه ، فاليهود والنصارى قلدوا فضلوا وأضلوا ، ونحن أيضاً قلدنا عادات ما أنزل الله بها من سلطان ، فسار في هذا الضلال خلق كثير . وأما الذي لا يدرك غوره ، فإن إبليس أدرك أن هناك خلقاً فيهم الفطنة والذكاء ، عكس أصحاب التقليد ، فأغواهم حسب تمكنه منهم ، فأوحى لبعضهم أن الوقوف على ظواهر الشرائع عجز ، فساقهم إلى المذاهب ، فلم يزل بهم حتى أخرجهم عن الإسلام ، ومنهم من استهواه إلى الخوض في علم الكلام والنظر إلى الفلاسفة ليخرج بزعمه عن غمرة العوام ، فأفضى بهم الحال إلى الشك أو الشرك .

والشيطان دخل أيضاً قلوب الفقهاء ، فزين لهم مخالطة الملوك ومداهنتهم ، فسكتوا عن أشياء أو أنكروا ، وربما رخصوا مالا رخصة له لينالوا درهماً ، وربما استغل الظروف فتحرك فيه العجب والكبر .

وقد أرسل الشيطان حبله على الوعاظ ، فاستغل بعضهم مركزه بين الناس ، وزاد ونقص في الشرح والتأويل ، وأصبح في زمرة من قال فيهم صلى الله عليه وسلم « من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» ، وقد يدفع البعض منهم إلى السكوت والامتناع والانقطاع ، والمقصود بذلك سد باب الخير على الناس . وهناك علماء حصلوا على علوم شرعية من القرآن والحديث والفقه والأدب إلى غير ذلك فأتاهم يستفزههم بما يقابل ذلك من إغراءات ، فحسن لهم اللذات مقابل تعبههم ، وزين لهم الزلات حتى أهلكوا بالذات الفانية . واندرجوا تحت الحديث « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه» . أما أصحاب الزعامة والرئاسة من ملوك ورؤساء وولات ، فقد أخذ الشيطان سمعهم وأبصارهم ، فغرر بعضهم بزينة الحياة والجاه ونفوذ السلطة فصموا وعموا وتسلطوا على الرقاب فحل عليهم قول الله عز وجل «إنما نملي لهم ليزدادوا إثما» .

ولم يترك إبليس الزهاد والعباد ، فقد يسمع العامي ذم الدنيا في القرآن والأحاديث فيرى أن النجاة تركها من غير أن يدري ما الدنيا المذمومة ، فينزوي إلى رأس الجبل مبتعدا عن صلاة الجمعة والجماعة والعلم وأهله ، فيصير كالوحش وفي وهمه أنه سيصبح يوما كفلان وفلان غير هياب بعائلته وولده ، وربما لم يعرف من أركان الصلاة إلا النزر القليل ، فالشيطان تمكن منه لقله علمه وجهله ، وقد قال بعض السلف : خرجنا إلى جبل نتعبد فجاءنا سفيان الثوري فردنا . وقد قال مالك بن دينار : قولوا لمن لم يكن صادقا لا يتعب .

ومن الزهاد من يرى عمله فيعجبه ، حتى لو قيل له أنت من الأوتاد أعجبه ذلك ، ومنهم من يترصد لأجل ظهور كرامة ، فإذا عرض له أمر ودعا لم يستجب له تدمر وانقلب على عقبيه ، فكأنه أجير يطلب أجر عمله .

وعلى كل حال ، فإن كيد الشيطان لا يمكن عده أو حصره في هذا الباب أو غيره ، وإنما لمحنا لذلك في إيجاز ، فكيف يمكن عده أو حصره وهو يجري في الإنسان مجرى الدم ، غير أننا نؤكد أن الوقاية منه تكمن في قوة الإيمان بالله عز وجل ، هذا الإيمان الذي يشع نوره من خلال كتاب الله وسنة رسول الهدى ودين الحق ، محمد صلى الله عليه وسلم .

## آدم وتكريمه

قال تعالى «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال : إني أعلم ما لا تعلمون» .

انطلاقاً من هذا الحوار بين الملائكة ورب الملائكة والأكوان، بدأت قصة خلق آدم، فالله تبارك وتعالى يخبر الملائكة بأنه سيجعل خليفة في هذه الأرض وهو آدم وذريته، وأنه سبحانه وتعالى سيمكنهم فيها ويجعلهم أصحاب سلطان . أما الملائكة فإنها تتعجب لهذا النبأ، متسائلة عما يؤول إليه خلق هذا البشر الذي لم يستطع أن يقيم ملكوتاً يساوي ملكوت السماء، فتطرح الرأي قائلة «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك»، وبهذا القول جعلوا أنفسهم أفضل من هذا المخلوق الذي سيجعله الله خليفة، ولكن الله عز وجل أجابهم - وهو يعلم السر وأخفى - بأن خلق آدم فيه حكمة، وأنه يعلم ما لا يعلمون .

وخلق الله آدم عليه السلام، وعلمه الأسماء وحقائقها وخواصها ليتمكن في الأرض وأراد سبحانه وتعالى أن ترى الملائكة رأي العين أن هذا البشر الجديد هو أكثر منهم علماً ومعرفة، فسألهم سبحانه عن أسماء فلم يستطيعوا الإجابة، ويدعو سبحانه آدم ويسأله بما سأل الملائكة، فيجيبهم ويكون لهم بمثابة المعلم، وهنا تعتذر الملائكة في خشوع، فيصدق عليها قول الله عز وجل «وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون» . والمراد بالأسماء التي علمها الله لآدم هي المسميات - الأشياء من غير تحديد - فالله سبحانه خلق في الإنسان بموجب استعدادة علماً ضرورياً بحقائق الأشياء وسنن الله التي تحكمها .

وخلق الله آدم من طين كما جاء في القرآن

«وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين» .

«ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون»

«خلق الإنسان من صلصال كالفخار» .

وسواه سبحانه وتعالى من الطين على هيئة إنسان ، ثم نفخ فيه من روحه ، فإذا هو إنسان من لحم وعظم وعصب ، يتحرك بإرادة الخالق الرزاق ويفكر .

فأمر سبحانه ملائكته بتكريم آدم بأن يسجدوا له سجود التكريم ، قال تعالى «وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين» . وقد نستخلص من الآية الكريمة أن الله خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر ملائكته بالسجود إليه تكريما واحتراما له . وقد سجدت الملائكة إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ، فسأله سبحانه - وهو أعلم به - عن امتناعه ، فاحتج بأنه أفضل منه تكوينا ، حيث خلقه سبحانه من نار وخلق آدم من طين ، والنار في رأيه أفضل من الطين ، فكان جزاؤه أن طرد من الجنة وأخذ اللعنة إلى يوم الدين . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى «فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين . قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين» .

وطلب إبليس من ربه أن يمهله حيا إلى يوم الدين ، فأجابه الله طلبه - لحكمة يعلمها سبحانه - فعمل إبليس طلبه هذا بأنه سيسعى جاهدا في تضليل بني آدم وإصرافهم عن الطريق المستقيم ، فيدخلهم من باب الغفلة والضعف إلى إغوائهم ، وقد لعنه الله ونهره وأخرج من الجنة مذموما مدحورا . وأقسم عز وجل بإدخاله جهنم هو ومن اتبعه . وهذا واضح في قوله عز جلاله «فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين ، قال أنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين ، فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ، قال أخرج منها مذموما مدحورا ، لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين» .

وكلام الله يصور لنا عزم الشيطان على غواية بني آدم إلا عباد الله المخلصين في قوله تعالى «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ، إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طينا ، قال أرايتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فممن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤهم جزاء موفورا ، واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا» .

وقد حل آدم الجنة مع زوجته ، هذه الزوجة التي قيل فيها أن الله أخذ ضلعا من الشق الأيسر لآدم بعدما أغرقه في النوم ، وخلق حواء منه ، فحين اسيقظ وجد حواء عند رأسه قاعدة ، فلما رأى ذلك قالت : أنا امرأة خلقت لتسكن إلي . وإلى ذلك يسير القرآن «الذي خلقكم من نفس واحدة ، فخرج من ظهرها» . وفي آية أخرى «وجعل منها زوجها ليسكن إليها» .

وما أن حل آدم وزوجه الجنة حتى أغدق الله عليهما من ثمر الجنة ، ولم ينههما إلا عن شجرة واحدة ، أمرهما أن لا يقرباها ، وإن أكلا منها تعرضا لعقوبة .

فوجد إبليس من ذلك منفذا ومدخلا ، فأخذ يحثهما ويغريهما للأكل من تلك الشجرة بكل وسائله وكيدته ومكره ، فأوهمهما أن الأكل من الشجرة يجعلهما من صنف الملائكة والخلود في الجنة . وهذا ما نستخلصه من الآية الكريمة «ويا آدم اسكن أنت وزجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما وري عنهما من سواتهما ، وقال لهما ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما إني لكما من الناصحين» .

ونسي آدم وحواء أن إبليس عدوا لهما ، فأكلا من الشجرة فانكشفت لهما عورتها ، ومن فرط حياتها أخذتا يجمعان بعض أوراق الشجر لستر عورتها ، وكانا قبل ذلك لا يرى كل منهما عورته ولا عورة الآخر ، وناداهما ربهما معاتبا إياهما ، فشعر آدم وحواء بمبلغ الخطيئة ، فندما وتضرعا إلى الله عز وجل ، وفي ذلك يقول سبحانه «فدلاهما بغرور ، فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما أن الشيطان لكما عدو مبين ، قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» .

وتقبل الله دعاء آدم وعفا عنه «فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم» ، ولكن الله أنزلها من الجنة إلى الأرض ، وأخبرهما أنه سيكون لذريتهما عداوة مع الشيطان على هذه البسطة إلى وقت معلوم ، قال تعالى «اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون» وفي آية أخرى «قال اهبطا منها جميعا ، بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم مني هدى ، فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى» .

## الدنيا

الآيات الواردة في القليل من أهمية الدنيا كثيرة في القرآن الكريم ، منها قوله تعالى «إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد» وقوله تعالى «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا» ، وقال تعالى اخسئوا فيها ولا تكلمون ، أولئك الذن اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينعصرون» وقال صلى الله عليه وسلم حينما مر على شاة ميتة «أترون هذه الشاة هيئة على أهلها ؟ قالوا ، من هوانها ألقوها . قال : والذي نفسي بيده للدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء» وقال أيضا «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» ، وقال أيضا «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها» وزاد ابن باجة «إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم» ، وقال أيضا «من أحب ديناه أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته أضر بدنياه ، فأثروا ما يبقى على ما يفنى» ، وقال أيضا «حب الدنيا رأس كل خطيئة» ، وقال عيسى عليه السلام «ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها ، واعلموا أن أصل كل خطيئة حب الدنيا ، ورب شهوة ساعة أورثت أهلها حزنا طويلا» ، وقال أيضا «الدنيا طالبة ومطلوبة ، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه» ، وروي أن سليمان بن داود عليها السلام مر في موكبه والطير تظله والجن والإنس عن يمينه وشماله ، فمر بعابد من بني إسرائيل سمعه يقول : والله يا ابن داود لقد أتك الله ملكا عظيما . فأجابه «لتسيحة في صحيفة مؤمن خير مما أعطي ابن داود ، فإن ما أعطي ابن داود يذهب والتسيحة تبقى» . وقال صلى الله عليه وسلم «أهاكم التكاثر يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأبقيت» ، وقال أيضا «الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له» .

إن هذه الدنيا يعادي من أجلها الإنسان ، ويسعى نحوها متلهفا من غير علم ، فأصبحت أكبر هم ، فهمه لا ينقطع ، وشغله لا ينتهي ، وفقره فيها لا يبلغ غناه ، وأمله فيها ليس له نهاية .

قال داود بن هلال : مكتوب في صحف إبراهيم عليه السلام . يا دنيا ما أهونك على الأبرار الذين تصنعت وتزينت لهم ، إني قذفت في قلوبهم بغضك ، والصدود عنك ، وما خلقت خلقا أهون



إلي منك ، كل شأنك صغير وإلى الفناء يصير، قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدومي لأحد ولا يوم لك أحد، إن بخل بك صاحبك وشح عليك ، طوبى للأبرار الذين أطلعوني من قلوبهم على لرضا ، ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة ، طوبى لهم ما لهم عندي من الجزاء إذا وفدوا إلي من نورهم إلا النور يسعى أمامهم والملائكة حافون بهم حتى أبلغهم ما يرجون من رحمتي .

وقيل أن آدم لما أكل من الشجرة الملعونة تحرك بطنه لخروج الثفل ، ولم يكن ذلك مجعولا في باقي طعممة الجنة ، فأخذ يدور بين أيكها ، فأمر الله ملكا يخاطبه في ذلك ، فسأل آدم ، فأجابه بأن يضع ما في بطنه ، فسأله الملك أين يضع ذلك ، وبعد جولة اختار له النزول إلى الدنيا .

وقال صلى الله عليه وسلم في إحدى خطبه «المؤمن بين مخافتين ، بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه ؟ فليتزود العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن حياته لموته ، ومن شبابه لهرمه ، فإن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة ، والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعجب ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار» . وقال عيسى عليه السلام «لا يستقيم حب الدنيا والآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد» . وقيل أن جبريل سأل نوحا عنهما السلام : يا أطول الأنبياء عمرا ، كيف وجدت الدنيا ؟ فقال : كدار لها بابان ، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر . ويروى أن عيسى عليه السلام اشتد عليه المطر والرعد والبرق يوما ، فجعل شيئا يلجأ إليه فوقعت عينه على خيمة من بعيد ، فأتاها فإذا فيها امرأة فحاد عنها ، فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا فيه أسد فوضع يده عليه وقال : إلهي جعلت لكل شيء مأوى ولم تجعل لي مأوى ، فأوحى الله إليه : مأواك في مستقر رحمتي ، لأزوجنك يوم القيامة مائة حور خلقتها بيدي ، ولأطعمن في عرسك أربعة آلاف عام ، يوم منها كعمر الدنيا ، ولأمرن مناديا ينادي أين الزهاد في الدنيا ، زوروا عرس الزاهد في الدنيا عيسى بن مريم .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح ، فجاء بهال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما صلى انصرف فتعرضوا له ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ، ثم قال «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء» قالوا أجل يا رسول الله . قال «فأبشروا وأملوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكنني أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ففتننا فسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم» ، وفي حديث آخر «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض» فقيل ما بركات الأرض ؟ قال «زهرة الدنيا» . وقيل عن عمار بن سعيد أن عيسى عليه السلام مر بقرية فإذا أهلها موتى في الأفنية والطرق ، فقال : يا معشر الحواريين ، إن هؤلاء ماتوا عن سخطة ، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا ، فقالوا : يا روح الله وددنا أن لو علمنا خبرهم ، فسأل الله تعالى فأوحى إليه إذا كان الليل فنادهم يجيبوك ، فلما كان الليل أشرف على نشر . ثم نادى : يا أهل القرية ، فأجابه مجيب لبيك يا روح الله ! فقال : ما حالكم وما قصتكم ؟ قال : بتنا في عافية وأصحابنا في الهاوية ، قال : وكيف ذاك . قال : بحبنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصي . قال : وكيف

كان حبكم للدنيا؟ قال : حب الصبي لأمه ، إذا أقبلت فرحنا بها ، وإذا أدبرت حزنا وبكىنا عليها ، قال : فما بال أصحابك لم يجيبوني؟ قال : لأنهم ملجمون بلجم من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد ، قال : فكيف أجبتي أنت من بينهم؟ قال : لأنني كنت فيهم ولم أكن منهم ، فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم ، فأنا معلق على شفير جهنم لا أدري أأنجو منها أم أكبكب فيها؟ فقال المسيح للحواريين : لأكل خبز الشعير بالملح الجريش ولبس المسوح والنوم على المزابل كثير مع عاقبة الدنيا والآخرة . ومر موسى عليه السلام برجل يبكي ورجع وهو يبكي ، فقال موسى : يارب إن عبدك يبكي من مخالفتك . فقال : يا ابن عمران لو سال دماغه مع دموعه ورفع يديه حتى يسقطا لم أغفر له وهو يحب الدنيا .

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلباً ولا عن النار مهرباً ، أولها ، من عرف الله فأطاعه ، وعرف الشيطان فعصاه ، وعرف الحق فاتبعه ، وعرف الباطل فاتقاه ، وعرف الدنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها . وقال الحسن : من نافسك في دينك فنافسه ، ومن نافسك دنياك فألقها في نحره .

وقال لقمان لابنه : يا بني إن الدنيا بحر عميق وقد غرق فيه ناس كثير ، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عز وجل ، وحشوها بالإيمان بالله تعالى ، وشراعها التوكل على الله عز وجل . لذلك تنجو وما أراك ناجياً .

وقال بعض الحكماء : إنك لن تصبح في شيء من الدنيا إلا وقد كان له أهل قبلك وسيكون له أهل بعدك ، وليس لك من الدنيا إلا عشاء ليلة وغذاء يوم ، فلا تهلك في أكله ، وصم عن الدنيا وأفطر على الآخرة ، وإن رأس مال الدنيا الهوى وربحها النار .

وقال يحيى بن معاذ : الدنيا حانوت الشيطان ، فلا تسرق من حانوته شيئاً فيجيء في طلبه فيأخذك .

وقال ابن العباس : إن الله جعل الدنيا ثلاثة أجزاء : جزء للمؤمن ، وجزء للمنافق ، وجزء للكافر . فالمؤمن يتزود ، والمنافق يتزين ، والكافر يتمتع . وقال بعضهم : الدنيا جيفة ، فمن أراد منها شيئاً فليصبر على معاشرة الكلاب ، وقيل إن الله لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم هبت لإبليس جنوده حائرين قائلين : لقد بعث نبي وأخرجت أمة . فقال إبليس : هل يحبون الدنيا؟ قالوا نعم . قال : سأغدوا وأروح بثلاث : أخذ المال من غير حقه ، وإنفاقه في غير حقه ، وإمساكه عن حقه ، والشر كله من هذا نبع .

إن الدنيا ساحرة تسحر قلوب أهلها ، وتجرب بالعتاب من مانعها ، فحلالها حساب ، وحرامها عقاب ، تحتل القلب منفردة . وتزاحم فيه الآخرة . قال لقمان لابنة : إبنني ، بع دنياك بأخرتك تربحها جميعاً ، ولا تبع أخرتك بدنياك تخسرهما جميعاً . وقال الفضيل : لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علي حلالاً لا أحاسب عليها في الآخرة لكنت أتقدرها كما يتقدر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه .

وقال بشر : من سأل الله الدنيا فإنها سأله طول الوقوف بين يديه . وقال الحسن : لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بجرات ثلاث . أنه لم يشبع مما جمع ، ولم يدرك ما أمل ، ولم يحسن الزاد لما يقدم إليه .

وقال الحسن : أهينوا الدنيا ، فوالله ما هي لأحد بأهناً منها لمن هانها . وقال حكيم : الدنيا دار خراب ، وأخرب منها قلب من يعمرها ، واللجنة دار عمران وأعمر منها قلب من يطلبها .

والشافعي رحمه الله يعظنا بقوله : يا أخي إن الدنيا دحض مزلة ، ودار مذلة ، عمرانها إلى الخراب صائر ، وساكنها إلى القبور زائر ، شملها على الفرقة موقوف ، وغناها إلى الفقر مصروف ، الإكثار فيها إفسار ، والإعسار فيها يسار ، فافزع إلى الله وارض برزق الله ، لا تتسلف من دار فنائك إلى دار بقائك ، فإن عيشك فيء زائل ، وجدار مائل ، أكثر من عملك وأقصر من أملك . وقال يحيى بن معاذ الرازي : العقلاء ثلاثة ، من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وبنى قبره قبل أن يدخله ، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه .

وقال أيضا : من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها حتى يصير رمادا ، ومن أقبل على الآخرة صفته نيرانها فصار سبيكة ذهب ينتفع به ، ومن أقبل على الله عز وجل أحرقته نيران التوحيد فصار جوهر لا حد لقيمته .

إن من ركن إلى الدنيا زحزحته بزخرفها ، وفتنته بأمانيتها ، فهي ناظرة إلى القلوب تتربصها ، وعاكفة على النفوس تتحيلها ، فكم من عاشق لها قتلته وأخذته وأغرقتة بوائقها ، فليستيقظ عاشقها من غفلته ، وليتنبه من رقدته ، وليتذكر يوم يثقل لسانه ، ويزيغ بصره ، ويتعثر أنيه ، ويبكي إخوانه ، فيأتي أجله ، حينذاك ينظر إلى الدنيا أنها دار غرور ، وأن الآخرة هي دار القرار ، «من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد» . وخطب علي كرم الله وجهه خطبة نقتطف منها ما يلي : أوصيكم بتقوى الله والترك للدنيا التاركة لكم وإن كنتم لا تحبون تركها ، المبلىة أجسامكم وأنتم تريدون تجديدها ، فإنما مثلها كمثل قوم في سفر سلكوا طريقا وكأنهم قد قطعوه ، وأفضوا إلى علم فكأنهم بلغوه ، وكم عسى أن يجري المجرى حتى ينتهي إلى الغاية ، وكم عسى أن يبقى من له يوم في الدنيا ، وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها ، فلا تجزعوا لبؤسها وضرائها ، فإنه إلى انقطاع ، ولا تفرحوا بمتاعها ونعمائها فإنه إلى زوال ، عجبت لطالب الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس بمغفول عنه . وقال أيضا في خطبة أخرى : اعلمو أنكم ميتون ومبعثون من بعد الموت وموقوفون على أعمالكم ومجزون بها ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، فإنها بالبلاء محفوفة ، بالفناء معروفة وبالغدر موصوفة ، وكل ما فيها إلى زوال ، وهي بين أهلها دول وسجال لا تدوم أربابها ، ولا يسلم من شرها نزالها ، بينا أهلها منها في رخاء وسرور ، إذا هم منها في بلاء وغرور ، وأحوال مختلفة وثارات منصرفة ، العيش فيها مذموم ، والرخاء فيها لا يدوم ، وإنما أهلها فيها أغراض مستهدفة ، ترميهم بسهامها وتقصيمهم بحمامها ، وكل حتفه فيها مقدور وحظه فيها موفور . . . ! .

والدنيا أحوال ثلاثة :

حالة لم تكن فيها شيئاً ، وهي ما قبل وجودك إلى الأزل .

وحالة تكون فيها مشاهدات للدنيا ، وهي ما بعد موتك إلى الأبد .

وحالة متوسطة بين الأزل والأبد ، وهي أيام حياتك في الدنيا .

فانظر إلى مقدار طولها وانسبه إلى طرفي الأزل والأبد حتى تعلم أنه أقل من منزل قصير في سفر

بعيد .

والدنيا سريعة الفناء ، قريبة الانقضاء ، تنظر إليها فتراها ساكنة مستقرة ، وهي سائرة سيرا عنيفا

وسريعا ، ولكن الناظر إليها لا يحس بحركتها ، وإنما يحس عند انقضائها ، مثلها مثل ظل متحرك في

الحقيقة ، ساكن في الظاهر ، لا تدركه الأبصار ، ولكن تدركه البصيرة .

وقال عيسى عليه السلام : الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها .

والدنيا زينتها الأرض ، والأرض تجمع المعدن والنبات والحيوان .

فأما المعادن فيطلبها الإنسان للآلات والأواني والنقد كالذهب والفضة . . . إلى غير ذلك . وأما

النبات فيطلبه الإنسان من أجل القوت والعلاج .

وأما الحيوان فينقسم إلى إنسان وحيوان .

فالحيوان يطلب لحمه للأكل وظهره للركوب والزينة .

وأما الإنسان فقد يستولي عليه الإنسان من أجل تسخيره من غلمان وجواري ونسوان ، أو ليغرس

في نفسه التعظيم والإكرام والجاه وملك القلوب .

وهذه صفحات جمعها الله عز وجل في قوله « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين »

– وهذا من الإنس – « والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة » – وهذا من الجواهر والمعادن –

« والخليل المسومة والأنعام » – وهي البهائم – « والحرث » – وهو النبات والزرع – .

وكل هذه الأشياء المرتبطة بالإنسان لها علاقة مع قلبه ، وهو حبه وحظه وصرف همته لذلك ، فإذا

انصرف القلب إلى ذلك اندرج في طياته الكبر والغل والرياء والحسد والسمعة والمداهنة وسوء الظن

والتكاثر والتفاخر ، وهذه أيضا هي الدنيا الباطنة ، وأما الظاهرة فهي ما ذكرنا . أو بعبارة أصح ،

علاقة القلب بالحب ، وعلاقة البدن بالشغل .

فلو عرف الإنسان ربه ونفسه وعرف حكمة الدنيا وسرها ، لعلم أن الدنيا لم تخلق إلا لعلف

البدن ، ليواصل مطافه إلى خالقه ، حينذاك يعرف المسار .

وخلاصة القول ، فإن مذاهب الناس في الدنيا كثيرة ، تزيد على السبعين ، كل ينشد ضالته فيها ،

ومقتنع لها بمبدئه ، ويبقى الناجي من هذه الفرق واحد ، نعم فرقة السالكين سبل القدوة الأعظم .

سيد المرسلين ، محمد صلى الله عليه وسلم ، الذي لم يترك الدنيا كلية ، وإنما أخذ منها زاده الضروري ، ولم يترك الشهوات كلية ، وإنما قمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل ، ولم يترك كل شيء للدنيا ، ولم يطلب كل شيء منها ، بل يعرف قصدها وقصد ما خلق على ظهرها فيحفظه لحد مقصوده ، حيث يأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة ، ومن المسكن والملبس ما يقيه البرد والحر ، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله عز وجل بكل همته واشتغل بالذكر والفكر ، وحافظ على الورع والتقوى ، وسلك سبل الهدى ، وجعل نصب عينيه قول الله عز وجل «وتزودوا . فإن خير الزاد التقوى» ، وهو القائل صلى الله عليه وسلم «تفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة ، كلهم في النار إلا ملة واحدة» قالوا : ومن هي يا رسول الله ؟ قال : «ما أنا عليه وأصحابي» .

## مناقشة العزلة

اختلفت الآراء في العزلة بين النابغين ، فذهب بعضهم إلى تفضيلها ، وذهب بعضهم إلى تفضيل المخالطة . ولنأت بأمثلة من ذلك .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : خذوا بحظكم من العزلة . وقال ابن سيرين : العزلة عبادة . وقال الفضيل : كفى بالله محبا ، وبالقرآن مؤنسا ، وبالموت واعظا . وقيل عنه أيضا : اتخذ الله صاحباً ودع الناس جانبا . وقال وهيب بن الورد : بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء ، تسعة منها في الصمت ، والعاشرة في عزلة الناس . وقال سفيان الثوري : هذا وقت السكوت وملازمة السموت . ١٩٥  
إبراهيم النخعي لرجل : تفقه ثم اعتزل . وقال رجل لسهل : أريد أن أصحباك . ١١ - ١١  
أحدنا فمن يصحب الآخرة ؟ قال : الله سبحانه . قال : فليصحبه الآن . وورد الفضيل من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه .

تلكم أقاويل المنعزلين وآراؤهم .

غير أن الذين يفضلون الاختلاط يحتجون بحجج من القرآن أو بأحاديث نبوية . غير أن تلك الآيات أو الأحاديث لم يدركوا بعد معانيها .

فمثلا قوله تعالى «ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا» أو قوله تعالى «فألف بين قلوبهم» فالمراد بالتفرق تفرق المذاهب والآراء في معاني الكتاب والسنة ، والمراد بالآلة نزع ما في القلب من الأسباب المشيرة للفتن ، أما العزلة لا تنافي ذلك . واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم «المؤمن إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يآلف ولا يؤلف» وهذا الحديث لا علاقة له بمفهوم العزلة ، إذ يشير إلى سوء الخلق الذي يمنع الألفة . واحتجوا أيضا بأقواله صلى الله عليه وسلم «من فارق الجماعة شبرا خلع ربة الإسلام من عنقه» «من فارق الجماعة فمات ، فميتته جاهلة» «من شق عصا المسلمين ، والمسلمون في الإسلام دامج ، فقد خلع ربة الإسلام من عنقه» كل هذه الأحاديث لا علاقة لها بالعزلة اشتغالا بالنفس وسلامة من الغير ، وإنما المقصود منها الجماعة التي انفقت آراؤهم على إمام ، فالخروج على ذلك بغي ، نظرا لحاجة الجماعة إلى إمام مطاع يحسب الشمل والرأي ، فمخالفة ذلك تشويش يبعث على الفتنة .

واحتجوا أيضا في نهيه صلى الله عليه وسلم عن الهجر كما جاء في أقواله «من هجر أخاه فوق ثلاث دخل النار» «لا يحل لامرئ مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، والسابق يدخل الجنة» «من هجر

أخاه سنة فهو كسافك دمه». فالمراد بالأحاديث إشارة إلى الغضب واللجاج مما يتسبب قطع الكلام والسلام والعشرة لتدبر نفسه ومجاهدته لها حتى يتمكن من إصلاحها. والهجر إذا كان محمولاً على الإصلاح فلا بأس بذلك. كما ورد عن عائشة رضي الله عنها «أن النبي صلى الله عليه وسلم هجر زينب ذا الحجة والمحرم وبعض صفر». وكما روي أيضاً عن عمر رضي الله عنه . أن النبي صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه وآلى منهن شهراً وصعد إلى غرفة له وهي خزائنه فلبث تسعاً وعشرين يوماً، فلما نزل قيل له : إنك كنت فيها تسعاً وعشرين ، فقال «الشهر قد يكون تسعاً وعشرين». ولكي نوضح الموضوع أكثر، فإن العزلة التي أركز عليها - والتي هي بيت القصيد - ما تكون حافزة نحو صفاء النفس من كدورتها، فتكون من أجل تحصيل الطاعات في الخلوة والمواظبة على العبادة الخالصة الحاضرة والفكر ودراسة العلم والتخلص من ارتكاب ما تُهي عنه بحكم المخالطة السيئة من رياء وغيبة ومنكر، والتأثر بأخلاق رديئة وخبيثة من جلساء السوء إلى غير ذلك. ومثل هذه العزلة تكون لها فوائد عديدة. منها الاستئناس بمناجاة الله عز وجل واستكشاف الأسرار في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السموات. كل هذا يستدعي بالطبع عزلة باعتبارها الوسيلة للوصول، وقد كان صلى الله عليه وسلم قبل بدء الرسالة يتبتل في جبل حراء وينعزل إليه حتى قوي فيه نور النبوة وتمكن، فأصبح بدنه للخلق وقلبه للخالق. قيل للجنيد: أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة والناس يظنون أنني أكلمهم. فمثل هذا القول استغراق في حب الله لم يبق لغيره متسع، وقد ثبت أن بعض الصوفيين يخالطون الناس بيدنهم وهم لا يدرون ما يقولون ولا ما يقال عنهم لفرط عشقهم وحبهم لله عز وجل. وأعظم العقلاء المشتغلين بالآخرة يرون العزلة هي أفضل حافز للاستعانة عليها. قيل لبعض الحكماء: إلى أي شيء أفضى بك الزهد والخلوة؟ قال: إلى الأُنس بالله.

والحق أن هذا النوع من العزلة في الواقع ليست عزلة، فالحكيم أنيس وجليس المولى عز وجل، فإن شاء أن يناجيه المولى قرأ القرآن، وإن شاء أن يناجي مولاه صلى وذكر. وقال ذو النون المصري: سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه. وقال مالك بن دينار: من لم يأنس بمحادثة الله عز وجل عن محادثة المخلوقين فقد قل علمه وعمي قلبه، وضع عمره.

وفائدة أخرى في العزلة، وهي الإبتعاد عن المعاصي التي يتعرض لها الإنسان غالباً بالمخالطة والمعايشة كالغسة والنميمة والرياء إلى غير ذلك.

ثم إن العزلة من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس من شرور الناس، لأن الإختلاط والمشاورة في ذلك تبعث على الحسد والعداوة وسوء الظن ونصب المكيدة والدسيسة والغائلة، وقيل معايشة الناس - رتورت سوء الظن بالأبرار، وقيل عن عمر بن الخطاب: العزلة راحة من قرين السوء، وقال أبو ذؤيب: كان الناس ورقاً لاشوك فيه، والناس اليوم شوك لا ورق فيه. وقال أيضاً: اتقوا الله واحذروا الناس، فإنهم ماركبو اظهر بعير إلا أدبروه، ولا ظهر جواد إلا عقروه، ولا قلب مؤمن إلا خربوه.

بجانب هذا وذاك ، فإن العزلة أيضا تقطع طمع الناس فيك وتقطع طعمك فيهم ، وتخلصك من الثقل والخبثاء والحمقى وأخلاقهم .

رغم أننا بينا فوائد العزلة وما قيل عنها من مدح ، فإننا نؤكد آفتها إذا لم تفهم على الوجه الذي أردناه لها ، مع العلم أن للمخالطة قيمة وفوائد إذا كانت على الوجه المطلوب الذي نريده منها كالتعليم والتعلم والنفع والانتفاع والتأديب والاستئناس والإيناس ونيل الثواب وإنالته في القيام بالحقوق والتواضع والإستفادة من التجارب ومشاهدة الأحوال والإعتبار بها....إلى غير ذلك .

فالذي يرى الاقتدار من نفسه هضم العلوم الشرعية وماواها. فالعزلة له خسران مبین ، وفي مثل هذا يقول النخمي وغيره : تفقه ثم اعتزل. وليس كمن يعيش معتزلا في برج أوهامه وخواطره الفاسدة فيكون في أكثر أحواله أضحوكة الشيطان في الوقت الذي يعتقد أنه من العباد ، فلا خير في عزلة ينقصها العلم ولاخير في عزلة الجهال - أي من لا يحسن العبادة في الخلوة ولا يعرف ما يلزمه فيها ، ولاعذر لعالم مقرب إلى الله بعلمه ، فمن أكبر الكبائر الاعتزال وكتمان علمه على الناس.

والانتفاع بالناس من أجل الكسب والمعاملة لا يأتي إلا بالمخالطة. زيادة على التأديب والمجاهدة للنفس عن طريق تحمل أذى الناس.

إن النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب ، فمن تمكن من ذلك في حدود الشرع فهو أفضل من عزله المصحوبة بالنوافل إلا من وصل الفتح الأكبر ، فذلك شيء آخر لا طاقة لي بالحديث عنه خشية وخشوعا.

وهناك حالات لايمكن تجاوزها عند أصحاب العزلة ، كحضور الجنائز وعبادة المرضى وحضور العيدين وصلاة الجمعة وحضور صلاة الجماعة. كل هذا لايمكن تجاوزه إلا لضرورة.

وإن تجارب الإنسان لا تستفاد إلا بالمحافظة ، فالعقل الغريزي غير كاف ليتفهم مصالحه الدينية والدنيوية إلا بالممارسة والتجربة والإحتكاك ، فلا خير في عزلة غير محنكة بتجارب.

والسالك لطريقة الله ماجرب نفسه بنفسه ، فإن استشعر كبرا أو رياء أو فسادا أو نفاقا أو احتيالا...إلى ذلك سعى في إمطة بوائقة دفعة أو تدريجيا حتى يفظم نفسه بنفسه ويقيها الغوائل وكيد الشيطان

وخلاصة القول ، فأنت الآن مخير بين العزلة أو المخالطة ، فلا يمكن أن ندفعك لواحدة أكثر مما تدفع نفسك على ضوء تجربتك ، فذلك يختلف باختلاف الأحوال والملاحظة ، والحق لا يكون إلا واحدا ، والحق يكشف الحقيقة ، والحقيقة إن أشرفت كشفت الغطاء ورفعت الحجاب.

وإن كان يطول النظر في باب المخالطة ، فإننا نحدد في نفس الوقت آداب العزلة ، إذ ينبغي أن ينوي المرء بعزله كف شر نفسه عن الناس مع السلامة من شرهم ، والخلاص من أفة القصور عن القيام بحقوقه الواجبة نحوهم ، مع التجرد بهمة لعبادة الله عز وجل ، ثم في خلوته يواظب على العلم والعمل والذكر والفكر ، ويكف عن أخبار الناس أو الإصغاء إليهم حتى لايشوش ذلك على ذكره



وفكره وصلاته ، وأن يقنع بما أتاه الله من فضله في معاشه ، وأن يصبر على ما يلقيه من أذى الجيران والخلان ، وأن يسد سمعه على ما يقال فيه من ثناء أو قدح ، وأن يسير مواظبا نحو العلي الأعلى مرة بالذكر مع حضور القلب ومرة بالفكر في جلاله وعظمته وصفاته وأفعاله وملكوته.

وعلى أي حال ، فإن العزلة والخلوة تعني المجاهدة ، وفيها قال صلى الله عليه وسلم «المجاهد من جاهد نفسه» ، وكل متجرد لله في جهاد نفسه فهو شهيد ، وفي ذلك يقول عز وجل «ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل أحياء ، عند ربهم يرزقون فرحين بما أتاهم الله من فضله»

## القضاء والقدر

مشكلة القضاء والقدر بين أخذ ورد، لم يتوصل العلماء والفلاسفة حتى عصرنا هذا إلى إظهار صورة واضحة، فهم لا زالوا يخوضون بين الرأي والرد المعاكس، وبين الكتب السماوية المنزلة، فهم لا زالوا لحد الآن بين الجدل والتخمين والاستنتاج الذي قل أن يفك الرموز والإشارة الخفية التي مازادت الموضوع إلا تعقيدا واستفسارا وتساؤلا، مما أدى إلى تضارب الأفكار وتنويع وتعقيد الدراسات.

فالقدر الذي يعني تقدير الخالق المبدع الذي أوجد كل الموجودات على الصورة التي أرادها سبحانه وتعالى. جعل في إبداعاته موجودات مرتبة ومنظمة في أماكنها ومركبة بشكل دقيق متناهي في الدقة لا يمكن لأولها أن يكون آخرها ولا آخرها أن يكون لأولها، كما قال تعالى «إنا كل شيء خلقناه بقدر» «وإن من شيء إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم» «ولكن ينزل بقدر ما يشاء، إنه بعباده خبير بصير» «سنه الله في الذين خلوا من قبل، وكان أمر الله قدرا مقدورا». وهذا يعني أن كل الموجودات العلوية أو السفلية وضعت في المكان الواجب وضعه. بينما القضاء ما أوجبه الحكمة الإبداعية من العناية بالموجودات من تقدير الاستطاعة الموجودة فيها عملا بقوله تعالى «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه» لأن ذلك جعله في فطرتهم وقواهم، وبمجرد الخروج عن هذا الحد الذي ليس في أصل الطباع يذوق العذاب نتيجة الانحراف ومما هو مجبول عليه في أصل الفطرة.

ومن هنا يمكن أن نقول أن القضاء هو ما قضاه الله سبحانه وتعالى في سابق علمه، لأنه لا يكلف خلقه إلا ما يجعله في وسعه وطاقته، تمشيا مع قوله عز وجل «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» فمجرد أن يتكلف الإنسان أكثر مما في طبعه وما نهاه الله عنه عذبه، لأنه ضرب بقضائه وحكمه وانحرف عن وصيته المنصوص عنها في القرآن الكريم كما ذكرنا، لكن العبد إذا عبد وأطاع أخذ الخير والرضا بحكم أنه مجبول على الخير، والخير يؤت النفس خيرا، ولا يمنح الخير ولا يجود إلا بالجود كونه قضاء الحق. فالعبد حينما يتمرد، ينحرف في إيمانه لغير الله يخرج بطبيعة الحال عن قضائه فيعذبه ليرده إلى خيره الذي يوصله إلى كرامته.

ومن هنا يمكننا أن نعتبر المعصية خروجا عن قضاء الله سبحانه وتعالى تستوجب السخط والعقوبة، وقد نعلم أن الشر لا أصل له في الإبداع من جهة المبدع سبحانه وتعالى، كما أن المخلوق غير مصان على فعل الشر.

والإنسان مخير ، مسير في أي لحظة من حياته.

مخير بقدر ما هو محكوم بهذا الناموس الطبيعي الذي لا يمكن أن يتخلص منه ، وهو ناموس الأسباب والمسببات ، وارتباط الماضي بالحاضر ، والحاضر بالمستقبل . والتخيير والتسيير مثل السلكين الكهربائيين - السالب والموجب - كل منهما يكمل الآخر وبحاجة إليه ، فاجتماعهما لازم لأي نشاط كهربائي ، كذلك التسيير والتخيير لازم لأي نشاط إداري في الوجود غير المحدود سواء في عالم الغيب أو عالم الشهادة.

وقد قلنا أن القدر هو تقدير المبدع سبحانه وتعالى للأشياء على الصورة التي هي عليها ، وهي أشياء خلقت من عدم إلى وجود مرتبة لا تتجاوز بعضها . بينما القضاء هو ما أوجب في الحكمة من العناية بالعلم من تكليف الاستطاعة الموجودة فيهم . فأهل السنة وقفوا موقف التسليم بالقضاء والقدر معتمدين على ما جاء في كتاب الله عز وجل ، وما جاء في أقواله صلى الله عليه وسلم معتبرين أن قضاء الله وقدره لا ينقضان الدين والشرع ، وأن القضاء والقدر والدين والشرع من عند الله ، وما هو من عند الله لا يمكن رفضه أو دفعه ، وهو المعيد من نفسه بنفسه كما قال صلى الله عليه وسلم «أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بعفوك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك» . والمعنى أن الله يسخط عن العاصي والكافر ، فإذا العبد استعاذ برضاه من سخطه - أي طلب الرضا - رفع الله سخطه عن العبد التائب ، فيكون أمر الله وقدره سواء ، لأن أمره لا يبطل قدره ، وقدره لا يبطل أمره ، ولكن يدفع ما قضاه وقدره بما أمر به . وعن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه ذات يوم وهم يتراجعون في القدر ، فخرج مغضبا حتى وقف عليهم فقال : يا قوم ، بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن فصدق بعضه بعضا ، ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به» ، وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى احمر وجهه ثم قال «أبهذا أمرتم أم بهذا أرسلت إليكم ؟ إنما هلك من كان قبلكم حتى تنازعوا في هذا الأمر ، عزمت عليكم ألا تتنازعوا» ، وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال : الناظر إلى القدر كالناظر إلى عين الشمس ، كلما ازداد نظرا ازداد تحيرا . لقد خرج رسول الله على أصحابه وهم يختصمون بالقدر ، فغضب رسول الله واحمر وجهه الشريف من أجل الخوض في القدر احمرارا شديدا ، وقال : «أبهذا أمرتم أو لها خلقتم ، تضربون القرآن بعضه ببعض ، بهذا هلكت الأمم قبلكم» ، وقال صلى الله عليه وسلم «إذا ذكر القدر فأمسكوا» ، وقيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما اقترب من بلدة فيها الطاعون رجع . فقيل له : أتهرب من قضاء الله ؟ فقال : أهرب من قضائه إلى قضائه . والصحابه رضوان الله عليهم اعتبروا مسألة القضاء والقدر من الأمور العلوية الإلهية التي ترتبط ارتباطا كليا بالخالق سبحانه وتعالى ، لذا يجب الاطمئنان لها والتسليم بها ، وأن الله لا يمنح العبد إلا ما هو خير لنفسه وإيمانه . وسئل ابن تيمية عن اختلاف المسلمين في ماهية القضاء والقدر فقال : «الجماعة الذين اختلفوا في قضاء الله وقدره ، وخيره وشره ، منهم من يرى أن

الخير من الله تعالى ، والشر من النفس خاصة. فإن أهل السنة والجماعة يذهبون إلى أن الله تعالى خالق كل شيء ، وربّه ومليكه ، لأرب غيره ، ولا خالق سواه ، وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وهو على كل شيء قدير ، وبكل شيء عليم. والعبد مأمور بطاعة الله وطاعة رسوله ، نهى عن معصية الله ومعصية رسوله ، فإن طاع كان ذلك نعمة ، وإن عصى كان مستحقاً للذم والعقاب ، وكان لله عليه الحجة البالغة ، ولا حجة لأحد على الله تعالى ، وكل ذلك كائن بقضاء الله وقدره ، ومشيتته وقدرته ، لكن تجب الطاعة ويأمر بها ، ويثيب أهلها على فعلها ويكرمهم ، ويبغض المعصية ، وينهى عنا ويعاقب أهلها ويهينهم. وما يصيب العبد من النعم ، فالله أنعم بها عليه ، وما يصيبه من الشر ، فبذنوبه ومعاصيه ، كما قال تعالى «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» وقال تعالى «ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك».

وروي عن علي كرم الله وجهه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بقيع الغرقد في جنازة فقال : «ما منكم أحد إلا قد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة. فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل على الكتاب ونذع العمل ؟ فقال : اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة. فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسره لعمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ قوله تعالى «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى».

وسأل شيخ من الشيوخ الإمام علي كرم الله وجهه وهو منصرف إلى صفين : أخبرنا عن سيرنا إلى الشام ، أكان بقضاء الله وقدره أم لا ؟ فقال علي : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطنًا ولا هبطنا واديا ولا علونا قلعة إلا بقضائه وقدره ، فقال الشيخ : عند الله أحتمسب عنائي ، ما أرى لي من الأجر شيئًا. فقال له : مه أيها الشيخ ، عظم الله أجركم في مسيركم وأنتم سائرون ، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون ، ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ، ولا إليها مضطرين. فقال الشيخ : كيف والقضاء والقدر ساقنا ؟ فقال علي كرم الله وجهه : ويحك لعلك ظننت قضاء لازما ، وقدرًا محتوما ، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب والوعد والوعيد والأمر والنهي ، ولما كانت تأتي لائمة من الله للذنوب ، ولا محمداً لمحسن أولى بالمدح من المسيء ، ولا المسيء أولى بالذم من المحسن ، تلك مقالة عبدة الأوثان ، وجنود الشيطان ، وشهود الزور ، وأهل العمى عن الصواب في الأمور ، وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها.

إن الله أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً ، وكلف يسيراً ، ولم يعص مغلوباً ، ولم يطع مستكرهاً ، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثاً ، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً «ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار».

قال الشيخ : وما القضاء والقدر اللذان ما سرنا إلا بهما ؟ قال : هو الأمر من الله والحكم ، ثم تلى قول الله تعالى «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحساناً» ، فنهض الشيخ من مقامه مسروراً محبوراً بما سمع. وسأل رجل علياً عن القضاء والقدر ، فقال له : إنه طريق مظلم لا تسلكه.

فأعاد عليه السؤال ، فقال له : بحر عميق لا تلجه. فأعاد عليه السؤال : فقال له : سر الله قد خفي عليك فلا تفشه.

وأيضاً سأل رجل علياً كرم الله وجهه عن القضاء والقدر، فأعرض عنه أربع مرات، ثم ألح بالسؤال، فقال له علي كرم الله وجهه : لما خلقتك الله تعالى خلقتك كيف يشاء هو، أم كيف تشاء أنت؟ فقال الرجل : بل كيف يشاء هو. قال علي : فيحييك كيف يشاء هو أم كيف تشاء أنت؟ قال الرجل : بل كيف يشاء هو. قال علي : فيبعثك كيف يشاء هو، أم كيف تشاء أنت؟ قال الرجل : بل كيف يشاء هو. قال علي : فيحاسبك كيف يشاء هو، أم كيف تشاء أنت؟ قال الرجل : بل كيف يشاء هو. فقال له علي : إذهب ولا تعترض، وقل ما قاله أهل العلم : «إن الله علم ما سوف تختاره لنفسك من الأعمال والأقوال فكتبه عليك».

قد يطول بنا المطاف في مسألة القضاء والقدر، ولا يمكن سبر الموضوع خشية الانزلاق من حيث نشعر أو من حيث لا نشعر، ولكن نكتفي بهذا القدر كإشارة، علماً بأن عقيدتنا السمحاء قد وضعت حداً للموضوع بما حباها الله من بذور عرفانية مثمرة، وأن الله عز وجل قد قدر الكائنات منذ أبداع العقول الروحانية، ورتب الكواكب والأفلاك، وهو القائل في محكم كتابه «ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها» وهذا يعني أن الله رتب الموجودات من كل جانب قبل وجودها، ولما شاءت إرادته أن يبدعها ويوجدتها اختار لها الانفعالات التي يجب أن تنفعل بها وقت وجودها، فلما أرادها بموجب حكمته وسابق علمه أن توجد فقد تعلق في إيجادها أشياء.

منها إحاطة علمه سبحانه وتعالى قبل وجودها. وإيجادها لعالم الوجود منظمة ومرتبة حسب كل موجود منها - وهذا يعني القضاء. ثم إيجادها لعالم الوجود بموجب قدرته الأحادية، فكان هذا قدرها.

فيكون بذلك القضاء والقدر لا ينفك أحدهما عن الآخر. والإنسان لا يستطيع أن يخرج عن ملكوت الله القائم على النظام والدقة التي أبدعها الله خير إبداع، وهو القائل سبحانه وتعالى في محكم كتابه «بديع السموات والأرض، أنى يكن له ولد ولم تكن له صاحبة، وخلق كل شيء، وهو بكل شيء عليم، ذلكم الله ربكم، لا إله إلا هو، خالق كل شيء، فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل، لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير، قد جاءكم بصائر من ربكم، فمن أبصر فلنفسه، ومن عمي فعليها، وما أنا عليكم بحفيظ»

## وصية

الصحة لا يقوى عليها إلا الرجال الأقوياء الذين لا تخزيهم الأحوال، ولا تقبل إلا في طاعة الله وحدود الشريعة، وشرطها النصيحة وأدبها كف الجفاء، ولها مراتب بحسب الأحوال، فإن كان فوقك فاصحبه بالحرمة، وإن كان مثلك فاصحبه بالوفاء، وإن كان دونك فاصحبه بالرحمة، وإن كان عالماً فاصحبه بالخدمة، وإن كان جاهلاً فاصحبه بالسياسة والكياسة، وإن كان غنياً فاصحبه بالزهد، وإن كان فقيراً فاصحبه بالجود، وإن صاحبت صوفياً فاصحبه بالتسليم. وأولى لك أن تصحب الجليل الودود الذي خلقك فسواك فعد لك في أي صورة ما شاء ركبك. فالجليل يعطيك والخليل تعطيه، والجليل يحفظك والخليل تحفظه، والجليل يحملك والخليل تحمله، والجليل يتولاك والخليل تتولاه، والجليل يكون لك حيث تريد والخليل تكون له حيث يريد، إن الذي يأنس بمولاه لا يأنس بسواه، قال تعالى «لا تجدقوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه».

وإنه لمن الحكمة توقير الكبير ورحمة الصغير ومخاطبة الناس باللين والبشاشة الطافحة على الوجه، والإنصات لحديث الجليس ما لم يكن هجراً، والنصيح في الله إن علمت منه ذلك وإلا قدّم العذر من أجل الانفصال، وإن كان حديثه حسناً فاستمع من غير قطع، واشخص إليه بالنظر ما دام محدثاً.

وعليك بالتواضع فإنه سر من الأسرار لا يهبه الله إلا لنبي أو صديق، فليس كل تواضع تواضعاً، وهو من أعلى المقامات، وحقيقته العلم بعبودية النفس، فلا يصح مع العبودية الرئاسة أصلاً، وقد قال أحد المشايخ رضي الله عنهم، آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرئاسة. قال عيسى عليه السلام لأصحابه: أين تنبت الحبة؟ قالوا: في الأرض، فقال عليه السلام: كذلك الحبة لا تنبت إلا في قلب مثل الأرض: يشير إلى التواضع. والتواضع شرف عظيم للإنسان، يجب أن نفرق بينه وبين التملق، فالتواضع موقوف على أصحاب التمكين في العلم والتحقيق في التخلق.

وعليك بالزهد، فإنه صفة شريفة، وشرطه أن لا يحن إلى ما قد زهد فيه، وأدبه أن لا يذم المزهود فيه، وعله أن يشغل نفسه عن زهده من أجله، فإن اشتغل بذلك تولاه الله بالحضور معه في بساط الأنس في كل ما يطرأ من تفاصيل الكون، حتى إذا لم يلتفت إلى ذلك العارض عرف حينئذ منة الله عليه وعنايته به، فيزداد شكراً وربة مما زهد فيه.

وإن ملازمة طريق الاعتدال في كل الأحوال هي من صفة الرجال، وبإدراك إلى استغلال الوقت فإنه هبة من الله لعباده، فزينة بالتقوى والعمل الصالح، ولا تصاحب أحدا إلا من ترى معه الزيادة في دينك ومعرفتك، والزم الورع في النطق والأخلاق، فلا تجلس في طريق المسلمين، فإن كان اضطرارا فغض البصر، وأرشد الضال، وأعن الضعيف، وكف الأذى، ورد السلام، وتورع في مشيك وعودك، ولا تقابل بيت أخيك.

واحترام الشيوخ واجب، فلا تلبس ثيابهم ولا تقعد مكانهم أو ترد عليهم كلامهم، بل بادر إلى امتثالهم واحترامهم وتعظيمهم من عظموه واحترموا، فإن كنت أعلم من شيخك فالشيخ أعلم بالمصلحة لك منك.

وإذا قدمت مسجدا فالزم حرمة، وقدم اليمنى في الدخول، وقدم اليسرى في الخروج، واركع ركعتي التحية، وإن استطعت أن تكون من أول الداخلين وآخر الخارجين فافعل، ولا تجعله موطن النوم والراحة.

والعاقل من جعل كلامه وراء قلبه، وليس كالأحمق الذي كلامه على طرف لسانه وعقله في حجره إذا قام سقط.

والورع رأس الدين، وهو من صفات المحققين، قال عنه بعض الصوفية: ما رأيت عليّ أسهل من الورع، كل ما حاك في نفسي تركته.

وإن كانت تحضرنى الآن - وأنا أخط بالقلم - وصايا كثيرة العد، فإنني أرى الإحجام عنها أدعى خشية التطويل، ولا أرى أفضل من عرض آيات بينات هي أفضل من قول قائل وأحسن من حكمة حكيم وأغنى من ناصح وأجدي للقلب من بيان بليغ. قال عز وجل في محكم كتابه وهو أصدق قائل يوصي عباده ليكونوا سعداء في الدارين: «وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه، وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما، وقل لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا».

«وأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا».

«ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط»

«ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا»

«ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطأ كبيرا»

«ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن»

«ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق»

«وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا»

«وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسط المستقيم»

«ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً»  
«ولا تمش في الأرض مرحاً، إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً»  
«ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله»  
«ولا تفرح إن الله لا يحب الفرحين»  
«وابتغ فيما آتاك الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك»  
«ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين»  
«ولا تصعر خذك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور، واقصد في مشيك، واغضض من صوتك»  
«وإن هذا صراطي مستقيماً فابتعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله»  
«ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا للناس حسناً، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة»  
«واصبر على ما أصابك»  
«ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم»  
«واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً وقل الحق من ربكم»  
«قل الله أعبد مخلصاً له ديني»  
«قل ما أسألكم عليه من أجر»  
«خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين»  
«وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له»  
«واعبدوا الله واتقوه»  
«وجاهدوا في الله حق جهاده»  
«واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا»  
«سارعوا إلى مغفرة من ربكم»  
«لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة»  
«ولا تتبعوا خطوات الشيطان»  
«ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم»



«ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً»  
«ولا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى»  
«وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب  
والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم»  
«كونوا قوامين بالقسط شهداء»  
«ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورثاء الناس»  
«ولا تؤتوا السفهاء أموالكم»  
«ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ، وإن تكفروا فإن لله ما في  
السموات وما في الأرض»  
نسأله سبحانه وتعالى التوفيق في أعمالنا ، والعفو عن سيئاتنا «إن الله لذو فضل على الناس ،  
ولكن أكثر الناس لا يشكرون».

## رؤية الرسول «ص» والوعد بالجنة

رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام أو اليقظة صحيحة، فلا يتمثل في شخصه صورة مخلوق مطلقا سواء في المنام أو اليقظة. أما أسلوب الرؤيا كيف وأين والصورة واللباس فلا داعي للدخول في هذا التفصيل مادامت الرؤيا تحمل اليقين أنه هو صلى الله عليه وسلم. وقد قال عليه السلام «من رأني في المنام فقد رأني، فإن الشيطان لا يتمثل بي» وقال أيضا «من رأني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي» وقال أيضا «من رأى فقد رأى الحق، فإن الشيطان لا يتكوّنني».

والمالك لطاعة الله بشأئه أن يراه صلى الله عليه وسلم مناما، أما إن كان من الذين سبروا الطريق فليس من المستبعد أن يراه يقظة، ومن رآه يقظة فقد جعل الله بينه وبين الشيطان سدا، ومن ابتعد عنه الشيطان من غير رجعة فقد التزم الطاعة، ومن التزم بشر بالجنة التي عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

وفيهما يقول عز وجل «إن المتقين في جنات وعيون، ادخلوها بسلام آمنين، ونزعنا ما في صدورهم من غل، إخوانا على سرر متقابلين، لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين».

وقال سبحانه «ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون، الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين، ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون، يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون، وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعلمون، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون» وقال تعالى «إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون يلبسون من سندس واستبرق متقابلين، كذلك، وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين، لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى، ووقاهم عذاب الجحيم، فضلا من ربك، ذلك هو الفوز العظيم».

وقال تعالى «إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون، تعرف في وجوههم نضرة النعيم، يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ومزاجه من تسنيم عينا عينا يشرب بها المقربون».

إن هذه الأمثلة من الآيات هي على سبيل المثال لا على سبيل الحصر. أما الأحاديث الشريفة الواردة في هذا الموضوع فهي كثيرة أيضا، نأتي منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم «يأكل أهل الجنة فيها ويشربون ولا يتغوطون ولا يتخبطون ولا يببولون، ولكن طعامهم ذلك جُشاء كرشح المسك، يُلهمون التسييح والتكبير، ستون النفس»

وقال أيضا «قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر، واقرؤا إن شئتم «فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة عين».

وقال أيضا «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يببولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوَّة - أي عود الطيب - أزواجهم الحور العين، على نخل رجل واحد على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعا في السماء» وفي رواية البخاري ومسلم : أنيتهم فيها الذهب، ورشحهم فيها المسك، ولكل واحد منهم زوجان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا».

وقال أيضا «إن للمؤمن في الجنة الخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها في السماء ستون ميلا، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن ولا يرى بعضهم بعضا».

وقال أيضا «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة سنة ما يقطعها» وفي رواية يسير الراكب في ظلها مائة سنة ما يقطعها».

وقال أيضا «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدري الغابر، وفي الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم قالوا : يارسول الله. تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال : بلى ، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين».

وقال أيضا «لقاب قوسين في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس أو تغرب»

وقال أيضا «إن في الجنة سوقا يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسنا وجمالا، فيرجعون إلى أهلهم، وقد ازدادتم حسنا وجمالا، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازدادتم حسنا وجمالا، فيقولون : وأنتم والله لقد ازدادتم بعدنا حسنا وجمالا».

وقال أيضا : «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة، فيقولون لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا».

وقال أيضا حينما كانت جماعة عنده فنظر إلى القمر ليلة البدر «إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته»

وقال أيضا «إذا دخل أهل الجنة يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ فيكشف الحجاب . فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم» بهذا القدر نكتفي ، والله ولي المتقين.

## شمائل الرسول وأوصافه ومعجزاته

« اللهم حسن خلقي » اللهم جنيني منكورات الأخلاق» ذلك ما كان يدعو به صلى الله عليه وسلم ، فاستجاب له سبحانه وتعالى « ادعوني استجب لكم » ، وقد كان خلقه القرآن ، كما قالت عائشة رضي الله عنها : كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرءان و وقال فيه عز وجل « وإنك لعلی خلق عظیم » ، وقال صلى الله عليه وسلم « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

كان صلى الله عليه وسلم أحلم وأشجع وأعدل وأعف الناس ، سخي اليد ، لا يسأل إلا وأعطى ، يرقع الثوب والنعل ، وكان أشد حياء ، يجيب دعوة العبد والحر ، لم تمس يده امرأة غير زوجاته ، يقبل الهدية ويكافيء عنها مادامت خالصة ويأكلها ولا يأكل الصدقة ، ولا يتكبر عن الأمة والمسكين ، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه ، وينفذ الحق وإن عاد عليه ، كم وضع الحجر على على بطنه من شدة الجوع ، لم يشبع شبع التخمة إثارة على نفسه لافقرا ولا بخلا ، يجيب الوليمة ويعود المرضى ويشهد الجنائز ويمشي وحده من غير حارس ، أشد الناس تواضعا وأبلغهم وأحسنهم بشرا ، يلبس ما وجد ، وخاتمه فضة يلبسه في خنصره الأيمن والأيسر ، يركب ما أمكنه أو يمشي راجلا حافيا بلارداء ولا عمامة ولا قلنسوة ، يعود المرضى ويحب الطيب ويكره الكريه منها ، يجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويكرم أهل الفضل والشرف ، يصل الرحم ولا يجفو على أحد ، كما يقبل المعذرة ويمزح ولا يقول إلا حقا ، وإن ضحك لا يقهقه ، يرى اللعب المباح ولا ينكره ، ترفع الأصوات عليه فيصبر ، وكانت له أعنز وغنم ، وعبيد وإماء ، يقضي وقته فيما ينفع ، لا يحتقر مسكينا ولا يهاب ملكا ، وهو أمة لا يقرأ ولا يكتب ، نشأ في رعاية الغنم يتيما ، جمع الله فيه المحاسن وأخبار الأولين والآخرين ، لم يشتم ولم يلعن أبدا ، وإن سأله أن يدعو على أحد عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له ، وما ضرب إلا في سبيل الله ، أو أنتقم إلا أن تنهك حرمت الله ، وإن خير بين اثنين اختار أيسرهما ، وما عاب مضجعا ، فإن لم يفرش له اضطجع على الأرض ، يبدأ بالسلام من لقيه ، لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله ، وإذا جلس ينصب ساقيه جميعا ويمسك بيديه عليهما ، وكان يجلس بين أصحابه حيث انتهى به المجلس ، وأكثر ما يجلس مستقبلا القبلة ، يكرم من يدخل عليه فيجلسه على ثوبه إن لم يكن بساط ، ويفضل الداخل عليه بالوسادة التي تحته ، ويدعو أصحابه بكناهم وإكراما لهم ، ويكني من لم تكن له كنية ، وكان أبعد الناس غضبا وأرأفهم وأنفعهم وخيرهم ، وفي مجلسه لم ترفع الأصوات ، وإذا قام من مجلسه قال « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » .

- وأما صفاته فكان صلى الله عليه وسلم نير اللون ، شديد سواد الحدقة مع سعتها وحسنها ، وفي  
بياض عينيه حمرة ، كثير شعر حروف الأجنان مشرق الوجه دقيق الحاجبين في طول ، مدور الوجه ،  
واسع الجبين ، كث اللحية ، تملأ صدره ، عظيم الصدر والمنكبين ، ضخم العظام ، ضخم السدين  
والذراعين والأسافل ، رحب الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، دقيق الشعر من الصدر إلى البطن ،  
ربع القد ، ليس بالطويل المفرط ولا بالقصير المتناهي ، أحسن الناس عنقا ، ليس بكثير اللحم ولا  
بصغير الذقن ، متماسك البدن ، إذا تكلم شع النور من ثغره ، ناصع البياض لا تشوبه صفرة ولا حمرة  
ولا شيء من الألوان ، وكان عرق وجهه أطيب من المسك ، وشعره يضرب إلى أذنيه ليس بالبسط ولا  
المجعد ، وشبيه في الرأس واللحية سبع عشرة . ما رآه أحد إلا شبهه بالقمر البدر ، مفلج الأسنان ،  
ألطف الشفتين ، ختم الفم سهل الخدين ، ما بين كتفيه خاتم النبوة يلي المنكب الأيمن فيه شامة  
سوداء ، ضاربة إلى الصفرة ، حولها شعرات كأنها عرف فرس ، ومشيته كأنها يتقلع من صخر يمشي  
الهويني من غير تبختر .

وكان صلى الله عليه وسلم «يقول أنا أشبه الناس بأدم صلى الله عليه وسلم ، وكان أبي إبراهيم  
صلى الله عليه وسلم أشبه الناس بي خلقا وخلقا» .

أما معجزاته صلى الله عليه وسلم فقد نسردها لاعلى سبيل الحصر .

منها نبع الماء من بين أصابعه ، والبركة في الطعام ، وحنو الشجر والجماد وكلامهما ، وانشقاق  
القمر إلى فلقين فلقة دون الجبل وفلقة فوق الجبل ، حتى شوهد ذلك في إقليم الهند ، وشفاء الأمراض  
بمسح يده على المرض كما فعل مع عبد الله بن عتيك في كسر ساقه ، ومع علي كرم الله وجهه في  
مرض عينيه ، ومع سلمة بن الأكوع في ضربة ، وإعادة بصر أعمى ، وإعادة حدقة عين قتادة التي  
أصببت في غزوة بدر حيث اتفق الجميع على قطعها ، كما أصيب مرة أخرى في العين الأخرى داخل  
معمة غزوة أحد ، فسقطت عينه في كفه فدمعت عينا الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا له بردها  
ومسح عليها فعادت أحسن وأحد وأجمل ، وشفاء الإبن المجنون التي كانت تراوده حالة الصرع صباحا  
ومساء فمسح صدره فصاح صيحة خرج على إثرها من جوفه كالجر والأسود فشفي . ونفس الجنون في  
أعرابي ما أن مسح على صدره وقرأ آيات حتى قام ولم يعرف ذلك المرض قط .

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم الإسراء والمعراج الذي حير عقل الإنسان القديم والحديث  
على السواء ، ودعاؤه المستجاب أودعاؤه لأشخاص كي يستجيب لهم الله سبحانه وتعالى ، فكان ذلك  
حقا وصدقا ، وتنبؤاته بالبشرى والبلوى والأحداث ، ورميه للأعداء بقبضة تراب فعميت أبصارهم ،  
وأبطل الله عمل الكهانة بمبعثه ، وأطعم السم مع شخص فمات الرجل وبقي صلى الله عليه وسلم  
فكلمه ذراع المسموم ، وزويت له الأرض فرأى مشرقها ومغربها وأخبر بأن ملك أمته سيبلغ مارأى ،  
وأخبر فاطمة بنته رضي الله عنها بأنها أول من يلتحق به من أهله فكان كذلك ، ومسح ضرع شاة  
خرود لالبن لها فسألت لبنا ، وكان بعض الصحابة يسمعون معه تسبيح الطعام بين يديه .

والقرءان أعظم معجزة لم يستطع أن يأتي به أهل البيان ، وهو المعجزة الكبرى الباقية بين البشر  
ينادي من يستطيع أن يأتي بمثله قائلاً «قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرءان  
لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»

هذا موجز عن معجزاته صلى الله عليه وسلم وهي على سبيل المثال فقط ، نختمها أيضا ببعض  
الأحاديث المنتقاة كما يلي :

في نبع الماء من خلال أصابعه صلى الله عليه وسلم.

عن أنس رضي الله عنه قال : أتى صلى الله عليه وسلم بإناء وهو بالزوراء - موضع بالمدينة - مع  
أصحابه ، فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه ، فتوضأ القوم ، قال قتادة : قلت  
لأنس : كم كنتم ؟ قال : ثلاثمائة أوزهاء ثلاثمائة. رواه الشيخان.

وعنه قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم في بعض مخارجه - أي أسفاره - ومعه ناس من  
أصحابه ، فانطلقوا يسيرون ، فحضرت الصلاة فلم يجدوا ماء يتوضأون ، فانطلق رجل من القوم فجاء  
بقدر من ماء يسير فتوضأ منه النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم مد أصابعه الأربع على القدر ، ثم  
قال : قوموا توضأوا ، فتوضأ القوم حتى بلغوا ما يريدون من الوضوء ، وكانوا سبعين أو نحوه. رواه  
البخاري.

وعن جابر رضي الله عنه قال : عطش الناس يوم الحديبية والنبي صلى الله عليه وسلم بين يديه  
رُكوةٌ - إناء صغير من جلد - فتوضأ فجهش الناس نحوه فقال : مالكم ؟ قالوا : ليس عندنا ماء  
نتوضأ ولا نشرب إلا بين يديك ، فوضع يده في الرُكوة فجعل الماء يفور بين أصابعه كأمثال العيون ،  
فشربنا وتوضأنا ، قيل : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا . كنا خمس عشرة مائة. رواه الشيخان.  
وفي تكثير الطعام وزيادته بين القوم.

عن أنس رضي الله عنه يقول : قال أبو طلحة لأم سليم : لقد سمعت صوت رسول الله صلى  
الله عليه وسلم ضعيفا أعرف فيه الجوع ، فهل عندك من شيء ؟ قالت : نعم . فأخرجت أقرصا من  
شعير ثم أخرجت خمارا لها فلفت الخبز ببعضه ثم دسته تحت يدي ولائتني ببعضه ، ثم أرسلتني إلى  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهبت فوجدته في المسجد ومعه الناس ، فقامت عليهم ، فقال لي  
رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرسلك أبوطلحة ؟ قلت : نعم ، قال : بطعام ؟ قلت : نعم . فقال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن معه : قوموا ، فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة  
فأخبرته ، فقال أبوطلحة : يا أم سليم ، قد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس وليس عندنا  
مانطعهم . فقالت : الله ورسوله أعلم ، فانطلق أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء  
معه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

هلمي يا أم سليم ما عندك ، فأنت بذلك الخبز ، فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ففُتَّ ،  
وعصرت أم سليم عكَّة - إناء من جلد - فأدَمَّتْهُ ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ما شاء

الله أن يقول، ثم قال :

إِثْنَدَن لِعَشْرَةَ، فَأَذَن لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ :

إِثْنَدَن لِعَشْرَةَ، فَأَذَن لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ :

إِثْنَدَن لِعَشْرَةَ، فَأَذَن لَهُمْ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ :

إِثْنَدَن لِعَشْرَةَ، فَأَكَل الْقَوْمُ كُلَّهُمْ وَشَبِعُوا، وَالْقَوْمُ سَبْعُونَ أَوْ ثَمَانُونَ رَجُلًا. رَوَاهُ الْخَمْسَةُ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ.

عن جابر رضي الله عنه قال : لما حفر الخندق رأيت برسول الله صلى الله عليه وسلم خمصا شديدا، فانكفأتُ إلى امرأتي، فقلت : هل عندك شيء، فإني رأيت برسول الله صلى الله عليه وسلم خمصا شديدا، فأخرجتُ إلي جرابا فيه صاع من شعير، ولنا بهيمة داجن - شاة صغيرة - فذبحتها، وطحنت الشعير ففرغته إلى فراغي، وقطعتُها في برمتها ثم وليتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت : لا تفضحني برسول الله صلى الله عليه وسلم وبمن معه، فجئته فساررته، فقلتُ : يا رسول الله ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعا من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا أهل الخندق، إن جابرا قد صنع سورا - وليمة - فحي هلا بكم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تُنزلن برمتكم ولا تخبزن عجينةكم حتى أجيء، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يقدّم الناس حتى جئتُ امرأتي فقالت : بك وبك، فقلت : قد قلتُ الذي قلت، فأخرجتُ له عجينا فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق فيها وبارك، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ادعي خابزة فلتخبز معك، وأقدحي من برمتكم ولا تنزلوها، وهم ألف. فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجينا ليخبز كما هو. رواه البخاري في غزوة الخندق.

وفي تسبيح الطعام بين يديه صلى الله عليه وسلم.

عن عبد الله رضي الله عنه قال : كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفا، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقل الماء فقال : اطلبوا فضلا من ماء، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل. فأدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يده في الإناء ثم قال : حيّ على الطهور المبارك والبركة من الله، فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم. ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. رواه البخاري. والترمذي بلفظ «كنا نأكل الطعام مع الطعام مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن نسمع تسبيح الطعام».

وفي تكثير التمر القليل.

عن جابر رضي الله عنه قال : توفي أبي وعليه دين، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : إن أبي ترك عليه دينا وليس عندي إلا ما يخرج نخله ولا يبلغ ما يخرج سنين ما عليه، فانطلق معي لكي لا يفحش علي الغرماء، فمشى حول بيدي - الموضع الذي يداس فيه الطعام بعد حصاده - من بيادر التمر، فدعا الله، ثم آخر، ثم جلس عليه فقال : انزعوه، فأوفاهم الذي لهم، وبقي مثل ما أعطاهم. رواه البخاري.

بها حينئذ الجذع كان يتكأ إليه صلى الله عليه وسلم.

عن جابر رضي الله عنه قال : كان المسجد مسقوفا على جذوع من نخل فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها ، فلما صُنع المنبر فكان عليه ، سمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها فسكنت. وفي رواية : فلما كان يوم الجمعة ورفِع إلى المنبر صاحت النخلة صياح الصبي. رواه البخاري والنسائي والترمذي بلفظ : فحن الجذع - حينئذ الناقه ، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم فمسه فسكن.

ومنها انقياد الشجر له صلى الله عليه وسلم.

عن جابر رضي الله عنه قال : سرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلنا واديا أُفَيْحَ - أوسع -- فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي حاجته فاتَّبَعْتُهُ بِإِدَاوَةٍ - إناء فيه ماء - من ماء ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ير شيئا يستتر به ، فإذا شجرتان بشاطيء الوادي ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحدهما ، فأخذ بغصن من أغصانها فقال : انقادي عليّ بإذن الله ، فانقادت معه كالبعير المخشوش - الذي في أنفه حلقة فيها حبل يقاد به - الذي يصانع قائده ، حتى أتى الشجرة الأخرى فأخذ بغصن من أغصانها فقال : انقادي عليّ بإذن الله ، فانقادت معه كذلك حتى إذا كان بالمنتصف مما بينهما لأم بينهما ، فقال : التئما عليّ بإذن الله فالتأمتا. قال جابر : فخرجتُ أُحْضِرُ مَخَافَةَ - أسعى بشدة وأتباعد عن النبي لئلا يراني قريبا منه - أن يحس رسول الله صلى الله عليه وسلم بقربي فيتعد أو فيتبعد ، فجلست أحدث نفسي ، فحانت مني لفتة فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا ، وإذا الشجرتان قد افتترقتا ، فقامت كل واحدة منهما على ساق ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف وقفة ، فقال برأسه هكذا - أشار برأسه يمينا وشمالا كأنه يكلم أو يصرف أحدا - ثم أقبل ، فلما انتهى إليّ قال : يا جابر ، هل رأيت مقامي ؟ قلت نعم يا رسول الله. رواه مسلم.

ومنها سرعة إجابة الدعوات له صلى الله عليه وسلم.

عن أنس رضي الله عنه قال : أصاب أهل المدينة قحط على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينما هو يخطب يوم الجمعة إذ قام رجل فقال : يا رسول الله ، هلكت الكراع ، هلكت الشاء ، فادع الله يسقينا ، فمد يديه ودعا. قال أنس : وإن السماء كمثلك الزجاجة ، فهاجت ريح أنشأت سحابا ثم اجتمع ثم أرسلت السماء عزاليها - المراد نزل المطر كأفواه القرب - فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا ، فلم تزل تمطر إلى الجمعة الأخرى ، فقام إليه ذلك الرجل أو غيره فقال : يا رسول الله ، تمهدمت البيوت ، فادع الله يجبسه ، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : حوالينا ولاعلينا ، فنظرتُ إلى السحاب تصدّع حول المدينة كأنه إكليل. رواه الخمسة إلا الترمذي.

ومنها إخباره بالمغيبات صلى الله عليه وسلم.

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : بينما أنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا قطع السبيل ، فقال : يا عدي ، هل رأيت الحيرة ؟ قلت : لم أرها



وقد أنبثت عنها ، قال : فإن طالت بك حياة لَتَرَيْنِ الظعينة - المرأة في الهودج - ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحد إلا الله ، قلت فيما بيني وبين نفسي : فأين دُعَاؤُ طِيٍّ - شرارهم - الذين قد سعروا البلاد ، ولئن طالت بك حياة لَتَفْتَحَنَّ كنوز كسرى . قلت كسرى بن هُرْمَزٍ ؟ قال : نعم . ولئن طالت بك حياة لَتَرَيْنِ الرجل يُخْرِجُ مِلء كفه من ذهب أو فضة فلا يجد من يقبله . وَلَيَلْقَيْنِ الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له فيقولن له : ألم أبعث إليك رسولا فيبلغك ، فيقول : بلى ، فيقول : ألم أعطك مالا وولدا وأفضلُ عليك ؟ فيقول : بلى ، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم ، وينظر عن يساره فلا يرى إلا جهنم ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة . قال عديّ : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ولا تخاف إلا الله ، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى ، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم ، رواه البخاري .  
ومنها انكشاف الغيب له صلى الله عليه وسلم .

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوما فصلى على أهل أحد صلواته على الميت ثم انصرف إلى المنبر فقال : إني فَرَطْتُ - ناظر نظرا بصريا - لكم ، وأنا شهيد عليكم ، وإني والله لأنظر إلى حوضي السآن ، وإني قد أُعْطِيتُ مفاتيح خزائن الأرض ، أو مفاتيح الأرض ، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ، ولكن أخاف عليكم أن تتنافسوا فيها . رواه الشيخان . وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة فسمعناه يقول : أعوذ بالله منك ، ثم قال : ألعنك بلعنة الله ثلاثا ، وبسط يده كأنه يتناول شيئا ، فلما فرغ من الصلاة ، قلنا : يارسول الله ، قد سمعناك تقول في الصلاة شيئا لم نسمعك تقول قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك ، قال : إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليحمله في وجهي ، فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة ، فلم يستأخر ثلاث مرات ، ثم أردت أخذه . والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة . رواه الشيخان .

وفي هذا القدر كفاية ، والله ولي التوفيق .

## من دعاء القرءان الكريم

- نصوص أدعية من القرآن الكريم مختارة، روعي فيها التنسيق من غير تطويل ولا تكرار.
- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم
- « الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، ملك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين».
- «رب أعوذ بك من همزات الشيطان ، وأعوذ بك رب أن يحضرون».
- «رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق ، واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا».
- «رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين».
- «رب أوزعني إذ أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين».
- «رب لا تدروني فردا وأنت خير الوارثين».
- «رب هب لي من لدنك ذرية طيبة ، إنك سميع الدعاء».
- «رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبي وبني أن نعبد الأصنام».
- «رب هب لي من الصالحين».
- «رب إني لما أنزلت إليّ من خير فأني فقير» ،
- «رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ، ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب».
- «ربنا هب لنا من أزواجنا وذريتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما».
- «ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد».
- «ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين».

- «ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين».
- «ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين».
- «ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين».
- «ربنا أمانا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين».
- «ربنا أمانا فاغفر لنا وارحمنا، وأنت خير الراحمين».
- «ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير».
- «ربنا أتنا من لدنك رحمة وهب لنا من أمرنا رشدا».
- «ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا. إنك على كل شيء قدير».
- «ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم».
- «ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين».
- «ربنا لا تؤخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين».
- «ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة»
- «ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين».
- «ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون».
- «ربنا أتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».
- «ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما».
- «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم».
- «سلام قولا من رب رحيم».
- «حسبنا الله ونعم الكيل».
- «قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاتات في العقد، ومن شر حاسد إذا حسد».
- «قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس».
- سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

## من دعاء الرسول الأمين

مجموعة أدعيته صلى الله عليه وسلم نوردها لاعلى سبيل الحصر، وهي مقسمة إلى جوامع أدعية واستعاذة، مختومة بدعاء لحفظ القرآن.

### جوامع

- « اللهم أتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »
- « اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر ».
- « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا ، سبحان الله رب العالمين ، لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم... اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني ».
- « اللهم ربّ السموات السبع وربّ العرش العظيم ، ربّنا وربّ كلّ شيء من منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، فالق الحب والنوى ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ».
- أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عني الدين أعني من الفقر ».
- « اللهم اكفني بحلالك عن حرامك ، وأغنني بفضلك من سواك ».
- « اللهم إنب أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال ».
- « اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين ، وأصلح لي شأني كله ، لا إله إلا أنت ».
- « رب أعني ولا تعن عليّ ، وانصرني ولا تنصر عليّ ، وامكُرْ لي ولا تمكر عليّ ، واهدني ويسر الهدى لي .

وانصرني على من بغى عليّ ، ربّ اجعلني شاكرا لك ، ذاكر لك ، رهابالك ، مطيعالك ، مُخْتَبِئًا إِلَيْكَ ، أَوْاهًا مَنِيئًا ، رب تقبل توبتي واغسل حوبتي ، وأجب دعوتي ، وثبت حجتي ، وسدد لساني ، واهد قلبي ، واسأل سَخِيمَةَ صَدْرِي ».

- « اللهم اغفر لي خطاياي وعمدي وجهلي وهزلي ، وكل ذلك عندي . اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيء قدير» .  
- « اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى» .

- « اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني» .

- « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصيبات الدنيا ، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا»

- « اللهم إني أسألك الثبات في الأمر ، وأسألك عزيمة الرشد ، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك ، وأسألك لسانا صادقا ، وقلبا سليما ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأستغفر مما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب» .

- « اللهم عافني في جسدي ، وعافني في بصري ، واجعله الوارث مني ، لا إله إلا الله الحليم الحكيم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين» .

- اللهم إني أسألك من صالح ما تؤتي الناس من المال والأهل والولد غير الضال ولا المضلّ .

- « اللهم انفعني بما علمتني ، وعلمني ما ينفعني وزدني علما . الحمد لله على كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار» .

- « اللهم إني أسألك حبّك وحبّ من يحبّك ، والعملّ الذي يبلّغني حبّك . اللهم اجعل حبّك أحبّ إليّ من نفسي وأهلي ، ومن الماء البارد»

- « اللهم ارزقني حبك وحب من ينفعني حبه عندك اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب ، اللهم وما زويت عني مما أحب فاجعله لي قوة فيما تحب»

## استعاذة

- « اللهم إنا نسألك من خير ما سألك منه نبيك محمدٌ ، ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه نبيك محمدٌ ، وأنت المستعان وعليك البلاغ ، ولا حول ولا قوة إلا بالله»

- « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، والعجز والكسل ، والجبن والبخل ، وضلع الدين ، وغلبة الرجال» .

- « اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهزم والمأثم والمغرم ، ومن فتنة القبر ، وعذاب القبر ، ومن فتنة النار ، وعذاب النار ، ومن شر فتنة الغنى ، وأعوذ بك من فتنة الفقر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، اللهم اغسل عني خطاياي بماء الثلج والبرد ، ونقّ قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس ، وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب»

- « اللهم إني أعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من أن أُرذِلَ إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر »

- « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل والهرم ، وعذاب القبر ، اللهم أت نفسي تقواها ، وزكّتها أنت خير من زكّائها ، أنت وليّها ومولاها ، اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها »

- « اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعمل »

- « اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك ، وفجأة نقمتك ، وجميع سخطك » .

- « اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات » .

- « اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي ، ومن شر بصري ، ومن شر لساني ، ومن شر قلبي ، ومن شر مني »

- « اللهم إني أعوذ بك من الهدم ، وأعوذ بك من التردّي ، وأعوذ بك من الغرق والحرق والهرم ، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت ، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مذبراً ، وأعوذ بك أن أموت لديغاً » .

- « اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة ، وأعوذ بك من أن أظلم أو أُظلم » .

- « اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق » .

- « اللهم إني أعوذ بك من البرص والجنون والجذام وسيء الأسقام » .

- « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، لأُحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »

- « اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء »

## حفظ القرءان

عن ابن عباس رضي الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاءه عليّ رضي الله عنه فقال : بأبي أنت وأمي يارسول الله ، تفلّلت هذا القرءان من صدري فما أجدني أقدر عليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا الحسن - كنية لعلي - أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن وينفع بهن من علمته ، ويثبت ما علمت في صدرك قال : أجل يارسول الله ، فعلمني . قال : إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم في ثلث الليل الأخير ، فإنها ساعة مشهودة ، والدعاء فيها مستجاب ، وقد قال أخي يعقوب لبيه ، سوف أستغفر لكم ربي ، يقول حتى تأتي ليلة الجمعة ، فإن لم تستطع فقم في وسطها ، فإن لم تستطع فقم في أولها ، فصل أربع ركعات تقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسورة ياسين ، وفي الركعة الثانية بفاتحة الكتاب وحَم " الدخان " ، وفي الركعة الثالثة بفاتحة

الكتاب وآلم تنزيل «السجدة» وفي الرابعة بفاتحة الكتاب وتبارك " المفصل " ، فإذا فرغت من التشهد فاحمد الله وأحسن الثناء على الله وصلِّ عليّ وأحسن ، وعلى سائر النبيين ، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، ولإخوانك الذين سبقوك بالإيمان ثم قل في آخر ذلك.

- « اللهم ارحمني بترك المعاصي أبدا ما أبقيتني ، وارحمني أن أتكلف ما لا يعينني ، وارزقني حسن النظر فيما يرضيك عني ، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام. أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تُلزم قلبي حفظ كتابك كما علمتني ، وارزقني أن أتلوه على النحو الذي يرضيك عني ، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام والعزة التي لا ترام ، أسألك يا الله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تنور بكتابك بصري وأن تطلق به لساني ، وإن تفرّج به عن قلبي ، وأن تشرح به صدري ، وأن تُعَمِّلَ به بديني ، لأنه لا يعينني على الحق غيرك ، ولأيوّتيه إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»

يا أبا الحسن ، فافعل ذلك ثلاث جمع أو خمس أو سبع تجاب بإذن الله ، والذي بعثني بالحق ما أخطأ مؤمنا قط.

قال ابن عباس رضي الله عنه : فوالله ما لبث عليّ إلا خمسا أو سبعا حتى جاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مثل ذلك المجلس فقال : يا رسول الله ، إني كنت فيما خلا لا آخذ إلا أربع آيات أو نحوهن ، وإذا قرأتهنّ على نفسي تفلتن ، وأنا اليوم أتعلم أربعين آية أو نحوها ، وإذا قرأتها على نفسي فكأنها كتاب الله بين عيني ، ولقد كنت أسمع الحديث ، فإذا رددته تفلت وأنا اليوم أسمع الأحاديث ، فإذا تحدثت بها لم أُحْرِم منها حرفا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : مؤمنٌ ورب الكعبة يا أبا الحسن»

## من دعاء بعض المشايخ

هذه أدعية قصيرة أوردتها لبعض مشايخ الصوفية لاعلى سبيل الحصر، وهي :

### دعاء ذو النون المصري

- « اللهم الحول حولك، والطول طولك، ولك في كل خلقك مدد قوة وحول، وأنت الفعال لما يشاء، لا العجز ولا الجهل يعارضانك. ولا النقصان والزيادة يميلانك، وأنى يعارضانك وهما ما حدثت أو يرومان إحالتك، وهما ما خلقت، وكيف لا يكونان مما أحدثتوما خلقت وأنت الموجود بالدلائل عليك، فلن يخلق خلقك غيرك أنت، فتباركت يامن كلُّ مدروك فمن خلقه، وكل محمود المدروكات فمن صنعه، أنت الذي لا يدرك في الدنيا العيان، ولا يستغني عنك مكان، ولا يعرفك غيرك إلا بإقراره لك بالوحدانية، ولا يجهلك من خلفك إلا ناقص المعرفة، ولا يسهيك شيء عن شيء. ولا يحد قدرتك أحد، ولا يخلو منك مكان، ولا يشغلك شأن عن شأن»

وله أيضا :

- « اللهم اجعل العيون منّا فوارات بالعبرات، والصدور منا محشوة بالعبر والحُرقات، واجعل قلوبنا غواصة في موج قرع أبواب السموات، تائهة من خوفك في البوادي والفلوات. افتح لأبصارنا بابا إلى معرفتك ولمعرفتنا أفهاما إلى النظر في نور رحمتك، يا حبيب قلوب الواهين، ومنتهى رغبة الراغبين»

وله أيضا :

- « اللهم أنت أنس المؤمنين لأولياك، وأقربهم بالكفاية من المتوكلين عليك لمشاهدتهم، فضمائرهم تطلع على أسرارهم. إلهي سرِّي إليك مكشوف، وأنا إليك ملهوف، إذا أوحشني الذنب أنسني ذكرك، عالما بأن أزمة الأمور بيدك، وأن مصدرها عن قضائك. إلهي من أولى بالذل والتقصير مني، وقد خلقتني ضعيفا، ومن أولى بالعفو منك وعلمك بي سائق وأمرك بي محيط، أطلعتك بإذنك، والمنة لك عليّ، وعصيتك بعلمك والحجة لك عليّ، أسألك بوجوب رحمتك، وانقطاع حاجتي وتفقرِّي إليك، وغناك عني أن تغفر لي خطيئتي الظاهرة والباطنة»



## دعاء الجنيد

- « اللهم إني أسألك يا خير السامعين ، وبجودك ومجدك يا أكرم الأكرمين وبكرمك وفضلك يا أسمح السامحين ، وبإحسانك ورأفتك يا خير المعطين ،

أسألك سؤال خاضع خاشع متذلّل متواضع ضارع اشتدت إليك فاقتة ، وأنزل بك على قدر الضرورة حاجته ، وعظمت فيما عندك رغبته ، وعلم أن لا يكون شيء إلا بمشيئتك ، ولا يشفع شافع إليك إلا من بعد إذنك ، فكم من قبيح قد سترته ، وكم من بلاء قد صرفته ، وكم من عثرة قد أقلتتها ، وكم من زلة قد سهلت بها ، وكم من مكروه قد رفعته ، وكم من ثناء قد نشرته. أسألك يا سامع أصوات المستغيثين ، وعالم خفي إضمار الصامتين ، ومطلعاً في الخلوات على أفعال المتحركين ، وناظراً إلى مآدق وجل من آثار الساعين ، أسألك أن لا تحجب بسوء فعلي عنك صوتي ، ولا تفضحني بخفي ما طلعت عليه من سري ، ولا تعاجلني العقوبة على ما علمته من خلواتي ، وكن بي في كل الأحوال رافقاً ، وعلي في كل الأحوال عاطفاً ، إلهي وسيدي وسندي أنا بك عائد لائذ مستغيث مستجير من تكاثف مخاوف علل سري ، ومن لزوم ذلك ضميري وقلبي ، حتى يكاد ذلك أن يملأ صدري ، ويوقف عليّ الإنبساط إلى ذكرك عقلي ولساني ، ويمنع من الحركة في الخدمة جسمي ، فأنا في حبس ما يعارضني من ذلك من النقص والتقصير ، وأسألك أن تُخرج ذلك عن ذكري ، وتمنعه من قلبي ، واجعل أوقاتي من الليل والنهار بذكرك معمورةً ، وبخدمتك موصولةً ، حتى يكون الوردُ وُروداً واحداً ، والاسماءُ سماً واحداً لا سامة فيه ولا فتورَ ولا مللَ ولا تقصيرَ حتى أُسرع به إليك في حين المبادرة ، وأسرح بذلك إليك في ميادين المسابقة ، وارزقني من طعم ذلك اللذائذ السابغة يا أكرم الأكرمين»

وله أيضا :

- « إلهي وسيدي ومولاي ، من أحسن منك حكماً لمن أيقن بك ، ومن أوسع منك رحمةً لمن اتقاك وقصدك ، ومن أسرع منك عطفاً ورأفةً لمن أرادك وأقبل على طاعتك ، فكلهم في نعمائك يتقبلون ، ولك بفضلك عليهم يعبدون ، سرت همومهم لك إليك ، وانفردت إرادتهم لديك ، وأقبلت قلوبهم بك عليك ، وفيتت حظوظهم من دونك واجتمعت لك وحدك ؛ ، فهم إليك في الليل والنهار متوجهون ، وعليك في كل الأحوال مقبلون ، ولك على الأحوال مؤثرون ، فأنا أسألك إلهي وسيدي ومولاي أن تكون لي بفضلك كاليا كافياً عاصماً راحماً ، فإني إليك لاجيء وبك مستغيث وإليك راغب ومنك راهب ، وعليك في أمور الدنيا والآخرة متوكل ، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»

## دعاء أبو سعيد

- « اللهم إني أسألك بحقك عليك ، فلا حق أحق من حقك عليك بحقك على أهل الحق ، وبحق أهل الحق عليك ، وبحق كل ذي حق بأن لك بقدمك بعلمك بكل شيء ، وملكك لكل شيء وقدرتك على كل شيء ، صل على محمد وعلى آله ، وأن تفعل بي... كذا وكذا...»

## دعاء الشبلي

- « اللهم لك الحمد يا ضياء السموات والأرض ، ويا بهاء السموات والأرض ، ويا قيوم السموات والأرض ، ويا نور السموات والأرض ، بحق أسمائك عليك ، وبحقك عليك فلاحق أجل منك عليك ، وبحق ما أنزلت ، وبحق من جعلت له فهما فيما أنزلت يا أالله ، ويا من لاسواك الله ، ويا من أنت الله صل على محمد وعلى آل محمد ، وأجمعهم ولا تشتتهم ، وارحم ظواهرهم واعمروا بواطنهم لهم بالكفاية والكفاية وكن لهم عوضاً من كل عوض ، وارحمهم ولا تردهم إليهم طرفة عين ولا أقل من ذلك ، بحق كل حق ، وأنت ذلك الحق ، واجعلهم أتقياء وأجلاء في معانك اللدنية ، واجعلهم ممن إذا قال قال على التحقيق ، وإذا سكت فلا سواك »

## دعاء يحيى بن معاذ

- « اللهم إن نجيتني نجيتني بعفوك ، وإن عذبتني عذبتني بعدلك ، رضى ما بي لأنك ربي وأنا أعبدك ، إلهي أنت تعلم أني لأقوى على النار وأنا أعلم أني لأصلح للجنة فما الحيلة إلا عفوك »

## دعاء إبراهيم المارستاني

- « اللهم إني أسألك حسن الإقبال عليك ، والإصغاء إليك ، والفهم عنك ، والبصيرة في أمرك ، والنفاذ في طاعتك ، والمواظبة على إرادتك ، والمبادرة في خدمتك ، وحسن الأدب في معاملتك ، وبرّ التسليم إليك ، والنظر إلى وجهك »

## نصوص للصلاة على الرسول الأمين

قال الله عز وجل «إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسلياً»

وقال صلى الله عليه وسلم «من صلى عليّ صلاةً صلى الله عليه بها عشراً».

وقال أيضاً «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة».

وقال أيضاً «لا تجعلوا قبوري عيداً، وصلوا عليّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم».

وقال أيضاً «البخيل من ذُكرت عنده فلم يصل عليّ».

وعن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه أنهم قالوا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ قال:

«قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه قال: لقيني كعب بن عجرة فقال:

«ألا أهدي لك هدية، إن النبي صلى الله عليه وسلم خرج علينا، فقلنا يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال:

«قولوا: اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد».

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله، هذا السلام عليك فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللهم صل على محمد عبدك ورسولك، كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت، فليقل: اللهم صل على محمد النبي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد»،

وسأختصر مجموعة من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم أقتبسها بتصرف من «دلائل الخيرات وشوارق الأنوار، في ذكر الصلاة على النبي المختار» للشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي، ومن «الطيب الفاتح، في صلاة الفاتح» للشيخ محمد بن عبد الواحد النظيفي.

اللهم صل على سيدنا محمد وآل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم ، وبارك على سيدنا محمد وآل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد.

اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آل سيدنا محمد.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وارحم سيدنا محمدا وآل سيدنا محمد وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت ورحمت وباركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

اللهم صل على سيدنا محمد عدد من صلى عليه.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما تحب وترضاه له.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى أهل بيته.

اللهم صل على سيدنا محمد نبيك ورسولك ، وسيدنا إبراهيم خليلك وصفيك ، وسيدنا موسى كلِيمِك و نَجِيك ، وسيدنا عيسى روحك وكلمتك ، وعلى جميع رسلك وأنبيائك وملائكتك وخيرتك من خلقك وأصفيائك وخاصتك وأوليائك من أهل أرضك وسمائك.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى أزواجه وذريته وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين وجميع عباد الله الصالحين.

اللهم صل على سيدنا محمد عدد خلقك ورضاء نفسك ووزنة عرشك ومداد كلماتك ومبلغ علمك وآياتك.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد عدد من صلى عليه ، وصل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما أمرت أن نصلي عليه.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى أهل بيته الأبرار أجمعين.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله ، بحر أنوارك ومعدن أسرارك ولسان حجتك وعروس مملكتك ، وإمام حضرتك وخاتم أنبيائك ، صلاة تدوم بدوامك وتبقى ببقائك ، صلاة ترضيك وترضيه وترضى بها عنايا رب العالمين ، اللهم أبلغ لسيدنا محمد أسمى السلام.

اللهم صل على سيدنا محمد سيدي الأولين والآخرين ، وصل عليه في الملائكة الأعلى إلى يوم الدين ، وصل عليه حتى ترث الأرض ومن عليها وأنت خير الوارثين.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد عدد ما أحاط به علمك وجرى به قلمك وسبقت به مشيئتك وصلت عليه ملائكتك ، صلاة دائمة بدوامك باقية بفضلك وإحسانك إلى أبد الأبد.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى جميع أصحاب سيدنا محمد وعلى كل التابعين وتابع التابعين ومن تبعهم بالإحسان إلى يوم الدين.

اللهم صل على سيدنا محمد عدد ما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.  
اللهم صل على سيدنا محمد بالغدو والأصال أفضل صلواتك.  
اللهم صل على نبي الرحمة وشفيع الأمة وكاشف الغمة ومُجلي الظلمة ومؤتي الرحمة.  
اللهم صل على سيدنا محمد صاحب الحوض المورود والمقام المحمود واللواء المعقود والمكان المشهود.

اللهم صل على سيدنا محمد صاحب الشامة، الموصوف بالكرامة المخصوص بالزعامة، من هو في السماء محمود، وفي الأرض محمد.

اللهم صل على سيدنا محمد صاحب الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والشفاعة يوم القيامة.  
- اللهم صل على سيدنا محمد صاحب السلطان والبرهان، والتاج والمعراج، والراكب على البراق، والمخترق السبع الطباق، والشفيع في جميع الأنام.

اللهم صل على سيدنا محمد وأبينا آدم وأمناء وكافة الأنبياء والرسل إلى يوم الدين  
اللهم صل على سيدنا محمد وأله وصحبه، وصل على جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وحملة العرش والملائكة المقربين، وصل على جميع الأنبياء والمرسلين إلى يوم الدين.  
اللهم صل على سيدنا محمد صلاتك التي صليت عليه، وسلم على سيدنا محمد سلامك الذي سلمت عليه.

اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تنجيننا بها من جميع الأهوال والآفات، وتقضي لنا بها جميع الحاجيات، وتطهر بها من جميع السيئات، وترفعنا بها أعلى الدرجات، وتبلغنا بها أقصى الغايات، من جميع الخيرات في الحياة وبعد الممات.

اللهم صل على سيدنا محمد الذي ملأت قلبه من جلالك، وعينه من جمالك، فأصبح فرحا مؤيدا منصورا، وعلى أله وصحبه وسلم تسليما.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، واعطه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته.

اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تكرم مثواه، وتشرف بها عقباه، وتبلغ بها يوم القيامة مناه ورضاه.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، وارحم سيدنا محمدا وآل سيدنا محمد، كما صليت وباركت وترحمت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد.

اللهم صل على نبيك المصطفى ورسولك المرتضى وولييك المجتبي وأمينك على الوحي.

اللهم صل على سيدنا محمد نور الهدى ، والقائد إلى الخير، والداعي إلى الرشيد إمام المتقين ،  
ورسول رب العالمين.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا طيبا مباركا دائما بدوام ملكك يا  
أرحم الراحمين.

اللهم صل على سيدنا محمد في الليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ، وصل على سيدنا محمد في  
الآخرة والأولى.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد عدد الملائكة وتسبيحهم وتقديسهم وتمجيدهم  
وتمجيدهم وتكبيرهم وتهليلهم من يوم خلقتهم إلى يوم القيامة.

اللهم صل على سيدنا محمد عدد ماجرى به القلم في علم غيبك إلى يوم القيامة.

اللهم صل على سيدنا محمد وآله قدر ماتحبه وترضاه ، وعدد ما يحبه ويرضاه.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الكرام ، صلاة موصولة دائمة الاتصال بدوامك  
ياذا الجلال والإكرام.

اللهم صل على سيدنا محمد قطب الجلالة وشمس النبوة والرسالة والمنقذ من الجهالة والضلالة ،  
صلى الله عليه وسلم صلاة دائمة الاتصال والتوالي ، متعاقبة بتعاقب الأيام والليالي.

اللهم صل على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

اللهم صل على سيدنا محمد بن عبد الله ، القائم بحق الله ، ماداق أمر لإفرجه الله.

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ، ناصر الحق بالحق ، والهادي إلى  
صراطك المستقيم ، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم.

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، ناصر الحق بالحق ، والهادي إلى  
صراط المستقيم ، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ، صلاة تنجينها من جميع الأهوال والأفات ،  
وتقضي لنا بها جميع الحاجات ، وتظهرنا بها من جميع السيئات ، وترفعنا بها أعلى الدرجات ، وتبلغنا بها  
أقصى الغايات ، من جميع الخيرات في الحياة وبعد الممات.

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، ناصر الحق بالحق ، والهادي إلى  
صراط المستقيم ، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ، صلاة تعرّفنا بها الذات الأحمديّة ، في جميع  
اللحظات واليقظات ، وتفيض بها علينا من جمالها وجلالها من الأنوار والأسرار والمعارف والتجليات  
والفيوضات ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد من المخلوقات.

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، ناصر الحق بالحق ، والهادي إلى  
صراطك المستقيم ، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم ، صلاة تغرقنا بها في بحر مشاهدة ذاتك

الأحدية ، وتؤيدنا بالعناية المحمدية ، والهمة الأحمديّة ، في جميع الحالات والمقامات ، وتديمها علينا  
مادامت الأرض والسموات.

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، ناصر الحق بالحق ، والهادي إلى  
صراطك المستقيم ، وعلى أله حق قدره ومقداره العظيم ، صلاة تجعلنا بها من الذين قالوا الحمد لله  
الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء. آمين.

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، ناصر الحق بالحق ، والهادي إلى  
صراطك المستقيم ، وعلى أله حق قدره ومقداره العظيم ، صلاة عبد ناداك رغبا ورهبا. رب هب لي من  
لدنك ذرية طيبة ، إنك سميع الدعاء ، رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ، ربنا وتقبل دعائي  
آمين

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، ناصر الحق بالحق والهادي إلى  
صراطك المستقيم ، وعلى أله حق قدره ومقداره العظيم ، صلاة تهب لنا بها خلافة ربانية ، وولاية  
صمدانية ، وعلما لدنيا ، وسرا وهيبا ، بحق اسمك اللهم مالك الملك توتي الملك من تشاء ، وتنزع  
الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير ، آمين.

## خاتمة

والآن أيها القارئ الكريم.

دعك من حياتك الغير المركزة التي لا يستقر عليها حالك حتى في أكلك ومشربك وملبسك ومسكنك، دعك من التيارات الفكرية اليومية التي تجتاحك من كل حذب وصبوب، دعك من حيرتك اليومية التي لا يتم ليها إلا بمسكنات، دعك من هذا وذاك، فأنت لم تخلق عبثا لتضل بك الأهواء، وتقف مكتوف الأيدي كالولهان الذي لا يفقه شيئا، أنت مخلوق لأداء رسالة معينة في هذه الحياة، أنت خليفة الله في أرضه.

قم أيها الكريم. وعالج نفسك قبل العاجلة، وأعلنها ثورة على نفسك الأمارة أو اللوامة، وعلى الشيطان الرجيم الذي سيتبرأ منك في الختام قائلا: «إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين»  
أعلنها ثورة فكرية مبصرة عملية على نفسك. إنهمض نهضة مجذوب اقشعر جلده وارتعدت أفراسه ووقف شعره خوفا ووجلا من الرحمن الذي يعلم السر وأخفى.

إقرع باب التوبة فإنه يفتح لك فترى سر حقيقة الحياة، وسر الحقيقة الأحمديّة.  
فحينذاك صلّ على الحبيب المختار، وعلى أله الأبرار، ومن تبعهم من الأخيار، والله ولي التوفيق.



## المراجع

- 1- إحياء علوم الدين. جزء 1 - 2 - 3 - 4 - 5 . تأليف الإمام ابي حامد محمد بن محمد الغزالي - المكتبة التجارية الكبرى - مصر.
- 2- التاج الجامع للأصول. 1- 2- 3- 4- 5. تأليف الشيخ منصور على ناصف - طبعة 4 - مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه - مصر.
- 3- من أعلام التصوف الإسلامي 1- 2- تأليف طه عبد الباقي سرور - دار نهضة مصر للطبع والنشر - القاهرة.
- 4- أصل الإنسان وسر الوجود - جزء 4- تأليف باسمة كيال - طبعة 1 - سنة 1981م - منشورات دار مكتبة الهلال - بيروت.
- 5- نعت البدايات وتوصيف النهايات - تأليف الإمام ماء العينين بن الشيخ سيدنا محمد فاضل بن مامين - المكتبة التجارية الكبرى - مصر.
- 6- فائق الرتق على راتق الفتق - بهامش كتاب - نعت البدايات وتوصيف النهايات لنفس المؤلف.
- 7- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي - دار مطابع الشعب.
- 8- قرآن كريم - بهامشة تفسير الإمامين الجليلين جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي - سنة 1952م - مطبعة محمد علي صبيح وأولاده - مصر.
- 9- الإسلام - تأليف سعيد حوى - طبعة 2- سنة 1979م - دار الكتب العلمية - بيروت
- 10- الرسول صلى الله عليه وسلم - تأليف سعيد حوى - طبعه 4- سنة 1979 م - دار الكتب العلمية - بيروت.
- 11- تلبيس إبليس - تأليف الإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي - طبعة 2. سنة 1928م - مطبعة النهضة - مصر.
- 12- روضة التعريف بالحب الشريف - تأليف الوزير لسان الدين بن الخطيب - دار الفكر العربي - بيروت.

- 13- طبقات الصوفية - تأليف أبي عبد الرحمن السلمي - طبعة 2 سنة 1969م .
- 14- اللمع في التصوف - تأليف أبي نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي - طبعة 1 - سنة 1914م - مطبعة بريل - لندن.
- 15 - ولاية الله والطريق إليها - بقلم إبراهيم هلال - دراسة وتحقيق لكتاب قطر الولي على حديث الولي - للإمام الشوكاني - طبعة 1 - سنة 1969م - دار الكتب الحديثة - مصر.
- 16- الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ - تأليف سيدي أحمد بن مبارك - دار العلم للجميع.
- 17 - رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين - تأليف الإمام محي الدين أبي زكرياء يحيى بن شرف النووي - المكتبة التجارية الكبرى - مصر.
- 18- أقطاب التصوف الثلاثة - تأليف صلاح عزام - طبعة 3 - سنة 1968م - مؤسسة دار القطب - القاهرة.
- 19- مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم - تأليف الشيخ سيدي محمد محي الدين بن محمد بن علي بن العربي - طبعة 1 سنة 1907م - مطبعة السعادة - مصر.
- 20 - السعادة الأبدية لأبي مدين الشافعي - تأليف عبد الحميد حميد والتلمساني - سنة 1935 م - المطبعة الجديدة - فاس - المغرب.
- 21- المنقذ من الضلال - تأليف الإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي - مكتبة الجندي - مصر.
- 22- الرياضة وأدب النفس - تأليف الإمام أبي عبد الله محمد بن علي بن الحسين الحكم الترمذي. سنة 1949م - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر
- 23 - مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب - تأليف عبد الرحمن بن محمد الأنصاري المعروف بابن الدباغ - سنة 1959م - دار صادر ودار بيروت - بيروت.
- 24 - النفس البشرية عند ابن سينا - جمع وترتيب وتعليق وتقديم الدكتور ألبير نصري نادر - سنة 1968م - دار الشرق - بيروت.
- 25- مع الأنبياء في القرآن الكريم - تأليف عفيف عبد الفتاح طباره - مطبعة دار الكتب - بيروت.
- 26- الطيب الفاتح والورد السانح في صلاة الفاتح - للشيخ محمد بن عبد الواحد النظيفي - مطبعة السعادة - مصر.
- 27- دلائل الخيرات وشوارق الأنوار، في ذكر الصلاة على النبي المختار - الشيخ أبو عبد الله محمد بن سليمان الجزولي - سنة 1327هـ - مطبعة عثمانية - درسعادت - تركيا.
- 28- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين - تأليف الشيخ محمد الحضري بك - المكتبة التجارية الكبرى - مصر.

## فهرس الكتاب

4	إهداء
5	مقدمة
7	كلمة تصوف
10	التصوف
14	المتصوف
16	منشأ العلم الصوفي
18	طبقات الصوفية
22	طرق الصوفية
26	أدب المتصوفة
30	حال الصوفية
32	تصورات ثلاثة أقطاب
32	الإمام أحمد الرفاعي
35	الإمام أحمد البلوي
39	الإمام عبد الرحيم القنائي
44	الشيخ
47	أدب المرید
49	الإشارة إلى المقامات
51	الأحوال والمقامات
55	مقام الحيرة
57	مقام السالكين

59	مقام المعرفة
64	الخواطر
65	فهم أهل الصفوة
67	الدعوة إلى الله
69	منزلة العبد عند خالقه
72	سلوك العباد
76	الطريق إلى الولاية
79	الإسلام
83	أسلوب القرءان عن الآخرة
88	تلاوة القرآن
93	التوحيد
96	تقوية الإيمان
102	النية
104	التوبة
112	من مناقب أبي مدين شعيب
116	أخلاق الصوفية
119	كسر الشهوة
122	التوفيق
125	الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
127	الإخلاص والأمانة
129	الحياء والورع
131	الألفة والمحبة والعشق
134	قيام الليل
137	الصوم
140	الرياضة والإعتكاف والخلوة
143	الذكر والدعاء والورد

BIBLIOTHEGA ALEXANDRINA  
مكتبة الاسكندرية

149	المعاش
151	الزهد
153	الخوف والرجاء
155	الصبر والشكر
158	إشراق القلب
160	العقل
162	النفس
164	العلوم المرتبطة بالسعادة الأبدية
166	التحقيق بعمل الأعضاء
168	الأطباق والعروق
175	الظلام الذي يدخل ذوات العباد
180	الفتح النوراني والظلماني
183	الظاهر والباطن
186	حكم وأسرار
189	عالم المثال والحفظة الكرام
191	فتن إبليس
195	آدم
198	الدنيا
204	مناقشة العزلة
208	القضاء والقدر
212	وصية
216	رؤية الرسول «ص» والوعد بالجنة
218	شمال الرسول وأوصافه ومعجزاته
224	من دعاء القرءان الكريم
226	من دعاء الرسول الأمين
230	من دعاء بعض المشايخ
233	نصوص للصلاة على الرسول الأمين
238	خاتمة
239	مراجع
241	الفهرس

انتهى

بحمد الله وعونه

مساء يوم السبت 20 ربيع الثاني سنة 1407 هجرية

موافق لـ 12 دجنبر 1987 ميلادية . أسأل الله أن يعم نفعه

ويتبني عليه . وصلى الله على سيد الأولين

والآخرين

عنوان المؤلف :

عبد الحميد الجوهري

ص . ب . 112 هاتف المنزل : 17 - 26 - 62 - (04) أسفي

المغرب

تم الطبع بمطابع افريقيا الشرق

159 مكرر، شارع يعقوب المنصور - الدار البيضاء -

الهاتف : 13 . 98 . 25 - 04 . 95 . 25





## التصوف مشكاة الحيران

في هذا الكتاب

- \* إبراز معاني أسرار الدين الإسلامي نحو معرفة الله جل جلاله.
- \* تأكيد مدى القوة الروحية للرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم.
- \* إنقاذ روعي للعقل من مخالب المادة التي أبعدت الإنسان عن الروحية.
- \* طمأنينة وراحة واستقرار للفكر الحائر.
- \* مفتاح سر حقيقة الوجود لمن أراد سلوك الصراط المستقيم.
- \* مشكاة ونبراس للنفوس التي تشعر بالوسخ والظلمة.
- \* عين يشرب منها عباد الله الصالحين.
- \* إقرار سلطة الاختيار من شرود العقل التائه.
- \* حرب ضد الإيديولوجيات والفلسفات التي ضلت وأضلت.